

أغراض الشعر في عصر النبوة

كان الشعر الجاهلي يدور في فلك أغراض تتعلق بالحياة العامة في العصر الجاهلي، وهي: الحماسة، (وذلك لكثرة الغزوات، والجهاد في سبيل الله) و المديح والافتخار والثناء، والهجاء (أو الذم)، والاعتذار (أو الاستعطاف)، والعتاب (أو التأنيب أو اللوم)، والغزل، والوصف.

وبعض هذه الموضوعات يدخل في بعض فنجد الفخر مع المديح، فيفتخر بنفسه وبالممدوح وبصلته به والمديح والفخر يدخلان في الحماسة، ونجد الاعتذار مع المديح، فالمعتذر يعتذر بمدحه، واللوم والعتاب والتوبيخ والتأنيب نجدهم معاً في عمال واحد.

والوصف يدخل في الغزل والمدح والفخر ويأتي كثيراً في مقدمة القصائد الجاهلية وتكاد قصائد الجاهلية لا تخلو من وصف، فشاعر الجاهلية كثير التأمل لصفاء قريحته، واتساع الأجواء من حوله وإحساسه بالطبيعة من حوله واحتكاكه المباشر بها بخلاف شاعر المدينة الذي يقبع في حجرة أو مكان مغلق هرباً من الناس، ليخلوا إلى خياله، ويفسح لقريحته أن تفيض ويستنطق لسانه، ولكن شاعر الجاهلية كان خياله فياضاً ينطلق في فضاء مد بصره، ويتواصل مع الفلك بعينه، ويجاسر البيئة بجسده، فيشعر بكل شيء شعوراً صادقاً.

وقد شغل الوصف مساحة كبيرة من مقدمات القصائد الجاهلية، فالشعر يسترسل في وصف الحبيبة والناقة، والصحراء ومعالمها والليل ونجومه وقمره. ويصفون كل شيء وقعت عليه أعينهم وصفاً دقيقاً، وقد برعوا فيه براعة فائقة، ويصفونه غالباً بعد ذكر المحبوب والتغزل فيه أو التشبيب، فيستغرقهم وصف الصحراء إن كانوا في سفر أو هجرة، أو فراق حبيب. وقد وصف طرفة بن العبد ناقته وصفاً دقيقاً في معلقته، فلم يترك منها شيئاً إلا وصفه، ورسمه رسماً دقيقاً، ويستطيع من لم يرها أن يتخيلها كما هي دون مشقة^(١)، ويصحب الوصف تشبيهات قد تأخذ الشاعر عن الموصوف الحقيقي، فيصف المشبه به ثم يعود بعد أبيات إلى المشبه، فيتتبع معالمه، ويعدد المشبه به، فقد وصف امرؤ القيس فرسه وصفاً دقيقاً وشبهه وعدد المشبهة به فقال^(٢):

له أَيْطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَنْقَلٍ

(1) المعلقات العشر ص ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠.

(2) المعلقات العشر ص ٨٨.

وقد يدخل المديح في الرثاء، فالمادح يذكر فضائل الميت، ويبكيه بها فهو الشجاع المقدم الجسور.

وبعض الأدباء رأوا أن المدح والرثاء شيئا واحداً غير أن الأول يمدح به الحي، والثاني يمدح به الميت، ورأى بعضهم أن المدائح النبوية خاصة قيلت في حياة النبي ﷺ وبعد مماته؛ لأن النبي ﷺ قائم بيننا حي فينا، ولهذا توعده عمر رضي الله عنه رجلين من خارج المدينة رفعاً صوتهما في مسجد رسول الله ﷺ، وعفا عنهما؛ لأنهما ليسا من أهل المدينة، وأجمع العلماء على حرمة رفع الصوت في مسجد رسول الله ﷺ مطلقاً إلا بالآذان والقرآن والخطبة عملاً بقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» [الحجرات: ١].

وقد قيل أكثر المدائح بعد وفاة الرسول ﷺ، وما يقال من مدح بعد الوفاة يسمى رثاء بيد أنه في الرسول ﷺ يسمى مدحاً، فالرسول ﷺ موصول الحياة بما قاله الله تعالى على لسانه ﷺ وما أمره به من عمل وحكم وسلوك، فجعلوا خطابه ﷺ خطاب الأحياء.

وقيل إن المديح بعد الموت يسمى رثاء؛ لأن القائل يتفجع فيه على الميت، ويتحزن عليه، ولهذا جاء في السيرة وبعض مصادر الأدب نقلاً عن السيرة: قال حسان يرثي النبي ﷺ: "لأنه قال قصيدته بعد وفاة الرسول ﷺ يتحزن عليه ويتفجع، أو ليفرقوا بينما قاله من مدح فيه حياً وما قاله فيه ﷺ بعد وفاته، بيد أن ما قاله غير حسان رضي الله عنه ممن ولد بعد النبوة كان مدحاً، فقد قالوا شعرهم حباً فيه وتقرباً إلى الله ابتغاء الأجر، ورغبة في نشر محاسن الدين، وثناء على شمائل الرسول ﷺ^(١).

ويعد المديح والرثاء والحماسة، والهجاء أكثر موضوعات الشعر تناولاً في عصر النبوة، فقد أثرت الأحداث على الأدب وحددت مساره واتجاهاته، ووقع الغزل في بعض القصائد غير مقصود في مقدمات القصائد، لأن طبيعة هذه الفترة والأحداث التي وقعت بها لم تتح مجالاً واسعاً لأغراض الشعر الأخرى؛ لأنها فترة صراع تلاحقت فيها الأحداث، ووقعت فيها حروب وانشغل العرب بها بملاحقة أخبارها وانتظروا نتائجها ليعرفوا مصيرهم، فالأمر خطير وله أثره في الجزيرة كلها، وترقبت الصراع الدول التي تعيش على أطراف الجزيرة، وأدركت أنها ستكون جزءاً من الأحداث المقبلة.

(1) ارجع إلى المدائح النبوية في الشعر العربي الدكتور زكي مبارك، الهيئة العامة لقصور الثقافة ص ١٥١٤.

وقد قام الشعر بدور إعلامي خطير في الصراع، وكان وقع القصائد يقع صده في جميع قبائل العرب، ومنه عرفت العرب أخبار الصراع، وأدى الشعر دوره فيه، وأصبح للهجاء دور السيف في المعركة، فهو سلاح الحرب النفسية في الحروب، فقد أصاب من وقع بهم فرع وقلق وألم من قوع الهجاء فيهم، وكان عليهم كوقع النبل جملة واحدة، وقد شغل المديح والهجاء والفخر والرتاء والحماسة والتشبيب والوصف والعتاب مساحة عظيمة في عصر النبوة.

المديح

المديح ذكر محاسن إنسان (أو جماعة) وفضائله أو مناقبه ومآثره، وما له من مزايا ترفعه عن غيره يعرف بها.

وهو غرض قديم من أغراض الشعر، وكان الشاعر الجاهلي يمدح عصبية عشيرته وسيدها من قومه، أو يمدح طلبا للعتية والتكسب كأن يمدح سيذاً أو ملكاً، فيجأزيه على مدحه، أو يمدح حباً وولاء وإيماناً منه بالمدح كأن يمدح زعيماً أو شخصية اجتماعية مؤثرة لها دورها في الحياة العامة أو صاحب فضل أو صنيع.

وقد كان عامة المدح في الجاهلية يقال عصبية وحمية أو طلباً للعتاء بيد أن شعراء الإسلام كانوا يمدحون تطوعاً ابتغاء وجه الله تعالى وحباً لنبيه ﷺ وإيماناً منهم بدعوته ورسالته في الحياة وإعجاباً به وبخلقه العظيم، وولاء لدينهم وإخلاصاً للدعوة ومساهمة في نشرها، فقد كانوا يجاهدون بقولهم ويقفون من وراء النبي ﷺ يجاهدون عن دينهم وعن رسولهم ﷺ.

وكان على رأس المادحين حسان بن ثابت رضي الله عنه الذي وقف شعره بعد إسلامه للدفاع عن النبي ﷺ والإسلام. وكان المادح يمتدح مناقب القبيلة وساداتها، وحفظها الجوار، وإبائها، وعزتها وشجاعة أبنائها، وفتكهم، وكرمها وكثرة عددها. وكان الشعراء يمدحون مكرمات السادة نحو فك الأسير، وحفظ الجوار، والحكومة في الخصومات وكرم الأصل، وحسن الضيافة، والسخاء.

وقد تحول المدح قبيل الإسلام إلى وسيلة للتكسب وطلب العطاء، فقصد الشعراء الملوك والسادة يمدحونهم رغبة في هباتهم وجوائزهم، وظهر شعراء البلاط يمدحون البلاط الذي

يعيشون في كنفه، فقد اختص حسان ببلاط الغساسنة، فأغدقوا عليه عطاياهم، ومدح النابغة الذبياني المناذرة وعاش في كنفهم، وكان شاعر النعمان بن المنذر، وقد تحول إليه حسان ثم رحل عنه إلى الغساسنة، وكثر الشعراء في بلاط المناذرة لكثرة ما تحت أيديهم من قبائل العرب، فدعوا به إلى أنفسهم ومنهم طرفة بن العبد، والمثقب العبدى، المتلمس، والمسيب بن علس.. ومدح زهير بن أبي سلمى أشراف قومه وبعض سادة العرب.

وقد ترك حسان الغساسنة وعاش مع قومه الأوس بعد أن أسلموا ووهب شعره للإسلام ومدح النبي ﷺ وأصبح شاعر الإسلام الأول الذي قاد المعارك الشعرية ضد شعراء المشركين، وكان مقدماً في ذلك، ولم يكن يمدح طمعاً في العطاء بل حباً لله ولرسوله ﷺ.

وقد روت كتب السيرة بعض المدائح التي قيلت في النبي ﷺ، وبعضها قاله بعض الجاهليين في النبي ﷺ قبل الهجرة، وهي بخلاف المدائح التي قيلت بعد الهجرة، فالقصائد المكية التي قالها جاهليون كانت تمتدح فيه ﷺ الأوصاف الحسية، فتصف فيه الحسن والجمال وصباحة الوجه والطلاقة وشبّهة بالغيث والشمس والبدر والصبح، وأشهر من مدحه من الجاهليين، عمه أبو طالب، فقد نسب إليه شعر ذكر فيه فضل رسول الله فيهم ومكانه منهم، ليشد لهم رأيهم وليحدبوا معه على أمره فقال^(١):

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر	فعبد مناف سرها وصميمها ^(٢)
فإن حُصِّلَت أشراف عبد منافها	ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإن محمداً	هو المصطفى من سرها وكريمها
تدعت قريش غثها وسمينها	علينا فلم تظفر وطاشت حلومها ^(٣)

وذكرت السيرة قصيدة طويلة لأبي طالب يتعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها، وقد تودد فيها إلى أشراف قومه خشية أن يؤذيه هو وقومه دهماء العرب، وقد قال فيها:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه	ثمّال اليتامي عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم	فهم عنده في رحمة وفواصل

وأعلن أبو طالب في قصيدته أنه يؤيد محمداً ﷺ ويناصره في كل حال فهو ليس بكذاب

(1) السيرة جـ ١/ ٢٨٢.

(2) سرها وصميمها، خالصها وكريمها. يقال فلان سر قومه: من خيارهم، وأشرفهم.

(3) غثها وسمينها: أصل الغث اللحم الضعيف، فاستعاره لمن ليس نسبه هنالك. السمين: مقابل الغث واستعاره، وأراد أنها اجتمعت كلها، طاشت حلومها: ذهبت عقولها.

ومن أصحاب الأباطيل، ولم يأت بمذمة يعبر بها فتكون سبة له ولقومه.

وروى أنه ﷺ لما استسقى للناس بعد أن أقحطوا وشكوا ذلك إليه، فصعد رسول الله ﷺ المنبر، فاستسقى لهم، فما لبث أن جاء المطر فأتاه أهل الضواحي يشكون منه الغرق، فقال رسول الله ﷺ: "اللهم حوالينا ولا علينا"^(١) فاتجاب السحاب عن المدينة، فصار كالإكليل، فقال رسول الله ﷺ: "لو أدرك أبو طالب هذا ليوم لسرّه، فقال له بعض أصحابه كأنك يارسول الله أردت لقوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمّال اليتامى عصمة للأرامل
قال: أجل"^(٢). وروى سالم عن أبيه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال عندما استسقى النبي ﷺ للناس: "ربما ذكرتُ قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي ﷺ يستسقى، فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب"^(٣):

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمّال اليتامى عصمة للأرامل
وهو قول أبو طالب. وقد سمع عبد الله بن دينار ابن عمر رضي الله عنهما يتمثل بشعر أبي طالب^(٤)، وذلك لما فيه من مدح، وقد شاهد المطر نزل بدعائه ﷺ، فتحقّق مديح أبي طالب. وقال أبو طالب في النبي ﷺ:

وشقّ له من اسمه ليُجَلّه
والمحمّد الذي حمد مرة بعد مرة كالمدحّ، قال الأعشى:

إليك أبيت اللعن كان وجيفها
إلى الماجد القرم الجواد المحمّد
وذلك في مدح الملك، أي: الذي حمد مرة بعدة، أو الذي تكاملت فيه الخصال الحمودة^(٥). وكان الكفار يعدلون عن تسميته بهذا الاسم لما فيه من مدح وثناء، ويعرّضون به فيسمونه مذمّماً. روى أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؟ يشتمون مذمّماً، ويلعنون مذمّماً،

(1) ارجع إلى السيرة جـ ٢٩٧/١ وهذه القصيدة أكثر من ثمانين بيتاً.

(2) ارجع إلى السيرة جـ ٢٢٨/١

(3) صحيح البخاري كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا.

(4) نفسه. والثمّال: ملجأ، مطعم، مغيث، معين، كاف، عصمة الأرملة: يمنعهم مما يضرهم، والأرامل جمع أرملة، الفقيرة التي لا زوج لها.

(5) فتح الباري جـ ٦/٢٢١

وأنا محمد^(١). ولم يحمل النبي ﷺ شيئاً مما قالوه في مذمّم على نفسه، فهو محمد وليس مذمماً ﷺ. ومدح العباس بن عبد المطلب النبي ﷺ بأبيات أولها^(٢):

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق

كان المدح في الجاهلية يصف الجانب الحسي، فيمدح جمال الوجه الوضاعة والصبابة والحسن والبهاء، وأنه أبلج الوجه، حسن الخلق، ليس بجسده عيب، طويل القامة ويصف الشاعر شعره، ووجهه، وذراعيه، وشعره، وعنقه، ولحيته، وحاجبيه، وصوته ومنطقه، فالعرب كانت تعتد بالقوة الجسمانية وطول القامة، وعظم البنية، وحسن الهيئة وجمال المنظر، وكان لهذه الصفات هبة في النفس.

وكان النبي ﷺ معتدلاً في الخلق، فلم يكن بائن الطول ولا قصيراً، حسن الوجه، وسيماً، كث اللحية، أزج (دقيق شعر الحاجبين)، يعلوه البهاء، حلو المنطق، عظيم القدر والهيبة وقوراً، حسن المنطق، طلقاً، فصيحاً. قال حسان يمدح رسول الله ﷺ^(٣)، فوصف خلقه:

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرراً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

وجمال الشكل له أثره في الناس، فهم يقبلون على الرجل الحسن وضيء الوجه معتدل القامة، مكتمل الخلقة. وكان الصحابة رضوان الله عليهم يحبون النظر إليه، وكان يعجبهم ما يرونه فيه من صباحة الوجه وإشراقه وتهلله، وقد وصفت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ فقالت: كان والله كما قال فيه حسان:

متى يبذ في الداجي البهيم جبينه يلح مثل مصباح الدجى المتوقد^(٤)
فمن كان أو يكون كأحمد نظام لحق، أو نكال لمُلد^(٥)

وجبينه كالمصباح المنير في ليل حالك السواد. وأنعم الله تعالى على نبيه ﷺ من بعد اكتمال الخلق باكتمال الخلق، فهو ﷺ على خلق عظيم، ليكون مؤهلاً لحمل دعوة الحق، فلا يجد الناس مطعناً في خلقه أو خلقه، فبرأه الله تعالى من كل عيب، ليكون قدوة للناس

(1) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء الرسول ﷺ.

(2) معجم الشعراء ص ١٠٢

(3) الديوان ص ١٩ - ط/ دار الجيل - بيروت.

(4) الداجي: المظلم، البهيم: الأسود، دليل بهيم: لا ضوء فيه إلى الصباح، الدجى: سواد الليل وظلمته.

(5) النكال: العقاب، أو النازلة.

وسراجاً منيراً وهادياً يهتدون به في حياتهم:

قال حسان رضي الله عنه يمدح النبي ﷺ:

أغرَّ عليه للنبوة خاتمٌ
وضمَّ إليه اسم النبي إلى اسمه
وشقَّ له من اسمه ليجلَّله
نبيُّ أتانا بعد يأسٍ وفترة
فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً
وأُذِّننا ناراً وبشرَ جنَّةً
وأنتَ إله الخلق ربِّي وخالقِي
تعاليت ربَّ الناس عن قولٍ من دعا
لك الخلق والنعماء، والأمر كله

من الله مشهودٌ يلوحُ ويشهدُ^(١)
إذا قال في الخمس المؤذنُ أشهدُ^(٢)
فدو العرش محمودٌ، وهذا محمدُ^(٣)
من الرسل، والأوثان في الأرض تعبدُ^(٤)
يلوح كما لاح الصَّقيل المَهْدُ^(٥)
وعلمنا الإسلام فالله نعمٌ
بذلك ما عمرت في الناس أشهدُ
سواك إلهاً، أنت أعلى وأمجَدُ
فإياك نستهدي ، وإياك نعبدُ^(٦)

وقد تأثر حسان رضي الله عنه في مدحه بالقرآن الكريم ، مثل : "تبي أتانا بعد يأس وفترة من الرسل" وهو من مقتبس من قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩]. وفأمسى سراجاً منيراً وهادياً" وقد اقتبسه من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاحِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٦].

وقوله: "وأُذِّننا ناراً، وبشرَ جنَّةً"، و"فالله نعمد"، وقوله: "إياك نستهدي وإياك نعبد". وقد استحدثت معاني قرآنية جديدة ووقعت في شعره نحو، النبوة، النبي، خاتم النبوة، المؤذن، الشهادة، ذي العرش، محمود، محمد، الرسل، الأوثان، العبادة، الإسلام، الهدى، الهادي، البشير، والسراج المنير، الجنة، النار، الحمد لله.

ومن تشبيهاته التقليدية التي شبه بها الجاهليون قوله: "يلوح كما لاح الصقيل والمهند" فشبه نور النبي ﷺ بصفحة السيف اللامعة أو أضحى سراجاً منيراً وهادياً كنور السيف الصقيل، والعرب تشبه حسن الوجه بالشمس والبدر والصبح، وحد السيف في اللمعان والبهاء.

وقال حسن يمدح النبي ﷺ:

- (1) أغر: كريم الأفعال واضحها، خاتم النبوة: قيل إنه شامة خضراء محتفزة في اللحم، وقيل إنه رسول الله ﷺ.
- (2) إشارة إلى أن محمد خاتم الأنبياء - يقول المؤذن في كل صلاة من الصلوات الخمس - أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.
- (3) ذو العرش محمود : بيان .
- (4) الفترة: ما بين رسولين.
- (5) فأمسى سراجاً مستنيراً: أي السراج الذي يستضاء به.
- (6) إياك نستهدي: أي نطلب الهداية.

والله ربّي لا نفارق ماجداً
مُتكرِّماً يدعو إلى رب العُلى
مثل الهلال مباركاً، ذا رحمةٍ
إن تتركوه فإن ربي قادرٌ
والله ربي لا نفارق أمره
لا نبتغي ربّاً سواه ناصراً

عَفَّ الخليفة ماجدَ الأجدادِ
بذلَ النصيحة رافع الأعماد^(١)
سمح الخليفة، طيب الأعواد^(٢)
أمسى يعود بفضلِه العوَاد^(٣)
ما كان عيشٌ يرتجى لمعاد
حتى نوافي ضحوة الميعاد

لقد تناولت المدائح النبوية الوصف الخُلقي في النبي ﷺ فمدحت عفته وكرم خلقه، وعفوه، ورحمته، وسماحته.

ووصفت خلقه، فهو وضيء الوجه مستبشر في وجهه نور يستضاء به، فوجهه مثل حد السيف في اللعان لشدة ما ينبعث منه من ضوء أو ما يعكسه من ضوء الشمس وهو مثل الهلال مبارك، ومثل الغيث في العطاء والكرم، وهو من أصل طيب عريق، ماجد الأجداد.

ويزعم بعض النقاد أن حسناً رضي الله عنه مدح النبي ﷺ بما بمدح به الجاهليين، وهذا الرأي فيه نظر؛ لأن مدائح الشعراء الذين عاشوا في الإسلام وطالت صحبتهم النبي ﷺ وغلب على مدائحهم الطابع الروحي وتجافوا عن الوصف المادي، وما يصفوا به وجه النبي ﷺ يراد منه ما كساه الله تعالى به من بهاء ووضاء، وأن نور الإيمان يشرق من وجهه، وكانت مدائح الجاهلية تذكر القتل والتخريب والتكيد وجوائز السادة للشعراء، وليس هذا إلا طمعاً في مالهم وهباتهم، ولكن المدائح النبوية تذكر نبوة النبي ﷺ وتعاليمه وهديه، وأنه قدوة وسراج منير للعالمين، ولا يعاب الشعر بما جاء فيه من تشبيهات الجاهليين، وألفاظهم، فالإسلام لم يهدم اللغة بل هدم مثالب الجاهلية ومعتقداتها وأعرافها الفاسدة، وقد وظف القرآن الكريم اللغة نفسها في خطاب الجاهليين وعارضهم بأسلوبهم وتشبيهاتهم وغلبهم فيها وأبطل ما هم عليه من جاهلية.

(1) بذل النصيحة: كريم النصيحة، رافع الأعماد: فلان رفيع العماد: أي شريف.

(2) طيب الأعواد: طيب الأصل والحسب والنسب.

(3) قادر: أي قادر على حفظه.

وهناك مدائح أخرى لشعراء حديثي عهد بالإسلام، ليس لديهم وعي كاف به وحظهم منه قليل قالوا قصائدهم وهم يقبلون على الدخول في الإسلام، وما زال في خلدته تراث الجاهلية الشعري، ولم يؤثر الإسلام فيه تأثيراً بعيداً، وهؤلاء ليسوا كحسان أو كعب أو ابن رواحة، فقد كانت لهم صحبة وجالسوا النبي ﷺ وتربوا على يديه، وعاشوا في كلاءته الخلقية، ونهلوا من فيض علمه، وصنعهم على عينه.

وليس غريباً أن نجد في قصائدهم شكل قصيدة الجاهلية، وبعض مضامينها ومعانيها، وليس غريباً أن نجد شخصية الرسول ﷺ في شعرهم شخصية الزعيم المنتصر الذي أذل الرقاب وخضع له العرب، فهو السيد العظيم. بيد أنهم علموا ما اختصه الله تعالى به من النبوة والكتاب الذي أعجزهم وأغراهم بحفظه ومحاكاته ومشاكلته لفظه وأسلوبه، ومن هؤلاء النابغة الجعدي. وقد مدح النبي ﷺ فقال^(١):

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرنا

فقال النبي ﷺ: 'فأين المظهر يا أبا ليلى؟ فقال: الجنة. فقال ﷺ: قل إن شاء الله. فقال: إن شاء الله. ثم قال:

ولا خيرَ في حلم إذا لم يكن بوارد تحمي صفوه أن يقدرنا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلِيم إذا ما أورد الأمر أصدرنا

فقال النبي ﷺ: "أجدت لا يفضض الله فاك". ف قيل مرت عليه مائة سنة أو أكثر وما انقض من فيه سنّ، وقيل عاش مائة وعشرين سنة لم تسقط له سن، وكان أحسن الناس ثغراً. وقد انتهى من المقدمة ثم مدح النبي ﷺ قائلاً^(٢):

أتيتُ رسولَ الله إذ جاء بالهدى ويتلوا كتاباً كالمجرة نيراً

وجاهدت حتى ما أحس ومن معي سهيلاً إذ ما لاح ثمت غوراً

أقيم على التقوى وأرضى بفعله وكنت من النار المخوفة أوجراً

وقد مدح النبي ﷺ العباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة من بني سليم بن قيس عيلان، ويكنى أبا العباس، وهو من الشعراء المجودين، وقد شارك شعره في الأحداث التي وقعت بعد فتح مكة. قدم العباس على رسول الله ﷺ المدينة عندما هم بالمسير إلى مكة عام الفتح، فواعد الرسول ﷺ أن يلقاه بمن معه من قومه بقديد، وقد طلب منه النبي ﷺ أن

(1) ارجع إلى الأغاني جـ ١٢٩/٤

(2) الأغاني جـ ١٣٠/٤

يلقاه هو وقومه بقديد، فلما نزل رسول الله ﷺ قديداً لقيه بها العباس في ألف من بني سليم^(١).

وقال العباس في ذلك^(٢):

بلغ عباد الله أن محمداً	رسول الله راشداً أين يمما
دعا قومه واستصر الله ربه	فأصبح قد وافى الإله وأنما
عشية واعدنا قديداً محمداً	يؤم بنا أمراً من الله محكما
حلفت يميناً برة لمحمد	فأوفيته ألفاً من الخيل معلما
سرايا يراها الله وهو أميرها	يؤم بها في الدين من كان أظلما
على الخيل مشدوداً عليها دروعنا	وخيلاً كدفاع اللواتي عرمرما
أطعناك حتى أسلم الناس كلهم	وحتى صبحنا الخيل أهل يلملما

وقال في أخرى يفخر فيها برسول الله ﷺ^(٣):

بذي لجب رسول الله فيه
كعارضة تعرض للصواب
يصف النبي ﷺ في جيشه الضخم العظيم، الذي ارتفعت أصوات أبطاله واختلطوا من
كثرتة ، كصفحة الخد التي تظهر في الحق ، فمحمد ﷺ يتصدى للمشركين، وهو ذو جلد
ورأي جيد، وصرامة، وقدرة.

ومدح الأعشى^(٤) النبي ﷺ، فقد سمع بظهور النبي ﷺ وسراً بما علمه عن الدين الذي
يدعو إليه، فعزم أن يأتي النبي ﷺ ويسلم على يديه، فمر برجال من مشركي قريش، فردوه
عن ذلك، وقيل له إنه كان قريباً من مكة فلقي رجالاً منهم، وقيل إنه كان نازلاً على أبي
سفيان بن حرب، فأخبره أنه يريد رسول الله ﷺ ليسلم، فقال له: يا أبا بصير، إنه يحرم
الزنا، فقال الأعشى، والله إن ذلك لأمر مالي فيه أرب، فقال يا أبا بصير، فإنه يحرم الخمر،
فقال: أما هذه فوالله إن في النفس منها لعلالات، ولكني منصرف فأتروني منها عامي هذا،
ثم أتية فأسلم، فانصرف فمات في عامه ذلك قبل أن يلقي النبي ﷺ ويسلم.

(1) الأغاني جـ ١٣/٦٢، ٦٣ وقد مكان في الطريق بين مكة والمدينة.

(2) الأغاني جـ ١٣/٦٣، يلملم: مكان.

(3) الأغاني جـ ١٣/٦٦، للجب: ارتفاع أصوات الأبطال واختلاطها: أو سهيل الخيل، وذو لجب: الجيش العظيم.

(4) الأعشى: ميمون بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن بكر بن وائل.

وقد اختلف العلماء في زمن هذه الرواية فهي تروى بمكة، وقد جاء في القصيدة أنه يريد يثرب، وقد ذكر ابن هشام أنها وقعت بمكة، واعترض بعض العلماء عليه، وقالوا إن الخمر حُرِّمت في المدينة بعد بدر في سورة "المائدة"، وأرى أن هذا حُمل على ما كان النبي ﷺ يفعله، فقد كان عفاً ولا يشرب الخمر، وقد يكون ذلك من عند المتكلم؛ ليرده عن النبي ﷺ فذكر للأعشى ما يحبه فحرمه.

وقد مدح النبي ﷺ بقصيدة بلغت أربعة وعشرين بيتاً، وقد وقع تقديم وتأخير في الأبيات في بعض الروايات وما ذكرناه برواية ابن إسحاق^(١).

وقد يكون تحريم الخمر والزنا من قول الرجل الذي لقيه ليصرف الأعشى عنه، فذكر له بعضاً مما يحبه من أمور الجاهلية، وجاء في رواية غير رواية ابن هشام أن الأعشى لقي عامر بن الطفيل في بلاد قيس، وهو مقبل إلى رسول الله ﷺ فذكر له عامر أنه يحرم الخمر فرجع، وهذا أولى بالصواب؛ لأنه ذكر صراحة أنه يريد يثرب وتحريم الخمر كان بعد بدر في سورة "المائدة" وهي من آخر ما نزل^(٢).

وقد شك بعض المحدثين في صح نسبة هذه القصيدة إليه لما تضمنته من معانٍ إسلامية، وشكوا كذلك في قصائد أخرى تحدث فيها عن النصرانية، وأقاموا شكهم على أن نفسية الأعشى خلاف ما جاء في هذه القصائد من الإيمان والصلاح، وقد جاء في هذه القصيدة بعض آداب الإسلام وجاء في بعض قصائده الأخرى بعض مبادئ المسيحية، وهذا يخالف نهجه الخلقي في الحياة، وأرى أن هذا ليس كافياً للطعن في هذه القصائد؛ لأن المسيحية كانت بالعراق والشام واليمن والحبشة، وقد كان ينزل بهذه البلاد ويتصل بمن فيها من النصارى، وما جاء في قصيدته التي مدح فيها النبي ﷺ كان لا يخفى على أحد ممن سمع بدعوة النبي ﷺ، فقد أصبح حديث العرب، وهو ما جعله يقبل عليه، ونحن بحاجة إلى أدلة أخرى للطعن فيها^(٣). وقد قال قصيدته التي مدح فيها النبي ﷺ قبل أن يلقاه وقد سمع به، وعلم من دينه ما علم وقد بدأها بمقدمة شكاً فيها عينه من الرمد، وقد بات ليله يتألم مثل الملدوغ الذي مُنِعَ النوم، ليس ذلك من عشق النساء، ولا من نسيان الحبيب، فقد

(١) السيرة جـ ٤١١/١، ٤١٢.

(٢) ارجع إلى: الروض الأنف جـ ١٢٦/٢.

(٣) ارجع إلى الشعر الجاهلي ص ٣٤٢ وقد شك الدكتور شوقي ضيف في هذه القصيدة وغيرها من قصائده التي تناول فيها شيئاً من النصرانية، ولكني أرى أن خلق العبث، والمجون لا تمنعان الشاعر أن يقول شعراً يذكر فيه الدين، وقد فعل ذلك غير شاعر في الإسلام.

ترك ذلك، ولكن الذي فعل به ذلك صنّع الدهر به، وما فقدته من شبابه وماله ورفاقه فقلله هذا الدهر (يشكوه إلى الله تعالى)، يقول:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمداً
وبت كما بات السليم مُسهداً^(١)
وما ذاك من عشق النساء وإنما
تناسيت قبل اليوم خلّة مهّداً^(٢)
ولكن أرى الدهر الذي هو خائنٌ
إذا أصلحت كفاى عاد فأفسداً^(٣)
كهُولاً وشباناً فقدت وثروة
قلله هذا الدهر كيف تردداً

ثم ذكر بعضاً من شبابه، وحبّه المال الذي طلبه منذ أن كان صبيّاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً، وكان لا يكف عن السفر والتنقل في الجزيرة بين "النّجير" (موضع في حضرموت) وصرّخد (موضع الجزيرة) وكان يجوب هذه البلاد الواسعة بابل بيض سريعة، يباري بعضها بعضاً في السرعة.
قال^(٤):

ومازلت أبغي المال مذ أنا يافعٌ
وليداً وكهلاً حين شبت وأمرداً
وأبتذل العيس المراقيل تغتلي
مسافة ما بين النّجير فصّرخدأً
وانتهى من هذه المقدمة التي جعلها مدخلاً لموضوع قصيدته، ودخل في الموضوع ممهّداً له بسؤال السائل عن مقصده وجهته في السفر، فأخبره أنه يريد يثرب، وجعل الحديث عن ناقته.

وقد ذكر محمد بن إسحاق أنه توجه إلى مكة ليلقى رسول الله ﷺ بها^(٥)، وجاء في القصيدة أنه أراد يثرب، فأوقع ذلك في خلاف، وأرى أنه مر بمكة أو كان بمكة وأراد

(1) الأرمد: الذي يشتكي عينيه من الرمء، السليم: الملدوغ، وقيل له سليم تيمناً بشفائه مثل قولك للمريض: صحيح أو بخير أو بعافية. وقولك تخبر بوفاة شخص: تعيش أنت! ويروى: وعادك ما عاد السليم المُسهدا

(2) الخلّة: الصداقة، ويرى فيه "صحبة" وهي بمعناه، ومهدد اسم امرأة كان يخالها.
(3) يروى: كفاه.

(4) اليافع: الذي قارب زمن الاحتلام. العيس: اسم جنس، وهي الإبل البيض يخالطها حمرة. المراقيل: من الإرقال، وهو السرعة في السير. تغتلي: يزيد بعضها على بعض في السير. النجير: مكان بحضرموت من اليمن. صرخد: مكان في الجزيرة.

(5) السيرة النبوية جـ ١٣/٤ والروض الأنف جـ ١٣٧/٢

المدينة، فلما علم المشركون منه قصده صرفوه عنه، وترك الحديث عن مقصده وتكلم عن ناقته، فوصف ناقته وصفاً دقيقاً، فهي ناقة سريعة تجد في السير، فلا تنبعث في المشي ولا تعتقل فيه فتكسل، وإذا مشت في الهاجر (وقت القائلة) تلوت وخلطت في مشيها غير مستقيمة، وهي ترجع عن سيرها مثل حرباء الظهيرة، يريد أنه لا تهاب الهاجرة، ولا تتأثر بها وهي نشيطة قوية، وقد أقسم على نفسه ألا يشفق عليها من تعب حتى يلقي بها محمداً. وترك الناقة وتحول إلى مديح النبي ﷺ الكريم المعطاء صاحب الفضل فهو نبي يدعو إلى الحق والفضيلة وذكره قد ملأ البلاد فبلغ الأغوار والمرتفعات، ويعطي بسخاء ولا يمنع عطاءه أبداً.

وذكر وصايا النبي ﷺ، وهي: التزود بالتقوى والعمل الصالح والعمل للآخرة، فإنك إن عرفته يقيناً ندمت على ألا تكون مثله، فتعمل لآخرتك، وتعلم أن الموت يرصدك ومصيبك.

ألا أيُّ هذا السائلني أين يممت
فإن تسألني عني فيأرب سائل
أجدت برجليها النجاء وراجعت
وفيها إذا ما هجرت عجرفية
وآليت لا أوي لها من كلاله
متى ما تآخى عند باب ابن هاشم
نبي يرى ما لا ترون وذكره
له صدقات ما تغب ونائل

فإن لها في أهل يثرب موعداً^(١)
حفي عن الأعشى به حيث أصعداً^(٢)
يذاها خفافاً ليئنا غير أحرذاً^(٣)
إذا خلت حرباء الظهيرة أصيداً^(٤)
ولا من حفي حتى تلاقى محمداً^(٥)
تراحي وتلقي من فواضله ندى^(٦)
أغار لعمرى في البلاد وأنجداً^(٧)
وليس عطاء اليوم مانعه غداً^(٨)

- (١) يممت: قصدت، يثرب: المدينة المنورة، وكانت تسمى يثرب قبل الهجرة، وقد جاء في رواية ابن إسحاق أنه قدم مكة ليلقي النبي ﷺ فيها، وأرى أنه قد يكون قد مر برجال من مشركي مكة، فأتنوه عن الذهاب إلى النبي ﷺ بالمدينة، وجاء عن غيره أنه لقي عامر بن الطفيل قبيل وفاة النبي ﷺ، فقال له ذلك.
- (٢) حفي: مبالغ في السؤال. أصعد: ذهب.
- (٣) الخفاف: تلوي يديها في السير من النشاط أو تميل. أجرد: مرض يصيب اليد.
- (٤) هجرت: مشت في الهاجرة، وهي وقت القائلة. العجرفية: تخطيط في غير استقامة.
- (٥) لا أوي: لا أشفق عليها ولا أرحمها وروي: لا أرثي وهي بمعناها. الكلاله: التعب.
- (٦) فواضل: جمع فاضلة. ندى: جود، ويروى تراحي: تريحني من الراحة، يروى في موضع ندى: يدا، وهي النعمة.
- (٧) أغار: بلغ الغور، وهو انخفاض من الغور. أنجد: بلغ النجد وهو ما ارتفع من الأرض.

أَجِدَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الْإِلَهِ حَيْثُ أَوْصَى وَأَشْهَدَا
 إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بَزَادٍ مِنَ التَّقَى وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
 نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَمِثْلِهِ فَتَرَصَّدَ لِلْمَوْتِ الَّذِي كَانَ أَرْصَدَا^(٢)

وقد علم الأعشى بعض ما حرمه الإسلام على الناس، فقد حرم أكل الميتة، وقد كان أكل الجاهلية يخدشونها بسهم، ويدعون أنها أحلت للطعام ويأكلونها، وحرم الذبح للنصب أو الذبح للأصنام وحرم ما ذبح لغير الله، فقد كان أهل الجاهلية يذبحون لأصنامهم ويطلون رءوس الأصنام بدم الذبيحة، ونهى عن عبادة الأوثان من دون الله وحرم الزنا وأمر بصلة الأرحام وفك الأسير، وأمر بالعبادة لله ووحده وأمر بعدم السخرية من الفقير، وعدم عبادة المال. فاحذر أكل الميتات وما خدش منها بسهم، ولا ما ذبح للأصنام ولا تعبد الأصنام بل اعبد الله تعالى، ولا تزني بحرة إلا أن تتزوجها أو تمتنع عن ذلك، وصل رحمك، وفك الأسير، وسبح الله تعالى في العشي والضحى، ولا تحمد الشيطان بل أحمد الله تعالى، ولا تسخر من ذي فاقة أضرت به، لا تحسبن أن المال يخلد صاحبه. وهذه المحرمات التي ذكرها بعض ما حرمه الله تعالى على المسلمين في بدء الدعوة، ولم يأت فيها ذكر التكاليف والصوم، والزكاة والجهاد وما ذكره مجمل ما ورد في السور المكية:

فِيَايَكَ وَالْمَيْتَاتِ لَا تَقْرِبَنَّهَا وَلَا تَأْخُذْ سَهْمًا حَدِيدًا لَتَقْصِدَا^(٣)
 وَلَا النَّصْبَ الْمَنْصُوبَ لَا تَسْكُنَهُ وَلَا تَعْبُدِ الْأَوْثَانَ وَاللَّهَ فَاعْبُدَا^(٤)
 وَلَا تَقْرِبَنَّ حُرَّةً كَانَ سِرُّهَا عَلَيْكَ حَرَامًا فَانْكَحْنِ أَوْ تَأْبُدَا^(٥)

(1) تغيب: من أغب. النائل: العطاء

(2) ترصد: تعد

(3) تفصد: كان أهل الجاهلية يفصدون الميتة بسهم ثم يأكلها أي: يخدشها به.

(4) النَّصْبُ: حجارة كانوا يذبحون لها مفردها نَصْب، النسك: الدم الذي كانوا يقدمونه لأصنامهم ويطلون رءوسها به، يرد ما ذبح للأصنام، الوثن: الصنم، ويروى ولا تعبد الشيطان.

(5) لا تقربن حرة: لا تزني بها، ويروى لا تقربن جارة. سِرٌّ: نكاح، يريد جماعها. التأبد: التعزب وترك النساء، ولهذا قيل للوحوش أوابد، وقيل معناه: ترهب، ويقال للراهب متأبداً.

وذا الرحم القُربى فلا تقطعنه
لعاقبة ولا الأسير المقيد^(١)

وسبّح على حين العشيّات والضحى
ولا تحمد الشيطان واللّه فاحمدا^(٢)

ولا تسخرن من بئس ذي ضرارة
ولا تحسبنّ المال للمرء مُخلدا^(٣)

لقد ترتبت الأبيات ترتيباً تقليدياً صار فيه الشاعر على منهج غيره من الشعراء السابقين والمعاصرين.

فبدأ القصيدة بمقدمة ذكر فيها الحبيب، ولكنه لم يستطرد في أمره كثيراً، ولكنه دخل في الموضوع، فعبر عن مرحلة القلق النفسي التي كان يعيشها، وقد ملّ الحياة وضاق بما عاتاه وندم على فعله وتحسر على عمره الضائع، وكان هذا القلق دافعاً له في البحث عن الحقيقة ليقطع قلقه وحيرته، وقد استعان على رحلته الشاقة ليؤمن بناقاة اقتضب في وصفها فلم يسترسل في الحديث عنها ؛ مثل غيره من الشعراء الذين أفردوا قصائد لها ، وبعضهم يجعل لها النصيب الأكبر من القصيدة.

وقصيدة الأعشى أربعة وعشرون بيتاً في ديوانه، ونقصت بيتاً في رواية ابن إسحاق، فوصف ناقته في بيتين فقط، وهي تسير سيراً معتدلاً حثيثاً، ثم وصف سيرها في وقت القائلة، وهي تتصدى الظروف القاسية فلا تنهياها عن السير.

وقد كانت الناقاة وسيلة الانتقال ، ولها أهميتها في الصحراء ، وأثرها في الحياة ، فقد كانت ثروة أهل البادية تقاس بما لديهم من النوق، لأهميتها في الحياة البدوية.

وانطلق بعد وصف الناقاة الموجز في الموضوع الرئيس، وهو مدح النبي ﷺ فوصف خلقه، ثم دعوته وشهرته في العرب، وكرمه وبعض وصاياه ﷺ، واستغرقت هذه الموضوعات ستة أبيات. ثم أنهى القصيدة بالحديث عن نواهي الإسلام وما حرمه على الناس، وبلغ ذلك ستة أبيات أيضاً، وهو عدد أبيات المقدمة أيضاً، والمقدمة تمثل مرحلة انفجار الشاعر وما يجيش به صدره من الشعر وعبر عن ذلك في مقدمة تمثل مرحلة الحيرة والغضب والثورة والمعاناة، وتكاد تكون المعاناة في المقدمات قاسماً مشتركاً بين

(1) روى صدر البيت: ولا السائل المحروم لا تتركه.

(2) العشي قبل المغرب، والضحى: بعد طلوع الشمس حتى الظهر.

(3) البئس: الفقير. نؤزرارة : مضطر ، والضرورة ، والضرارة بمعنى واحد، وروي ذي ضراعة، الضراعة: الذل.

الشعراء كلهم يعانون ويتألمون وتتملكهم الحيرة ولا يهدعون إلا عند آخر بيت، فقد تخلص الشاعر من كثير من أحماله التي أنقلته فأمضى إلى النهاية مستريحاً آمناً.

ولكن خفافيش الليل عباد الظلام أضلوه، فقد نفسوا عليه (حسدوه) أن أبصر النور في الدنيا، فسوف رؤية النور، فباغته الموت ليقضي آخرته في حالك الظلم!

وقد أثارت هذه القصيدة جدلاً بين المحدثين، فبعضهم يشك فيها ومن أبرزهم الدكتور شوقي ضيف، ويقيم شكه على ما جاء فيها من معاني بعض آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧] جاء في قوله: "إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى"، وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُجِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣] جاء في قوله: "فإياك والميتات.." وقوله: "ذا النصب.."، وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١] جاء في قوله: "وصل على حين العشيات والضحى"، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعارج: ٢٤] صاغها في قوله: "ولا السائل المحروم لا تتركه.."، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١] قال فيها: "ولا تسخرن من بانس..."، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣] صاغها في قوله: "ولا تقربن جارة.." وهذا النوع من المعاني في الشعر يعرف بالاعتباس، والتضمين.

ويرى الدكتور زكي مبارك أن قصيدة الأعشى ليست في درجة قصائد المديح النبوية؛ لأنه - على ما يرى - لم يقل هذا الشعر، وهو صادق النية في مدح الرسول ﷺ، وإنما كانت محاولة أراد بها التقرب من نبي الإسلام، وآية ذلك أنه انصرف حين صرفته قريش، ولو كان صادقاً ما تحول، فقد حدثوا (يريد رواية خبر الأعشى) أن قريشاً رصدوه على طريقه حين بلغهم خبره وسألوه أين يريد؟ فأخبرهم أنه يريد محمداً ليسلم، فأفهموه أنه ينهاه عن الزنا والقمار والربا والخمر، فقال: لقد تركني الزنا وما تركته، وأبدى زهادته في القمار رجاء أن يصيب من النبي ﷺ عوضاً منه، وقال عن الربا: ما دنت ولا أدنت. وأبدى جزعه عند ذكر الخمر وقال: أوه! أرجع إلى صباية قد بقيت لي في المهراس فأشربها.

فقال له أبو سفيان: هل لك في خير مما هممت به؟ قال: وما هو؟ قال: نحن الآن في هدنة فتأخذ مائة من الإبل، وترجع إلى بلدك سنتك هذه وتنتظر ما يصير إليه أمرنا، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفاً، وإن ظهر علينا أتيته، فقال: ما أكره ذلك. فلما كان بقاع "منفوخة" (قرية باليمامة) رمى به بعيره.

وأرى أن ما وقع للأعشى وقع لغيره من بعض المشركين، فقد هم الوليد بن المغيرة أن يسلم بعد أن سمع من النبي ﷺ ولكن بطانته من المشركين صدوه، ومات مشركاً. وقد بذل مشركو قريش عطاء كثيراً ليصدوا الأعشى عن الإسلام ومازالوا به حتى رجع عن قصده، والرجل لم يسلم ولم يعرف مفهوم الإسلام ولم يتذوق الإيمان فنقول إنه غير صادق في مدحه، ولكنه مثل غيره سمع عن نبي ظهر من قريش يدعو لدين جديد ويحرم عليهم بعض أمور الجاهلية وما جاء في قصيدته عن الدين ليس إلا معارف عامة يعلمها عامة من سمع بالإسلام، وما شاب عليه في الجاهلية أقوى في نفسه - وهو شيخ - مما سيعرفه في الإسلام ويقوم عليه ويرعى حرمة. والروايات المتعددة تفيد أن الأعشى قصد المدينة بعد صلح الحديبية، فقد أوقع صلح الحديبية هدنة بين محمد ﷺ وبين مشركي مكة. وما جاء في القصيدة من ذكر تحريم الخمر كان في هذه الفترة فقد حرمت الخمر في سورة المائدة، وهي مدنية (وهي من آخر ما نزل من القرآن الكريم). وقد جاء ذكر "يثرب" في القصيدة، وكانت تعرف بهذا الاسم بين مشركي العرب، وهو ما ينفي عنها الوضع في الإسلام في فترة لاحقة، فقد ذهب اسم يثرب، وعرفت بين المسلمين بمدينة الرسول ﷺ.

واختلاف المعاصرين في شأنها، وعدم ورود نص قديم يشكك فيها، يجعلني أرى رأي من شك فيها حتى يتبين دليل الشك يقيناً، ولكن الشك قام على الظن وهو لا يغني شيئاً، والمصادر القديمة اختلفت فقط في الرواية. وقد قيل إنها لم تكن عن عاطفة دينية قوية وإنما قيلت مثل غيرها من قصائد المديح الجاهلية رغبة في التكسب، ولك أن تشك في صدقه، وأن تشك في هويته الدينية، فالرجل قالها وهو مشرك لم يلق الرسول ﷺ بعد وقد مدحه بما سمعه عنه وعن دينه رغبة في رضاه والتقرب منه بيد أنه لو رآه وآمن لكان شأنه غير ذلك، وهذا الأمر مسلم به، وليس من الإصاف أن نقضي في عواطف الناس ونواياهم، وهذا أمر لا يتكشف لنا. ولم يتورع بعض المحدثين عن أن يقولوا في شعر حسان مثل ما قالوه في الأعشى، فقد زعموا أن حسان قد مدح النبي ﷺ بما مدح به الجاهليين، لأن شكل القصيدة هو الشكل الذي قامت عليه في الجاهلية ومدح النبي ﷺ بما مدح به ملوك الجاهلية، وهذا افتراء واجترأ وتخرص على شاعر رائد في الإسلام،

وتزعم الشعراء في الدفاع عن الإسلام، فلم يكن سهلاً أن يهدم حسان شكل القصيدة الجاهلية، وهذا الشكل يمثل أصول هذا الفن، ولا شك أن حسان تأثر بالقرآن الكريم وتمثل بمعانيه، وكان أكثر وعياً من غيره بما يريده النبي ﷺ، فقد خلص شعره من أمور الجاهلية وهذبه وجعله في جوهر موضوع القصيدة، وكان يحترس لنفسه من سقطات القول وهزله، وأعجب الرسول ﷺ منه ذلك ويحثه عليه، ودعا له وأخبره أن جبريل عليه السلام يؤيده عليهم، وقد أحدث حسان ﷺ تغييراً في معاني الشعر، فقد تأثر بأسلوب القرآن الكريم ومعانيه وألفاظه، فتجاوز الوصف الحسي إلى الوصف المعنوي، فمدح محاسن الأخلاق والفضائل والآداب النبوية.

وكان يبدأ قصيدته أحياناً بمقدمة غزلية أو بكائية ثم يتركها ساخراً، ويستخف شأنها ولا يقف أمامها طويلاً فيتركها إلى موضوع القصيدة، فقد أوجز في المقدمة وتورع عما ينافي الإسلام في المقدمة الغزلية والخمرية، وسوف نذكره لك في موضعه إن شاء الله. ناهيك عما قام به حسان رضي الله عنه من تطوير في الألفاظ ودلالاتها واقتباساته من القرآن الكريم وتأثره به، فقد وظف بعض أجزاء الآيات ومعانيها في شعره، وهذا لم يقع في شعر الأعشى إلا في قصيدته التي بين يديك، فلم تكن له صحبة في الإسلام، ولم يعرف عنه إلا ما سمعه^(١).

وشكك بعض الأدباء في أشعار الأعشى التي ذكر فيها شيئاً عن النصرانية، فزعموا أنها وضعت عليه، وبعضهم نسب هذه القصائد إلى راويته يونس بن متى النصراني، فقالوا نحلها للأعشى، وكتب الأديب تذكر أن الأعشى كان نصرانياً، وذكر عنه راويته يونس بن متى أنه كان ينزل كل سنة نجران، ويسمع من أساقفتها، فكل شيء في شعره في النصرانية، أخذه منهم^(٢).

وقد ردوا عليه كثيراً من شعره الديني، فزعموا فيه الوضع والانتحال، وحجتهم أن خلق الأعشى كانت علي غير ما جاء في هذا الشعر، وليس هذا بدليل فالقرآن الكريم ذكر أنهم يقولون ما لا يفعلون، وأنهم في كل وادٍ يهيمون، وأخبار الشعراء تؤكد ذلك، فكثير منهم صحت عنه أشعار في الخلاعة والمجون والفحش، وصحت عنهم أخرى في الصلاح

(1) شكك بعض الباحثين في قصائده النصرانية، لأن راويته في الإسلام كان نصرانياً فزعموا أنه زاد ذلك في ديوانه، وهو يونس بن متى .

(2) الأغاني جـ ١٠/ ١٣٦

والتقوى والإيمان. فهم يقولون ما لا يفعلون تكسبا وإغراء وإدعاء، وقد يكون عجزاً، فيرضى نفسه بخياله ويترك له العنان فيفعل في الخيال ما أعجزه عنه الواقع، وفي ذلك أخبار كثيرة تؤكد كذب الشعراء ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٦].

ولقد تعرض النبي ﷺ لطعنات المشركين في الخارج والمنافقين واليهود في الداخل، وقد سلمه الله تعالى منها، ومن ذلك ما تحدث به بعض المنافقين من حديث الإفك، فقد اتهموا السيدة عائشة رضي الله عنها في صفوان بن المعطل رضي الله عنه وكان المقصود من ذلك النبي ﷺ. وقد برأها الله تعالى في سورة "النور". وكان حسان رضي الله عنه من الذين خاضوا في حديث الإفك الذي تحدث به بعض المنافقين في حق عائشة رضي الله عنها وقد تبرأ حسان من ذلك. وقد كان صفوان رضي الله عنه صالحاً عفواً، وقتل بعد ذلك شهيداً، فقال حسان يعتذر مما قاله فيها:

وَتُصْبِحُ غَرْثِي مِنْ لَحُومِ الْغَوَافِلِ ^(١)	حِصَانُ رِزَانٍ مَّا تَزَنُ بَرِيَّةٍ
نَبِيِّ الْهُدَى، وَالْمَكْرُمَاتِ الْفَوَاضِلِ ^(٢)	حَلِيلَةُ خَيْرِ النَّاسِ دِينًا وَمَنْصَبًا
كِرَامِ الْمَسَاعِي، مَجْدُهَا غَيْرُ زَائِلِ ^(٣)	عَقِيلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيٍّ بَنَنْ غَالِبٍ
وَطَهَرَهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَبَاطِلِ ^(٤)	مَهْدَبَةٌ قَدِ طِيبَ اللَّهُ خِيَمَهَا
فَلَا رَفَعْتُ سَوْطِي إِلَى أَنْامِلِي ^(٥)	فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُ
بِهَا الدَّهْرُ بَلْ قَوْلُ امْرِئٍ بِي مَاحِلِ ^(٦)	وَإِنْ الَّذِي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِلَاتِطٍ
لَأَلَّ نَبِيَّ اللَّهِ زِينِ الْمَحَافِلِ ^(٧)	فَكَيْفَ وَوَدِي مَا حَيَّيْتُ وَنُصْرَتِي
تَقَاصِرُ عَنْهُ سُوْرَةُ الْمَتَطَوَّلِ ^(٨)	لَهُ رَتَبٌ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ

(1) حصان رزان: عفيفة ذات الثبات والوقار، تزنتهم، غرثي: جانعة، الغوافل: مفردا غالفة: أي أنها لا ترتفع في أعراض الناس. الديوان ٣٠٣.

(2) الحليلة: الزوجة.

(3) العقيلة الكريمة، والمساعي: جمع مسعاة وهو ما يسعى فيه من طلب المجد والكرم.

(4) الخيم: الأصل

(5) الأنامل: الأطراف من الأصابع. وقد يقصد الأصابع كلها.

(6) لاطط: لاذق. الماحل هنا المشاء بالميم، يقال محل به إلى السلطان أي وشى به ورفع إليه كذباً.

(7) لال النبي: لأنصاره وأهله وأتباعه.

(8) الرتب: ما أشرف من الأرض، استعارة للمجد الشرف. سورة: وثبة.

رَأَيْتَكَ وَلِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ، حُرَّةٌ من المحصنات غير ذات غوائل^(١)

ولما بلغ قوله: وتصبح غرثي من لحوم الغوافل. قال عائشة: لكنك يا حسان ما تصبح غرثان من لحومهن^(٢). لقد تجاوز حسان في مدحه المدح الحسى الذى يقوم على المنفعة، ولم يصف الجسد، بل مدح محاسن الأخلاق، فأتى بمعانى جديدة ومنها: العفة والزانية والهدى والرشاد والتقوى، والترفع عن الرزيلة والخوض فى أعراض الناس، والترفع عن المفساد والشرور، واستخدم المفردات القرآنية نحو: حصان، محصنات، الهدى، الطهر، السوء، الباطل، المغفرة.

وكان عبد الله بن أبي بن سلول يقود جبهة النفاق والمعارضة في المدينة، ويتربص بالنبي ﷺ ويكيد له، ويدس عليه من يشكك في أمره، ويوهنه.

وهو الذي أذى رسول الله ﷺ في أهله، فاتهم السيدة عائشة في صفوان بن المعطل رضي الله عنه، وكان براً صالحاً، وقد شكوا رسول الله ﷺ أذاه إلى قومه الأنصار، وقد تحدث بقوله بعض الناس ومنهم حسان بن ثابت ؓ، ومسطح بن أثاثه وحنمة بنت جحش في ناس آخرين^(٣). وقد برأها الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]. وقد عفت عنه السيدة عائشة رضي الله عن حسان، فكان يدخل عليها، وأنشدها قصيدته التي بين يديك. روى مسروق أنه قال: دخلت على عائشة وعندها حسان بن ثابت ينشدها شعرا يشيب بأبيات له فقال:

حَصَان رَزَانٌ مَا تَزْنُ بِرَبِيبَةٍ وتصبح غرثي من لحوم الغوافل

فقالت له عائشة: لكنك لست كذلك. قال مسروق فقلت لها: لم تأذنين له يدخل عليك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فقالت: فأى عذاب أشد من العمى! إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله ﷺ، وفي رواية: كان يذب عن رسول الله ﷺ^(٤).

(1) الغوائل: المفساد والشرور. الديوان ص ٣٠٣.

(2) رواه مسلم في مناقب حسان ؓ.

(3) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، وفتح الباري ج ٧/٤٩٦

(4) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب حديث الإفك. ورواه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل حسان بن ثابت. يشيب: تغزل، حصان: محصنة عفيفة، رزان: كاملة العقل، ورجل رزين، ما تزن: ما تتهم، من =

وروى البخاري عن عروة بن الزبير: كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وكانت تقول: إنه الذي قال^(١):

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاءً
وهي قصيدة طويلة قالها حسان قبيل فتح مكة.

يقول حسان بن ثابت في السيدة عائشة رضي الله عنها إنها محصنة عفيفة وكاملة العقل، وما تتهم بفاحشة وتعف نفسها عن الغيبة والنميمة ولا تغتاب أحداً، فهي جائعة فلا تشبع من أكل لحوم المؤمنات الغوافل اللاتي يظنن بأنفسهن خيراً، ولم يذكر شيئاً حسياً في وصفها، ولم يطلب عطاءً، وقد تأثر بالقرآن الكريم، فضمن شعره ألفاظه ومعانيه، ونلاحظ في بيته الذي ذكرناه في مدح عائشة رضي الله عنها ومعنى عجز البيت في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحجرات: ١٢]. وقد أراد حسان أن يقول إنها عفيفة اللسان، ولا ترتع في أعراض الناس. وقد جاء في صحيح مسلم أنها قالت له: "لكنك لست كذلك"^(٢) أي لم تتورع عن أكل لحوم الناس عندما خضت في حديث الإفك، وقد تاب الله تعالى عليه. وانتقل حسان من مدح خلقها إلى مدح مكانها من رسول الله ﷺ فهي زوجته، وهو خير الناس ديناً ومكاناً، فهو النبي ﷺ.

وهي من بيت كريم في قريش، ثم ذكر حسن خلقها وعفتها. واعتذر عما قيل عنه أنه خاض في عرضها، فدعى على نفسه بشئ يده إن كان قال شيئاً من حديث الإفك وأكرر أن يكون قد قال شيئاً، وليس شيء مما قيل وإقعا بها، وما قيل في ادعاء من مشاء بالنميمة. وكيف أقول كذباً في حليلة خير الناس، ووادي لهم وولائي ونصرتي لآل النبي فله شرف يتناول به على الناس، ولا يصل إليه من يتطلع إليه فأنت غفر الله تعالى لك حرة عفيفة، ليس بك سوء.

*** **

= زنن: ظن، غرثي: جائعة، ورجل غرثان، يريد لا تغتاب الناس، فلا تشبع من لحومهم ولهذا فهي جائعة لامتناعها عن أكل لحوم غيرها من الغوافل.

(1) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك وفتح الباري جـ ٩٦/٧

(2) صحيح مسلم، كتاب الفضائل فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه.

الاعتذار

الاعتذار أو الاستعطاف، الاستمache وطلب العفو، وهو فن نشأ في العصر الجاهلي في ظل المدح، وتداخل فيه معاني الشكر، والشكوى، والندم، والحب، والولاء، والرجاء، والاستعطاف، والأمل. ويعد النابغة الذبياني صاحب أشهر قصائد الاعتذار، فقد وقع بعض قومه أسرى في أيدي الغساسنة بالشام، فأقبل عليهم يمدح ويتشفع فيهم، فكان سبباً في غضب النعمان بن المنذر عليه فهم أعداءه، والنابغة شاعره الخاص المفضل، فأسرع النابغة بالاعتذار إليه، وقال فيه أروع قصائد الاعتذار، وأشهر اعتذارات قصيدته التي قال فيها^(١):

أُنبت أن أبا قابوس أوعدي ولا قرار على زار من الأسد
وقصيدته التي يقول فيها:

أتاني - أبيت اللعن - أنك لمتني وتلك التي أهتمُّ منها وأنصب
والمعتذر يلح في الاعتذار ويتذلل ويرجو، ويسترحم، ويعترف بذنبه ويقر به ويأمل العفو ويثق في عفوهِ وسماحة خلقه، وأنه لن يردّه، ولن يسلمه.
ويتميز هذا النوع بحسن الديباجة وقوة اللفظ ودقته وجمال الصور وابتكارها والتجديد فيها، ونجد للوشاة دور في الحدث، وهدف الشاعر يلقي عليهم المسؤولية، ويجعلهم سبباً في الخصام والهجر فهم الذين أوقعوا به وسعوا فيه وهو ضحيتهم. وازدهر هذا الفن في الإسلام، وقيلت فيه قصائد مشهورة في الأدب العربي، وأصحاب هذه القصائد كانوا ممن ناصب الرسول ﷺ العداء، فهجوه وتناولوا علي المسلمين، والإسلام مستضعف، فنصره الله تعالى ومكن له، فأتوا إلى النبي ﷺ معتردين طالبيين العفو، وألحوا في الطلب، وأخلصوا التوبة، فقبل الرسول ﷺ منهم، فقد كان يقدم عفوهُ ورضاه على غضبه وعقابه. وعبروا عن صدق اعتذارهم بمدح صادق بلغوا فيه مرتقى عظيماً، فصار مثلاً فريداً في المدح، والصلة بين المديح والاعتذار قوية، فالأول دليل صدق على الثاني.
وتعد قصيدة كعب بن زهير أروع نموذج لهذا الفن في عصر النبوة وبعض الأدباء

(1) أبو قابوس لقب النعمان بن المنذر - ارجع إلي الأغاني جـ ١٥٤/٧، ومن أشهر أبياته:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
وقوله : فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
وهما من اعتذارته إلى النعمان.

يجعلونها مديحاً، وآخرون يجعلونها اعتذاراً، وقد جمعت بينهما، فقد اعتذر كعب رضي الله عنه عما أحدثه وقاله، ثم مدح.

اعتذار كعب بن زهير وقصيدته "بانث سعاد"

كعب بن زهير بن أبي سلمى شاعر ابن شاعر جاهلي مشهور عرف بالحكمة، وشقيق شاعر أيضاً هو بجير بن أبي سلمى، وقد أرسل كعب بجيراً ليستعلم نبأ النبي ﷺ ويأتيه بخبره، فأسلم بجير عندما لقي النبي ﷺ، فعلم كعب بإسلام أخيه، فغضب عليه وقال شعراً أغضب النبي ﷺ، فقبل: أهدر دمه، فأرسل إليه بجير يخبره بذلك وطلب منه القدوم إلى النبي ﷺ والاعتذار إليه.

وقد أرسل إليه أخوه بعد منصرف النبي ﷺ من غزو الطائف قافلاً إلى مكة يقول له إن رسول الله ﷺ قتل رجلاً بمكة ممن كان يهجو ويؤذيه، وبقي من شعراء مشركي قريش عبد الله بن الزبيري، وهبيرة بن أبي وهب، وقد هربا من مكة، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، وحثه على الإسلام. فكتب كعب إلى بجير يلومه على ما يدعوه إليه من القدوم إلى النبي ﷺ والاعتذار والتوبة والدخول في الإسلام، وأنه لن يترك دين آبائه وأمهاته.

فأرسل إليه شعراً جاء فيه (وهو برواية محمد بن إسحق)^(١):

ألا أبلغاً عني بجيراً رسالةً	فهل لك فيما قلتَ ويحك هل لكَا ^(٢)
فبين لنا إن كنت لست بفاعل	على أي شيء غير ذلك دلكَا
على خلق لم ألف يوماً أباً له	عليه وما تُفني عليه أباً لكَا
فإن أنت لم تفعل فلست بأسف	ولا قائل إما عثرتَ لعاً لكَا ^(٣)

(1) ارجع إلى: شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ، جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري، تحقيق الدكتور محمود حسن ط/ ١٤٠١هـ، ١٩٨٥م - الوكالة العامة للتوزيع. وكعب من الشعراء المخضرمين (في الجاهلية وأدرك الإسلام) - ارجع إلى الأغاني جـ ١٥٠/ ١٤٠، وارجع إلى السيرة جـ ٤/ ١٥٠ - ١٥٣. والقصيدة من البحر البسيط وهي عند بعض العلماء سبعة وخمسون بيتاً وعند بعضهم واحد وستون بيتاً. وقد اعتمدنا على رواية السيرة، ونقلنا شرح معاني الكلمات عن الأستاذ محيي الدين عبد الحميد.

(2) ويحك: كلمة تقال إشفافاً وترحماً لمن يحب أن لا يقع في الهلاك خشية عليه بخلاف ويلك.

(3) بأسف: أرد لست بئادم، وقوله "لعلك" هذه كلمة تقال للعاثر، يدعي له بها، ومعناها قم وانعش، وروى: "سفاك بها المأمور وجاء: "سفاك أبو بكر" - الأغاني جـ ١٤٢/ ١، وعترت: أخطأت في السير.

سقاك بها المأمون كاساً رويةً

ورواه ابن هشام على هذا النحو:

مَنْ مَبْلُغٌ عَنِّي بُجِيرًا رِسَالَةً

شَرِبْتَ مَعَ الْمَأْمُونِ كَأْسًا رُويَةً

وخالفت أسباب الهدى واتبعته

على خلقٍ لم تُلَفِ أُمًّا وَلَا أَبًا

فإن أنت لم تفعل فلستُ بآسف

فأنهلك المأمون منها وعلكا^(١)

فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتُ بِالْخَيْفِ هَلْ لَكَ

فأنهلك المأمون منها وعلكا

على أي شيء ويَبَ غَيْرَكَ دَلْكََا

عليه ولم تدرك عليه أخا لكا

ولا قائلٍ إِمَّا عثرت لعا لكا

وبعث بها إلى بُجير، فلما أتت بُجيراً كره أن يكتمها رسول الله ﷺ، فأنشده إياها، فقال

رسول الله ﷺ لما سمع "سقاك بها المأمون": "صدق وإنه لكذوب"، أنا المأمون" وذلك أنهم

كانوا يسمون رسول الله ﷺ المأمون والأمين، وروى: "سقيت بكأس عند آل محمد". ولما

سمع "على خلقٍ لم تُلفِ أُمًّا وَلَا أَبًا عليه" قال: "أجل لم يُلفِ عليه أباه ولا أمه" فأرسل بجير

إلى كعب ينصحه ثانية، ويدعوه إلى الإسلام، وترك أمر الجاهلية^(٢):

من مَبْلُغٌ كَعْبًا فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي

إِلَى اللَّهِ، لَا الْعُزَّى وَلَا اللَّاتِ وَحْدَهُ

لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُقْلَتٍ

فَدَيْنُ زَهِيرٍ وَهُوَ لَا شَيْءَ دِينَهُ

تَلُومٌ عَلَيْهَا بَاطِلًا وَهِيَ أَحْزَمُ

فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النِّجَاءُ وَتَسْلَمُ

مِنَ النَّاسِ إِلَّا طَاهِرُ الْقَلْبِ مُسْلِمُ

وَدَيْنُ أَبِي سُلَيْمَى عَلَيَّ مُحَرَّمُ

فلما بلغ كعباً ضافت به الأرض ، وأشفق على نفسه ، وأرجف به من كان في

حاضره من عدوه، فقالوا: هو مقتول، فلما لم يجد من شيء بداً، قال قصيدته التي مدح

فيها رسول الله ﷺ وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه، ثم خرج حتى قدم

المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جُهينة، فغدا به إلى رسول الله ﷺ

حين صلى الصبح، فصلى مع رسول الله ﷺ، ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ فقال: هذا رسول

الله فقم إليه فاستأمنه، ففكر أنه قام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه، فوضع يده في يده،

وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يارسول الله، إن كعب ابن زهير قد جاء ليستأمن منك

تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتُك به؟ فقال رسول الله ﷺ: "نعم". قال: أنا يارسول

(1) وأنهلك: سقاك النهل، وهو الشرب الأول، وعلك: سقاك العلل، والعلل: الشرب الثاني.

(2) شرح قصيدة كعب بن زهير ص ٣٥، وديوان كعب بن زهير ص ٤

الله كعب بن زهير. وروى عاصم بن عمر بن قتادة أنه وثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يارسول الله، دعني وعدو الله أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ:

"دعه عنك فإنه قد جاء تائبًا نازعًا عما كان عليه" قال: فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لما صنع به صاحبهم، وذلك أنه لم يتكلم في رجل من المهاجرين إلا بخير، فقال قصيدته التي قال حين قدم على رسول الله ﷺ:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
مُتِمَّ إثرها لم يُفدَ مكبول^(١)

وروى أنه أقبل على النبي ﷺ، وهو في المسجد، يحدث أصحابه، وهم حلقة ثم حلقة وهو ووسطهم، فيقبل على هؤلاء يحدثهم ثم على هؤلاء ثم على هؤلاء، فأقبل كعب، فتخطى الناس حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: "يارسول الله، الأمان، قال: "ومن أنت؟ قال: كعب بن زهير، قال: أنت الذي يقول.. كيف قال يا أبا بكر، فأنشده حتى بلغ إلى قوله:

سقاك أبو بكر بكأس روية فأنهلك المأمون منها وعلكا

فقال رسول الله ﷺ: "مأمون والله"، ثم أنشده قصيدته التي اعتذر فيها مدح النبي ﷺ، وهي "بانت سعاد". وروي أنه لما بدأ ينشد لم يقبل النبي ﷺ، لأنه بدأ قصيدته بالحديث عن سعاد، وما أصابه من حبها، وأطال في ذكرها فلما بلغ إلى قوله:

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

في فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا

زالوا فما زال إنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا خور معازيل

أشار رسول الله ﷺ إلى أصحابه أن يسمعوا كعب بن زهير^(٢). وقيل: إنه ﷺ قال ذلك عندما

قال:

لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما بهم عن حياض الموت تهليل

وقيل: إنه لما وصل إلى قوله^(٣):

(1) البين: الفراق، وبانت: ذهبت وفارقت، وسعاد: اسم امرأة، ومتبول: هالك، من التبل - بفتح فسكون -

وهو الهلاك وطلب الثأر، وميتم: مبعد مذل، ومنه سمو تيم اللات: أي عبدها، ويروي "متمم عندها لم يجز" ومعناه: ذهبت سعاد وفارقتني، وأصبح قلبي هالك فهو متعلق بها ومقيد بحبها - السيرة

جـ/١٥٢، وشرح الديوان ص ٤٥، وشرح قصيدة كعب ص ٣٤، ٣٥

(2) الأغاني جـ ١٥٣/١٤

(3) شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ، تأليف جمال الدين محمد بن هشام. تحقيق

الدكتور محمد حسن أبو ناجي - ط ١/١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ص ٣٧ وقد ذكر ذلك أبو بكر بن الأنباري.

إن الرسول لسيفٌ يستضاء به مهتدٌ من سُيوفِ الله مسلُولٌ

رمى عليه النبي بُرْدَةً (عباءة) كانت عليه^(١). وقيل إنه غضب من الأَنْصار عندما عرفوه فتواثبوا يقولون للنبي ﷺ ائْذَنْ فيه. فقال: "وكيف وقد أتاني مسلماً"، وقد كف عنه المهاجرون وسروا بإسلامه، فعرضَ بالأَنْصار في موضعين منها، ومدح المهاجرين. وقد فسر الأدباء بيتين في القصيدة على أنه عرض فيهما بالأَنْصار أولهما أنه ذكر مواعيد رجل يسمى عرقوب قيل أصله من الأوس وقيل نسبه من نسب الأَنْصار قال:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها إلا الأباطيل

وبيته الثاني:

يمشي مشي الجمال الزهر بعضهم إذا عرَدَ السُّود التنايلُ

يمدح المهاجرين، وعرض برجل من الأَنْصار قام إليه ليقتله فكفه النبي ﷺ عنه، وقيل إنه ترك مدح الأَنْصار، فطلب منه النبي ﷺ والمهاجرون أن يمدحهم، وقيل إن المهاجرين غضبوا وقالوا ما مدحنا من هجا الأَنْصار، وعوتب على ذلك^(٢)، فمدح الأَنْصار في قصيدة أخرى أرجأناها إلى آخر "بانت سعاد" وأولها:

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقتب من صالحى الأَنْصار

قال ابن هشام : وذكُر لي عن علي بن زيد بن جُدعان أنه قال^(٣): أنشد كعب بن زهير

رسول الله ﷺ في المسجد: بانت سعاد فقلبي اليوم متبُول

وتسمى قصيدة "بانت سعاد"، وبعض العلماء يقول: "قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ"^(٤). وهي سبعة وخمسون بيتاً في رواية بن هشام في شرحه، وقد بلغت المقدمة منها سبعة وثلاثين بيتاً، منها ثلاثة عشر في ذكر سعاد، ومنها عشرون في وصف الناقة، وأربعة في تخويف الوشاة كعباً من القتل لما قاله، واعتذر إلى النبي ﷺ في اثنا عشر بيتاً، ومدح النبي ﷺ ومن معه من قريش وغيرهم من المهاجرين في ثمانية

(1) جاء في بعض المصادر أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عرض عليه فيها عشرة آلاف درهم، فقال: ما كنت لأؤثر بثوب رسول الله ﷺ أحداً، فلما مات كعب بعث معاوية رضي الله عنه إلى ورثته بعشرين ألف درهم، فأخذها منهم، وكان الخلفاء يلبسونها من بعده في ولاية الخلافة.

(2) ارجع إلى الأغاني جـ ١/١٤٤، والديوان ص ٧٢٦

(3) السيرة جـ ١٦/٤، وشرح الديوان ص ٦، ٧

(4) شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ لابن هشام الأَنْصاري - ط دمشق.

أبيات، فالقصيدة يربطها مضمون واحد إلا المقدمة التي اتخذها الشاعر مدخلاً إلى الموضوع الرئيس، وهو الاعتذار الذي توجّه في آخر القصيدة بالمديح، وقد وصل الشاعر المقدمة بالموضوع، فقد أمتست سعاد بأرض بعيدة صعبة، لا يصل إليها إلا ناقة عتيقة نجبية، فانتقل من الحديث عن سعاد إلى وصف الناقة التي تحمله إليها، وربط بين الناقة وبين موضوع القصيدة الرئيسى، وهو الاعتذار الموشى بالمدح، فقد سعى الوشاة جانبي الناقة ليخبروه أن النبي ﷺ سيقته جزاء قوله، فطلب منهم أن يتركوا الناقة لسبيلها، فما قدره الله تعالى واقع به، والموت نهاية كل حي. وتعد المقدمة مدخلاً وتمهيداً يهيئ المتلقي لموضوع القصيدة، وقد استرسل فيه كعب وبسط القول ليعطي المتلقي سعة من الوقت ليهدأ، ويتحول إليه، فقد دخل فلتة وأعلن عن نفسه، فأذهل الجلّاس، فبسط القول وسرد قصة حبه التي شقى بها، ويتودد بها إلى المتلقي، فقد ابتلى بهجر الحبيب، وبعّد مقامه عنه، فلا يصل إليه إلا بمشقة على ناقة فتية، واسترسل في وصف الناقة فوصفها وصفاً دقيقاً للمتلقي جعله يتأمل كل شيء فيها، فصرف المتلقي عن حالة الانفعال إلى حالة تأمل وإعجاب، فسرّى عنهم بوصف الناقة. قال كعب بن زهير رضي الله عنه:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول	متيم إثرها لم يفد مكبول ^(١)
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا	إلا أعن غضيض الطرف مكحول ^(٢)
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة	لا يشتكى قصر منها ولا طول ^(٣)
تجلّوا عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت	كأنه منهل بالراح معلول ^(٤)
شجت بذى شيم من ماء محنية	صاف بأطح أضحى وهو مشمول ^(٥)

- (1) يقول: ذهبت سعاد حبيبتي وهلك قلبي من فراقها، فهو ذليل معبد من بعدها، ومكبل بحبها.
- (2) الأغن: الصبي الصغير الذي في صوته غنة، والغنة: الصوت الذي يخرج من الخياشيم، ومعنى غضيض الطرف: فاتر الجفن، ويروى "غداة البين إذ برزت"
- (3) الهيفاء: ضامرة البطن والخصر، والعجزاء: عظيمة العجيزة وهي الردف.
- (4) تجلو: تصقل، والعوارض: الأسنان، و"ذي ظلم" هو الفهم، والظلم - بفتح فسكون - ماء الأسنان ويريقها، ومنهل: اسم مفعول من أنهله إذا سقاه نهلاً، والراح: اسم من أسماء الخمر، ومعلول: اسم مفعول، عله إذا سقاه عللاً.
- (5) شجت: مزجت، وأراد بذى شيم الماء البارد، والشيم - بفتحيتين - البرد، والمحنية: منتهى السوادي، ويقال: هو ما تعطف منه، الأبطح: الموضع السهل، ومشمول: هبت عليه ريح الشمال، وهي عندهم ريح باردة إذا هبت.

تنفي الرياحُ القَذَى عنه وأفرطه من صَوْبٍ غاديةٍ بيضٍ يَعَالِيلُ^(١)

يقول: فارقتني سعاد^(٢) وبعدت، فقلبي سقيم مضني هالك بحبها، فهو متيم بحبها ومستعبد به ذليل من بعد فراقها ، فقد صار أسير حبها ومقيداً ، يريد أنه فقد إرادته وصار أسيرها، فكأنه قد شد في كلبة سرج وهي حلقة في مؤخرة السرج، أو وضع في رجله قيد. ووصف سعاد فقال: كانت سعاد وقت رحيلها كالصبي الصغير في صوته غنة، وكانت فاترة النظر مكتحلة، فتركت التحديق واستيفاء النظر خجلاً، وكان ذلك خلقة بها، يريد كانت تغض بصرها فلا تمنع التحديق حياء، وهذا ما يزيد الرجل ولعاً بالمرأة.

وهذا يستحسن في خلق المرأة ، فالحياء شطر الجمال . وكان الكحل من زينة النساء تضعه في العين . وهي طويلة القامة وليست بالقصيرة فيعاب قصرها ولا بمفرطة في الطول فتعاب به، ولها عجيذة عظيمة، وكان ذلك مستحسن عند الرجال.

فهي طويلة القامة وهي مقبلة، عظيمة العجيذة وهي مدبرة، وليست بالطويلة ولا القصير. وهي إن ابتسمت كشفت أسناناً مصقولة برافة بيضاء ذات ماء نقي (لعاب) صاف كأنه منهل، وهو الشرب الأول (وهو أكثر صفاء ونقاء) ، قد مزج بالخمر وعلله بها، وقد كانوا يخففون وطأة الخمر بالماء لنقلها وشدتها، وقد شرب أولاً ثم تعلل فشرب ثانية، والماء يشرب ثانية إن استحسن. وأصل ذلك أن الإبل إذا شربت في أول الورد سمي ذلك نهلاً، فإذا رُدَّت إلى مشاربها سقيت الثانية، وتسمى "العلل" والأولى "النهل".

وهذه الخمر قد مزجت بماء بارد من منتهى الوادي صاف من منتهى أرض سهلة منخفضة بها رمل وحصى، هبت عليه ريح الشمال فكتشت عنه ما علا سطحه ونقته من النفايات. يريد: أنه ماء صاف نقي، تنفي الرياح ما وقع فيه الماء من تبن أو عود، وقد ملأ هذا الوادي مطر سحابة تمطر بالغدو أو بالليل ، وقد تسبب هطول المطر في رغبة بيضاء علت بالماء. أو هذا الماء صاف أزالته الرياح عنه ما به من عوالق وشوائب، وقد

(1) أراد بالقَذَى ما يقع في الماء من تبن أو عود أو غيره، وأفرطه: ملاًه، وسارية: سحابة، تسري فتمطر بالليل، يعاليل: واحداً يعول، والغدير: يريد به السيل، والحباب الأبطح، والغادية التي تمطر الغدو.

(2) سعاد امرأة يهواها حقيقة أو ادعاء، وقد كان مطلع القصيدة الجاهلية يتوج بافتتاحية غزلية أو بكائية يبكي فيها أمراً مضى أو يذكر فيها حب امرأة وفراقها أو يرثى قتيلاً أو ميتاً أو خمرة يذكر فيها أثر الخمر، وظلت في الإسلام حتى ثار عليها بعض الشعراء (منهم أبو نواس) ، وقد اعتمدنا على شرح قصيدة كعب بن زهير لجمال الدين محمد بن هشام الأنصاري - وشرح الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد شعر سيرة ابن هشام حـ ١٥٣/٤.

نزل هذا الماء سيولاً مرة بعد مرة من سحابة بيضاء تسري فتمطر بالليل فمألت مواضع الماء في الأبطح، وقال متحسراً عليها وشاكياً تنكرها لما وعدت به:

فِيالِهَا خُلَّةٌ لَوْ أَنَّهَا صَدَقْتُ بُوَعَدَهَا أَوْ لَوْ أَنَّ النَّصْحَ مَقْبُولُ^(١)
لَكُنْهَا خُلَّةٌ قَدْ سَيِّطَ مِنْ دَمِهَا فَجَعُ وَوَلَعُ وَإِخْلَافُ وَتَبْدِيلُ^(٢)
فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا كَمَا تَلَوْنَ فِي أَثْوَابِهَا الْغُولُ^(٣)
وَمَا تُمَسِّكُ بِالْعَهْدِ الَّذِي زَعَمْتُ إِلَّا كَمَا يُمْسِكُ الْمَاءُ الْغَرَابِيلُ
فَلَا يُغَرِّتُكَ مَا مَنَتْ وَمَا وَعَدْتُ إِنْ الْأَمَانِي وَالْأَحْلَامَ تَضْلِيلُ
كَانَتْ مَوَاعِيدُ عَرْقُوبٍ لَهَا مِثْلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ^(٤)
أَرْجُو وَأَمَلُ أَنْ تَدُنُو مَوَدَّتَهَا وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكَ تَنْوِيلُ^(٥)

وتحسر على صداقتها، وقال: ما أكرمها من صداقة ومودة (يتعجب)، لو أنها دامت وتمت على ما نريد، أو أنها قبلت نصيحتي، ولكنها أبت على فوقع الفراق، ولم تصدقني في وعدي الذي وعدت به، وهذا ما ينقصها أنها لم تصدق في وعدها.

ولكن مودتها لم تدم طويلاً، وفجعت فيها بالكذب والإخلاف والتبديل، فإن هذه المرأة قد خلط بدمها الإفجاع بالمكروه، والكذب في الخبر والإخلاف في الوعد، وتبديل خليل بآخر، وصار ذلك سجية لها، ولن يزول عنها ذلك، وهي مولعة بما هي عليه.

فليست لها حال واحدة تكون عليها، فهي تتلون في أثوابها مثل ساحرة الجن أو سَعَالِي الجن (إناث الشياطين) فهي تتلون - فيما يزعمون - كل وقت، وتغول البلاد (تختلف إليها)

(1) ويروى: ويل أمها خلة، ويروى: أكرم بها خلة، وخلة للذكر والأنثى.

والخلة ههنا: الصديقة، يقال: هي خلتي، بمعنى صديقتي وصاحبتي، ويقال للرجل خلة أيضاً، قال شاعر الحماسة:

أَلَا أَبْلَغًا خُلَّتَنِي رَاشِدًا وَصَنَوِي قَدِيمًا إِذَا مَا تَصَلُّ

(2) سيط: تروى هذه الكلمة بالسين والشين، فأما من رواها بالسين فقد عنى أنه خلط بدمها ما يذكر بعد ذلك من الصفات، تقول: سطت الشيء أسوطه، إذا خلطته، وأما من رواها بالشين فقد أراد معنى غلي وارتفع وعلا، والوَلَع - بفتح فسكون - الكذب.

(3) الغول: ساحرة الجن أو الواحدة من السعالي (إناس الشياطين)، وهو من خرافات الجاهلية.

(4) عرقوب: اسم رجل يضرب به المثل في خلف الوعد.

(5) إخال - بكسر الهمزة - فعل مضارع بمعنى الظن، وكسر همزة المضارعة في هذا الفعل خاصة لغة تميم من بين العرب وهو فصيح، وفتحها لغة أسد، ويروى:

أَرْجُو وَأَمَلُ أَنْ يَعْجَلَنِي فِي أَبَدٍ وَمَا لَهْنُ طَوَالَ الدَّهْرِ تَعْجِيلُ

وتهلك من تشاء، وهذا من متعقدات الجاهلية. ولا توفي بعهد وعدت به، فتخلف وعدها وتبدده، فهي في عهودها كالغرايل لا تمسك الماء، فهي لا تتمسك بعهدا. فلا تتخذ بأمانيها ولا بوعودها فأمانيها وأحلامها معك خداع. وصار مواعيد عرقوب مثلاً لها بين الناس لشهرة اتصافها بالإخلاف.

وعرقوب: رجل يضرب به المثل في خلف الوعد، وقيل هو رجل من العمالقة، يسمى عرقوب بن صخر، وقيل هو من الأوس، وقد وعد أخاً له ثمرة نخلة، وقال: انتني إذا طلع النخل، فلما أطلع قال: إذا أبلح، فلما أبلح قال: إذا أزهى، فلما أزهى، قال: إذا أرطب، فلما أرطب قال: إذا صار تمرًا، فلما كان تمرًا جذّه من الليل ولم يعطه شيئاً، فضربوا به المثل من الإخلاف. فقالوا أخلف من عرقوب.

ورأى بعض العلماء أنه من الأوس فذكره يعرض بالأنصار؛ لأنهم قاموا عليه عندما عرفوه يريدون قتله، ومن ذهب إلى هذا الوجه قال إن العماليق قد نزل جماعة منهم يثرب، ومنهم يثرب بن عبيد، وعرقوب منهم، وقد كان يرجو أن تحسن مودتها ويأمل ذلك منها، ما بقي من عمره، فقد كان يرجو أن تفي بما وعدت وما أظن أنها ستوده أو تدنوا مني، وجاء في رواية أخرى أنه عمم الحكم فجعلهن لا يصدقن طوال عمرهن.

ويسمى هذا في البديع الترجيع، فقد قرر أنها ستوده ثم عاد على ما قرره بالنقض، فهو يرجوا مودتها، ولكنه لن ينل منها شيئاً، فرجا شيئاً وظن خلافه.

وانتقل إلى الحديث عن الناقة التي تحمله إلى المكان الذي نزلت به سعاد، فوصف الناقة ومشقة الرحلة وقدرة الناقة على اجتياز هذه الظروف القاسية. فقال:

أَمَسَتْ سَعَادٌ بِأَرْضٍ لَا يُبْلَغُهَا إِلَّا الْعَتَاقُ النَّجِيبَاتُ الْمَرَايِلُ^(١)
وَلَنْ يُبْلَغَهَا إِلَّا عَذَاوِرَةٌ لَهَا عَلَى الْأَيْنِ إِرْقَالٌ وَتَبْغِيلُ^(٢)
مِنْ كُلِّ نَضَاخَةٍ الذَّفْرَى إِذَا عَرَقَتْ عَرْضَتُهَا طَامِسُ الْأَعْلَامِ مَجْهُولُ^(٣)

(1) المراسيل: السريعة، النجيبة: الكريمة، العتيق: الكريم أو حسن أو رائع.

(2) العذافر - بضم العين وبعد الألف فاء مكسورة - : الناقة الضخمة، والأين: الفتور والإعياء، والإرقال: مصدر أرقل، وهو ضرب من السير، ومثله التبغيل وهو مشي يشبه سير البغال لشدة.

(3) نضاخة: تروى هذه الكلمة بالحاء المهملة وبالحاء المعجمة، وهي التي يرشح عرقها، وبعض أهل اللغة يجعل النضخ بالمعجمة أكثر من النضح بالمهملة ورأى ابن جنى أن النضخ فوران الماء من أسفل مندفعا عن قوة، قال تعالى: (فيهما عيانان نضاختان) والذفرى - بكسر الذال وسكون الفاء - عظم في أصل الأذن، ويقال: هي نقرة خلف الأذن، وهي أول ما يعرق من البعير، وعرضتها: همتها، وهو من قولهم: =

ترمي الغيوب بعيني مُفردٍ لهقٍ إذا توفّدتِ الحِزَّانُ والمِيلُ^(١)
ضَخْمٌ مُقلِّدُهَا فَعَمٌّ مُقَيِّدُهَا في خَلَقِهَا عن بناتِ الفحلِ تفصيلُ^(٢)

وشكا فراقها فقال: لقد صارت بأرض بعيدة، فوصف أرضها بالبعد ولا يصل إليها إلا ناقة ماهرة فتية، وذكر ما يتصل بذلك من وصف الناقة.

ولن تستطيع الوصول إليها إلا نوق عتاق أو ما يبغها شيء إلا نوق كريمات حسناوات ذوات سرعة وعدو. وهذه الأرض لا يبلغها إلا ناقة صلبة عظيمة سريعة العدو، من صفتها أنها إذا أعيت وكلت من السير سارت إرقالاً (ضرب من السير أو نوع الخبب)، وتبغياً (ضرب آخر من السير يشبه سير البغال لشدته)، فما ظنك بها إن لم تكل؟ وهي ناقة فوّارة العرق من النقرة التي خلف أذن الناقة، وهي أول ما يعرق منها إذا عرقت، وهي جلدة للسفر قوية تجتاز الطريق إذا طمست علامته، فهمتها طريق طامس الأعلام.

وإن هذه الناقة تقدر على السفر قوية عليه، وتطيقه، فتقطع الطريق المجهول وترمي ما ارتفع وانخفض بعينين مثل عيني ثور شديد أبيض إذا اشتدت الأرض الغليظة الصلبة أو اشتدت أعلام الطريق أو معالمه أو اشتدت عقد الرمل الضخمة؛ وإن هذه الناقة تشبه في وقت توقد الأرض عيون الثور الوحشي الفاقد لابنه في حدة النظر وحدة الجسم والنشاط. وهي ضخمة العنق، وممتلئ موضع التقيد منها، وهو من الرجل، وهي مفضلة من بين بنات الفحل، وقال مسترسلاً في الوصف:

غَلْبَاءُ وَجَنَاءُ عُلُوكُمْ مَذْكِرَةٌ فِي دَفِّهَا سَعَةٌ قُدَّامَهَا مِيلُ^(١)

قولهم: = = يعبر عرضة للسفر: أي جل عليه قوى، وطامس: متغير، والأعلام: العلامات التي تكون في الطرق يهتدي بها، وأراد أنه ليس بها علم.

(1) الغيوب: جمع غائب، مثل شاهد وشهود، وحاضر وحضور، ويرى في مكانه "النجاد" وهو جمع نجد، وهو ما ارتفع وعلا وقوله "بعين مفرد" أراد بعيني مثل عيني ثور مفرد، وهو الذي انفرد في الصحراء، ولهق: هو شديد البياض، وهو فتح اللام، وهاءه مكسورة أو مفتوحة، مثل: أبيض يقق ويقق، والحزان، جمع حزيز، وهو المكان الغليظ الصلب، والميل: جمع أميل أو ميلاء، ويقال: الميل هو العلم الذي يبني على الطريق، ليعرف المسافر الطريق.

(2) المقلد مكان التقليد، وهو العنق، وفعم: أي ممتلئ، ومقيدها: موضع التقيد منها وأراد به الرجل.

وَجِلْدُهَا مِّنْ أَطُومٍ مَا يُؤَيِّسُهُ
حَرْفٌ أَخُوها أَبُوها مِّنْ مُّهِجَةٍ
يَمْشِي الْقُرَادُ عَلَيْهَا ثُمَّ يُزَلِّقُهُ
عَيْرَانَةٌ فَذَفَّتْ بِالنَّحْضِ عَنْ عَرْضِ
كَأَنَّمَا فَاتَتْ عَيْنَيْهَا وَمَذْبَحُهَا
تَمَرٌ مِّثْلَ عَسِيبِ النَّخْلِ ذَا خَصْلِ
طَلْحٌ بَضَاحِيَّةُ الْمُتَنِينَ مَهْزُولٌ^(٢)
وَعَمَّهَا خَالَهَا قُودَاءُ شَمْلِيلٍ^(٣)
مِنْهَا لَبَانٌ وَأَقْرَابٌ زَهَالِيلُ^(٤)
مَرْفُقُهَا عَنْ بَنَاتِ الزَّوْرِ مَقْتُولٌ^(٥)
مِنْ خَطْمِهَا وَمِنْ اللَّحْيَيْنِ بَرِطِيلُ^(٦)
فِي غَارِزٍ لَمْ تَخَوْتَهُ الْأَحَالِيلُ^(٧)

- (1) الغلباء: الغليظة الرقبة، والوجناء: عظيمة الوجنتين، والعلكوم: الشديدة، ومذكرة: يريد أنها في عظم خلقها تشبه الذكر من الأباقر، والدف - بفتح الدال وتشديد الفاء - الجنب، وقد أقام هنا الواحد عن المتنى، فهما جنبان، وقوله "قدامها ميل" وصف لها بطول العنق.
- (2) يريد أن جلدها قوي شديد الملاسة لسمنها وضخامتها، فالقراد المهزول من الجو لا يثبت عليها ولا يلزق بها، والأطوم: هي الزرافة أو السلحفاة البرية، شبهها بإحداهما في الملاسة، ويؤيسه: يذله ويؤثر فيه، والطلح - بكسر الطاء وسكون اللام - القراد، والضاحية: البارزة الظاهرة، وأراد بالمتنين ما اكتنف صلبها عن يمين وشمال من عصب ولحم، ومهزول: صفة الطلح.
- (3) الحرف في الأصل حرف الجبل، وهو القطعة الخارجة منه وشبه الناقة به في الصلابة، أو الحرف هو حرف الخط وشبهه به الناقة في الهزال والضمور، فهذه الكلمة تحتل هذين المعنيين، وأبوها أخوها، وعمها خالها يريد بهذه العبارة أنها مداخلة النسب في الكرم، فلم يدخل في نسبها أجنبي، والهجنة - بضم فسكون - ههنا - غلط الخلق كغلط البراذين، والناقة مهجنة: أي كريمة، والهجين: الكريم من الإبل، ومعه هجانن، والقوداء: الطويلة الظهر والعنق، والشمليل - بكسر فسكون - السريعة.
- (4) هذا البيت في معناه تأكيد لقوله فيما سبق "وجلدها من أطوم" واللبنان - بفتح اللام - والأقرب: الخواصر واحداً قُرب - بزنة قُفْل وجُمْل - وزهاليل: صفة لأقرب ولبان معا، وهو جمع زهلول، وهو بزنة عصفور، الأملس الناعم.
- (5) عيرانة: يريد أنها تشبه العير في شدته ونشاطه، والعير: حمار الوحش، والنحض - بفتح فسكون - اللحم. وأراد من أنها فذفت به أنها ممثلة الجسم منه، ويقال: امرأة نحیضة؛ إذا كانت عبلة ضخمة كثيرة اللحم، والعرض - بضم العين المهملة والراء - الجانب والناحية، الزور - بفتح فسكون - الصدر أو وسطه أو أعلاه، وبنات الزور: ماحوله وما يتصل به من الأضلاع، ومقتول: مدمج محكم.
- (6) قال محمد محيي الدين: وقع هذا البيت متأخراً في بعض النسخ عن البيتين التاليين له، وأثرنا ترتيب هذه النسخة لموافقتها لرواية ابن هشام الأنصاري في شرحه لهذه اللامية، وفات: تقدم، ومذبحها: منحراها، وهو مكان المذبح، والخطم - بفتح فسكون - الأنف، واللحيان - بفتح فسكون - متنى لحي، وهو الحنك، والبرطيل - بكسر فسكون - معول من حديد، وهو أيضاً حجر مستطيل؛ يصفها بكبر الرأس.
- (7) عسيب النخل: جريده الذي لم ينبت عليه الخوص، فإن نبت عليه سمى سَعَفًا، الخصل - بضم ففتح - جمع خصلة - بضم فسكون - وهي اللقافة من الشعر، وأراد بمثل العسيب ذنبها، والغرز: أراد به ضرعها، وتخونها: تنتقصه، والأحاليل: جمع إحليل، وهو بزنة فتدليل مخرج البول.

وهي غليظة الرقبة عظيمة الوجنتين تشبه في خلقها الذكر من الأباعر، وفي جانبي عنقها سعة، يصفها بطول العنق وغلظها. وجلدها قوي شديد الملاسة لسمنها وضخامتها، فلا يستطيع القراد المهزول من الجوع أن يثبت علي جانبيها ولا يلزق لملاستهما واكتناز اللحم بهما، والمتنان متنى ظهرها، وهما ما اكتنفا صلبها في الظهر. وهي مثل حرف الجبل في القوة والصلابة، أخوها يشبه أباه في الذكر وعمها يشبه خالها في ذلك أو هي من إبل كرام فبعهضا يحمل على بعض فليس في نسبها دخيل، وفحفظ نوعها، وهي من كرام الإبل عظيمة الخلق، وهي طويلة الظهر أو العنق، وخفيفة سريعة. ويمشي القراد على جلدها لاستوائه، فيزلق ولا يثبت لسمنها وملاسة جلدها، ويزلق من الصدر والخواصر لملاستهما، وقد شد الجلد عليها لسمنها. وهي تشبه العير (حمار الوحش) في شدة نشاطه كأنها قذفت به فنسبت إليه لامتلاء جانبيها ومرفقها من أعلاه مدمج محكم، أو أن مرفقها جاف عن صدرها. إنها تشبه العير لصلابتها، وامتلات أعراضها لحماً، فهي لم تجلب فهي تامة الخلق لم ينقصها الحلب، ومرفقها من عند الأضلع المقدمات من الزور مفتول. ووصفها بكبر الرأس وعظمه، فقال: كأنما تقدم معول من حديد عينيها ومنخرها من الموضع الذي يقع عليه الفطام والعظمين اللذين تنبت عليهما اللحية أو أن ما تقدم هذه الأماكن حجر مستطيل يكنى به عن عظم رأسها. وهي في سيرها تمر سهلة مثل مرور عسيب الجريد الذي لم ينبت عليه الخوص في ضرع ليس به لين، فضرع الناقة الممتلى يعوقها عن الحركة، ولم يضعفها الحمل والولادة والحلب، وهذا الضرع لم تنتقصه الأحاليل (أي فتحات الضرع) يريد أنها لا تحلب، وذلك أقوى لها على السير، أو نفي الضعف عن الناقة بنفيه عن ضرعها، فالضرع قد لا يمسك ما فيه فيسقط مع الحركة، وقال:

قَنَوَاءٌ فِي حَرَّتِيهَا لِلْبَصِيرِ بِهَا عَتَقٌ مُبِينٌ فِي الْخَدَّيْنِ تَسْهِيلُ^(١)
تَخْذِي عَلَى يَسْرَاتٍ وَهِيَ لَاحِقَةٌ ذَوَابِلُ مَسْهَنٍ الْأَرْضِ تَحْلِيلُ^(٢)

(1) القنواء: المحدودية الأنف، والحرتان: الأذنان، ويروى بدل قنواء "وجناء" وهي صلبة الوجنة، ومعنى "في حرتيها للبصير بها عنق" أن من رأى أذنيها عرف عنقها وكرمها، وقد وقع هذا البيت متقدماً على البيتين قبله مع أن البيت الذي أوله "تمر" متأخر عن البيت الذي أوله "كأنما فات..الخ". وقد تقدم هذا البيت على ما قبله في بعض الروايات.

(2) تخذي: تسرع، وروى في مكانه "تهوي"، والمعنى واحد، واليسرات: قوائمها، يريد أنها تسح السير بها كلها، واللاحقة: الضامرة الخفيفة اللحم، وذوابل: جمع ذابل، وهو اليابس: وإذا كانت القوائم قليلة اللحم لم تكن رهلة ولا مسترخية، وذلك أنشط لها وأقوى لسيرها، وقوله: "مسهن الأرض، تحليل" إشارة إلى سرعة رفعها قوائمها، يعني أنها إنما تمس بقوائمها الأرض قليلاً كمن يتحلل من يمين.

سُمِرَ الْعَجَايَاتِ يَتَرَكْنَ الْحَصَا زِيْمًا لَمْ يَقَهَنَّ رُؤْسَ الْأَكْمِ تَنْعِيلُ^(١)
كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعَيْهَا إِذَا عَرِقَتْ وَقَدْ تَلَفَّعَ بِالْقُورِ الْعَسَاقِيلُ^(٢)

يَوْمًا يَظَلُّ بِهِ الْحَرِبَاءُ مُصْطَخِدًا كَأَنَّ ضَاحِيَةَ الشَّمْسِ مَمْلُوءُ^(٣)

وَقَالَ لِلْقَوْمِ حَادِيهِمْ وَقَدْ جَعَلَتْ وَرُقُ الْجَنَادِبِ يَرْكُضْنَ الْحَصَا قِيلُوا^(٤)

يقول: وفي أنفها احديداب ومن رأى أذنيتها عرف عتقها وكرمها، وفي الخدين سهولة وانيساط. وروي أن النبي ﷺ لما سمع هذا البيت قال لأصحابه: "ما حرتها؟ فقال بعضهم: عيناها، وسكت بعض، فقال ﷺ: هما أذناها". ومعناه: إذا نظر البصير بالإبل إلى أذنيها وسهولة خديها بان له كرمها.

وهي تسير "تخدي" (ضرب من السير سريع) على قوائمها جميعاً، بيد أنها تحسن السير بقوائمها كلها، وهي ضامرة خفيفة، فمس قوائمها الأرض سلساً سهلاً، وهو إشارة إلى

(1) العجايات - بضم العين المهملة - ومثله العجاوات: جمع عجاية أو عجاوة، وهي لحمة متصلة بالعصب المنحدر من ركبة البعير إلى الفرس، وزيم - بكسر الزاي وفتح الباء - هو المتفرق، يريد أنها لشدة وطنها الأرض تفرق الحصى وراؤها، والأكم - بضم الهمزة وسكون الكاف - محفف من الأكْم - بضم الهمزة والكاف جميعاً - والأكْم: جمع إكْم - يزنة كتاب وكتب - والأكام: جمع أكم - بزنة جبل وجبال - والأكْم: جمع أكمة، وهي ما ترفع من الأرض.

(2) قال الأستاذ محمد محيي الدين: وقع هذا البيت في بعض النسخ متأخراً عن البيتين التاليين له ههنا، وآثرنا ترتيب هذه النسخة لما ذكرنا قريباً، والأوب: مصدر آب بمعنى رجع، وتلفع: التحف، والقور: جمع قارة، هي الجبل الصغير، العساقيل: السراب، قال الجوهري: لم أسمع بواحدة، يريد أن يشبه رجوع ذراعي ناqqته في وقت الهجرة، عند اشتداد الحر وانتشار السراب فوق صغار الجبال، بذراعي عيطل، وسيأتي بيان المشبه به في بيت آخر، وهو خبر كأن الواقع في صدر هذا البيت.

(3) الحرباء - بكسر فسكون - ضرب من العطاء، وهو حيوان بري له سنام كسنام الجمل يستقبل الشمس، ويدور معها حيث دارت ويتلون ألوانا، ويقال: هي أم حبيش، وقوله "مصطخدا" أي مصطلياً بحر الشمس، ويروى في مكانه "مرتباً" أي مرتفعاً، وضاحية: ما برز منه للشمس وظهر، ومملول: محروق، أصله من الخبز المليل أو المملول، وهو المصنوع في الملة، وهو بفتح الميم وتشديد اللام الرماد الحار.

(4) الحادي: الذي يسوق الإبل، والورق: جمع أ ورق، وهو الأخضر إلى سواد، ويروى في مكانه "يقع"، وهو جمع أبقع، والأبقع: الذي فيه ألوان، ومثله الأرقط، والجنادب: جمع جندب، وهو ذكر الجراد، ويركضن الحصى، يدفعنه، وقيلوا: فعل أمر من قال يقل إذا استراح وقت القيلولة، وهو مقول القول الذي في أول البيت.

سرعة رفعها قوائمها على الأرض، فهي تتحلل من قسمها بمس الأرض، إشارة إلى سرعة عدوها ولطف مسها الأرض وعلى أرجلها جلد أسود من الركبة إلى الظفر، وذلك من كثرة السير وما تلاقيه من الطريق، أو قوائمها سوداء من أثر السير، وهي تفري الحصى بأرجلها فتفرقه من شدة العدو.

يريد أنها تفرق الحصى بشدة، وطئها الأرض ولا تحفي في سيرها فتفتقر إلى النعل، فالخف لا يتأثر بالأرض. لم يبق أرجلها التنعيل: رعوس الأكم، فأرجلها لا يحتجن أن ينعلن لأنهن غلاظ، وأرجلها سمر يتركن الحصى متفرقاً، ولا يحتجن نعالاً لقوتهن. ورجلاها الأماميتين ترمي الحصى خلفها من شدة السعي في وقت الهجرة والحر الشديد، وقد عرقت ذراعاها الأماميتين، وهما تشدان في الأرض وتواجهان الحر الشديد مثل الحرباء القائم من الحر منتصباً، وقد اسود جانبه الذي يواجه الشمس.

وقيل: يريد أن يشبه ذراعي الناقة في شدته بالحرباء التي تمسك بجزع الشجرة وتقف في وجه الشمس تستقبلها، فتدور معها وتتلون ألواناً بحر الشمس، ويضرب بها المثل في الحزامة، لأنه يلزم ساق الشجرة فلا يرسله إلا ويمسك ساقاً أخرى، فيقف الحرباء يتصدى الشمس وكأن ما برز للشمس وظهر منه محروق. ومعنى البيتين معاً لاتصالهما: أن الأماكن العالية تلفعت بالسراب في يوم يظل الحرباء فيه يستقبل الشمس وكأن ما برز منه للشمس محترق من شدة الحر.

ويقول الحادي (سانق الإبل) لمن في القافلة - وطوال الجراد يدفعن الحصى من شدة الحر - استريحوا وقت القيلولة لمشقة السير في الحر. يريد أن ناقتة لا تكف عن السير في الهجرة والقيلولة. واستطرد في ذكر مشقة الرحلة ومعاناة الناقة وقدرتها على مواجهة مشقة السفر، فقال:

شَدَّ النَّهَارَ ذِرَاعاً عَيْطُلَ نَصَفٍ	قَامَتْ فَجَاوِبُهَا نُكْدٌ مَثَاكِيلُ ^(١)
نَوَاحَةٌ رَخْوَةٌ الضَّبْعَيْنِ لَيْسَ لَهَا	لَمَّا نَعَى مَكْرَهَا النَّاعُونَ مَعْقُولُ ^(٢)
تَفَرَّى اللَّبَانَ بِكَفَيْهَا وَمَدْرَعُهَا	مُسَقَّقٌ عَنْ تَرَاقِيهِهَا رَعَابِيْلُ ^(٣)

(1) عيطل: الطويل، النصف: بين الذي بين الشايه والكهله، نُكْدٌ: جمع نكدي: وهى الناقة التى لا يعيش ولدها. والمثاكيل: جمع مثكال: التى فقدت ولدها.

(2) نواحة: كثيرة النواح، وهى التى تبكى ولدها، الضبعين: متنى الضبْع: العضد، المعقول: العقل.

يقول: كانت تسعى، وقد ارتفع النهار واشتد حره، وهى لا تكف عن السير، وكأنها وهى تسرع لها ذراعان طويلان، فتمشى مثل الناقة التى بين الشابة والكهلة (يشبه ذراعيها بذراعى المرأة التى تلطم لما فقدت ولدها، وجاوبها نساء فقدن أولادهن، فزاد ذلك من شدة حزنها ولطمها)، يريد بذلك سرعة عدو الناقة. وهى المرأة كثيرة النواح وقد ظهر عضداها، وهى تنوح وتجاوبها النائحات على بكرها الذى فقدته، وقد فقدت عقلها لشدة حزنها على ولدها؛ فخمشت وجهها وشققت صدرها بأظافرها ودقته، يريد بذلك حال الناقة وهى مسرعة.

وتحول الشاعر من الحديث عن الناقة وماعنته فى رحلتها إلى مقصده الرئيسى، وهو الاعتذار، فترك سعاد والناقة ومشقة الرحلة، وتحول إلى معاناة أخرى، فقد ابتلى فى رفاقه الذين تنكروا له لسوء سوابقه وما قاله فى الإسلام، وهو مشرك، فقال:

تسعى الغواة جنبابها وقولهم إنك يا ابن أبى سلمى لمقتول^(٢)
وقال كل صديق كنت آمله لا ألهينك إني عنك مشغول^(٣)
فقلت: خلوا سبيلي لا أباً لكم فكل ما قدر الرحمن مفعول^(٤)
كل ابن أنثى وإن طالَّت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول^(٥)

دخل الشاعر إلى موضوع القصيدة الرئيسى، وهو الاعتذار، فذكر دور سعاية الوشاة وتخذيلهم إياه وشماتتهم به، وإلحاحهم عليه وتخويفهم إياه، وهم أول من استقبله، فلم يجدهم مرحبين بل وجدهم مخوفين ومخذلين وشامتين، فلم يعأ بهم، وقد ذكر الوشاة، ليجد رد فعل حسن ولطف به ورفق، فذكر ذلك يستشفع به فى اعتذاره، فالشاعر العربى كان يشكو ذل الفقر وقسوة الحياة وإهمال الناس لينال هبات السادة، وكان يتوسل بما وقع عليه من ظلم ليجد معيناً، وقد ذكر كعب مرارة الهجر ومشقة السفر وسوء مقابلة الوشاة، ليكونوا شفعاء فى اعتذاره.

(1) تفرى: تقطع، اللبان: الصدر، المدرع: قميصها، مشقق: شقوق كثيرة، التراقى: جمع ترقوة، عظام الصدر التى عليها القلادة، رعابيل: قطع.

(2) الغواة (وفى رواية: يسعى الوشاة): تسعى: أوشى به، والغواة: جمع غاوٍ، والوشاة: جمع واشٍ.

(3) لا ألهينك: لا أشغلك عما أنت فيه، أى: تعهد نفسك دون معونتي لك.

(4) لا أباً لك: دعاه عليه، يراد به التوبيخ.

(5) حدباء: يراد به النعش الذى يحمل عليه الموتى.

وقد تخلى عنه الجميع، وتركه من كان يرجوا وساطته، وقال له لا أغنى عنك شيئاً، فاعتن بأمر نفسك وقم لحاجتك وحدك، فابنى فى شغل من أمرى، فلم يجد معيماً ولا مجيراً، وقد توصل إلى حقيقة من عيون الحكمة أن الموت نهاية كل حى، فلا يخشى عاقبة الأمر الذى أقدم عليه، فكل ما قدره الله تعالى يكون، ولا مفر من قدره، وهذا يؤكد حسن اعتقاده وسلامة عقله ورغبته فى الإيمان خلافاً لمن زعم أنه اعتذر خشية القتل، وهو إلحاح من بعيد إلى استقطاب المشاعر والرغبة الشديدة فى الاعتذار، وصدر اعتذاره بما أخبر به من أن رسول الله ﷺ توعده بالقتل وقد قدم عليه معذراً طمعاً فى عفوهِ.

قال:

وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ ^(١)	نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي
قُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِيظُ وَتَفْصِيلُ ^(٢)	مَهْلًا هَذَا الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْ-
أُذْنِبَ وَلَوْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلِ ^(٣)	لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوِشَاةِ وَلَمْ
يَرَى وَيَسْمَعُ مَا قَدْ أَسْمَعَ الْفِيلَ ^(٤)	لَقَدْ أَقُومُ مَقَامًا لَوْ يَقُومُ بِهِ
مِنَ الرَّسُولِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَنْوِيلَ ^(٥)	لِظِلِّ يَرْعُدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ
جُنْحُ الظَّلَامِ وَثُوبُ اللَّيْلِ مَسْدُولَ ^(٦)	مَا زِلْتُ أَقْطَعُ الْبِيدَاءَ مَدْرِعًا
فِي كَفٍّ ذِي نَقَمَاتٍ قِيلُهُ الْقِيلَ ^(٧)	حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي مَا أَنَا زَعَهَا
وَقِيلَ إِنَّكَ مَنْسُوبٌ وَمَسْئُولُ ^(٨)	فَلَهُوَ أَخَوْفُ عِنْدِي إِذْ أَكَلَمَهُ

المعنى: أخبرت أن النبي ﷺ أوعدنى بشر لسوء فعلى، وبنى الفعل للمجهول فلم يعين المخبر، ليستعطف النبي ﷺ فعسى المخبر ليجد العفو، وقابل الوعد بالعفو عند الرسول ﷺ وذكر الرسول ﷺ للتعظيم، ولتقوية الرجاء، فالناس تعلم حسن خلقه وتقديمه العفو على العقاب، لما يتمتع به من سماحة ورحمة جبل عليها.

- (1) يروى: أنبئت: أخبرت خبراً صادقاً، الإيعاد يكون بالشر وبالخير.
- (2) مهلاً: اسم فعل بمعنى لا تعجل على أو أرفق بى، نافلة: عطية وهبة زائدة.
- (3) الواشى: الذى يسعى بالوقعة بين الناس، أو الذى يزوق الكلام.
- (4) وروى: أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل.
- (5) روى: لظل ترعد من وجد بوارده. والبوادر: اللحم الذى بين العنق والكتف.
- (6) روى: وثوب الليل مسبول. أى مسدل طويل مرخى.
- (7) روى: حتى وضعت يمينى ما أنا زاعه: ونقمت مفردها نقمة وهو الغضب الشديد.
- (8) روى: لذلك أهيب عندى إذ أحكمه.

فقال للنبي ﷺ: لا تعجل على وارفق بى، فقد أنزل الله تعالى عليك نوراً مبيناً مفصلاً تعظ به وترشد إلى الحق، وهذا البيت يستعطف فيه النبي ﷺ، ويطلب الرفق به والأناة فى أمره، ويدعو الله تعالى له بالهدى الذى يقتضى الصبر عليه، واعترف بما فى القرآن الكريم من هدى ومواعظ وبيان للناس، وهذا دليل على صدق رغبته فى الإسلام واقتناعه به.

وسمى القرآن الكريم نافلة أى زيادة فى الفضل والإحسان، فقد أعطاه الله تعالى فضلاً عظيماً وزاده فضلاً بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [الأنعام: ١٥٤] أى زيادة على العلم الذى أحسنه وأتقنه^(١).

وفى القرآن الكريم تفصيل لكل شيء، فيبين للإسان ما يحتاجه من أمرى المعاش والمعاد.

وتضرع كعب إليه فقال: لا تعاقبنى بما سعى به الناس إليك عنى أننى ذكرتكَ بسوء، فلا تستبح دمي بأقوال من يزوق الكلام ويزيد فيه قصداً للإفساد، ولم أرتكب ذنباً، ولم أفعَل ما ادعوه، فلا تعتد بقولهم وإن كثرت فى الأقوال.

وقد صرت فى موقف صعب أمامك لما أنا فيه ضيق واتهام، فإنى فى موقف لا يقدر عليه من له قوة، فالفيل الذى عرف بالقوة لا يقدر على تحمله، فلو كان فى موقعى هذا لأصابه هلع شديد ورعده حتى يصفح رسول الله ﷺ ويرضى فيسكن.

وقد قطعت طريقاً صعباً طمعاً فى عفوه وقد جئت مباعياً معاهداً عهداً لا إقالة، فقد وضعت يمينى فى يمينه وضع طاعة وهو أشده هيبة وتوقيراً فى قلبى وأنا أكلمه، وقد قيل لى إنك مسئول عما فعلت، وروى: "لذاك أهيب عندى إذ أكلمه"، وقد أعرب عن مقصده الحقيقى الذى مهد له بما سبق من الغزل والوصف والمدح، فقد ذكر أنه قطع الرحلة الطويلة إلى النبي ﷺ وليس إلى سعاد، وأن الناقة الفتية القوية قطعت رحلتها الشاقة مسرعة دون توقف ليصل بها إلى النبي ﷺ.

وانتقل من الاعتذار إلى مدح الرسول ﷺ بالشجاعة فقال:

(1) ارجع إلى شرح قصيدة كعب ص ٢٧٣.

من ضيَعَمَ بضراء الأرض مخدرةً في بطن عثَرٍ غيلٌ دونه غيلٌ^(١)

يغدو فيلحمُ ضِرْغامينَ عيشُهُما لحمٌ من الناسِ مَعْفُورُ خراديلٍ^(٢)

إذا يساور قرناً لا يحلُّ لـه أن يترك القرن إلا وهو مَقُولٌ^(٣)

منه تظلُّ سِباعُ الجو نافرةً ولا تَمْشَى بواديه الأراجيلُ^(٤)

ولا يزال بواديه أخو ثقةٍ مَضْرَجُ البرِّ والدَّرسانِ مأكُولٌ^(٥)

يمدح النبي ﷺ، فيقول فيه إنه أسد من أسود الأرض يعيش بوادى الأسود فى مأمن من حوله أشجار من دونها أشجار، يقبل أول اليوم فيطعم شبليه لحماً يريد أنه يقتل أعداءه، فيتركهم مجندين فى التراب، بعد أن اشتفى منهم، وتظل سباع الأرض نافرة خائفة لا تهدأ ولا تأمن كره عليهم، ولا يمشون بأرضه خشية منه، يصف النبي ﷺ بأنه مثل الأسد الذى تخافه السباع، والأسود ساكنة من هيئته ولا يمشى أحد بواديه.

وهو بأرضه واثق بنفسه لا يخشى أحداً، وهو مخضب بالدماء وقد مزق عدوه وترك ثيابهم ممزقة، وهذا تشبيهه بليغ، ثم مدح الرسول ﷺ مدحاً خاصاً لم يسبق إليه شعراء الجاهلية، فالرسول ﷺ نور يستضيء به الناس، ويرشدون به إلى الصواب والحق، فقد أخرج الله تعالى به الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان. قال:

إن الرسول لنور يستضاء به مَهْدٌ من سيوف الله مسلول

يعد هذا البيت أشهر بيت فى قصيدة كعب، بل يعد من عيون الشعر ومن الأبيات السيارة، ويدخل فى روائع المدائح النادرة لما جمع فيه من إيجاز اللفظ وحسن التشبيه

(1) روى: من خادر من ليوث الأرض مسكنه: من بطن ... الضغيم: الأسد، الخادر: الداخل فى الخدر، وهو الأجمة التى يسكنها الأسد، وضراء الأرض: ما وراء الشجر، ومخدر الأسد، غابته التى يسكنها، وعثر: مكان تكثر به الأسود. والغيل: الأجمة.

(2) يغدو: يذهب أول النهار، يلحم: يطعم لحماً. الضرغام: الأسد، يريد بهما أسدين من أشباله. معفور: ممرغ فى العفر، الخراديل: القطع.

(3) يساور: يواثق، القرن: المثل الذى يقاومه فى الشجاعة، مغول: أثر فيه، ويروى: مجدول: مطرح فى الجدالة (الأرض).

(4) الجو: اسم موضع، أو البر الواسع، نافرة: خائفة هائجة، ويروى: ضامرة، والأراجيل: الجماعات من الرجال.

(5) الوادى: المكان الذى فيه، مضرج: مخضب بالدماء، اليز: السلاح، الدرسان: الثوب الخرق البالى، وأخو ثقة: تعبير يدل على الثقة فى النفس والثبات.

وقوة المعنى، وهذا المعنى لم يسبق إليه فى الجاهلية بل يعد من ابتكار كعب، وجاءت فيه روايات منها: "إن الرسول لسيف يستضاء به"، وروى أن كعباً قال: مهند من سيوف الهند مسلول، فقال النبى ﷺ موجهاً: "من سيوف الله". والله أعلم.

ومعناه إن الرسول ﷺ إمام هدى ونور للعالمين، يرشد الناس إلى الحق، وهو سيف مسلول على أعداء الله فلا يرد سيفه فى غمده حتى يدين الناس بدين الله تعالى، وهذا السيف من أجود أنواع السيوف فهو مُهَنْدٌ أى هندى حاد قاطع، بتار شديد اللمعان، وروى: إن الرسول لسيف يستضاء به" يريد: يُهْتَدَى به إلى الحق، والسيف الهندى شديد اللمعان لما يعكسه من الضوء، فشبه به النبى ﷺ وهو تشبيه بليغ مؤكد، وهذا النبى العظيم فى صفوة من خيار قريش، نصره وهاجروا معه وقتلوا معه الكفار. قال:

فى عَصْبَةٍ مِنْ قَرِيشٍ قَالَ قَاتِلُهُمْ	بِطَن مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا: زَلُّوا ^(١)
زَلُّوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسُ وَلَا كُشْفُ	عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلُ مَعَاذِيلُ ^(٢)
شَمُّ الْعَرَانِينَ أَبْطَالُ لُبُوسُهُمْ	مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ ^(٣)
بَيْضُ سَوَابِغٍ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقُ	كَأَنَّهَا حَلَقُ الْقَفْعَاءِ مَجْدُولُ ^(٤)
لَيْسُوا مَفَارِيحٍ إِنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمْ	قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِيعًا إِذَا نِيلُوا ^(٥)

(1) عصبية: جماعة، يريد المهاجرين، وروى فى فتية" زلوا: تحولوا من مكان إلى آخر، يريد أن كفار مكة ضيقوا عليهم فهاجروا من مكة فراراً بدينهم.

(2) أنكاس: جمع نكس، وهو الرجل الضعيف، يريد: ليسوا بضغفاء. كشف: جمع أكشف: من لا ترس معه فى الحرب، والميل: جمع أميل: لا يسقطون عن الخيل، ولا يهربون من لقاء العدو، والمعازيل: جمع معزال: من لا سلاح معه، فهو أعزل من السلاح. يريد أنهم فى عدة الحرب، فلا يضعفون ولا يجبنون، ولا يميلون عن لقاء العدو، وليس بمعازيل من السلاح.

(3) شم: جمع أشم، وهو الذى يشمخ بأنفه كبيراً، والعرائين: جمع عرنين، وهو الأنثى، أى هم أعزة أبطال، لبوسهم من نسج داود: كناية عن الدروع، وهو مشهور بصناعة الدروع وضرب به المثل فى ذلك، الهيجا: الحرب، وأصله الهيجاء، فقصره للضرورة الشعرية، والسراويل: جمع سراويل: وهو ما يرتديه المحارب.

(4) بيض: جمع أبيض، سوابغ: جمع سابغ، أى كاس طويل، يصف السراويل بأنها بيض طويلة، شُكَّتْ: انسجت أو أدخل بعضها فى بعض، حَلَقُ: جمع حَلَقَة، والقفاء: نبات منبسط متشابك يشبه حلق الدروع. ومجدول: محكم الصنعة، أو أدخل بعضه فى بعض بإحكام.

(5) مفاريح: مفردها مفراح، مجازيع: مفردها مجزاع، وهو مبالغة فى الفرح وشدة الجزع، نيلوا: أصابهم عدوهم. يريد أنهم لا يسرفون على أنفسهم فى الفرح بالنصر، ولا يجزعون من الهزيمة.

يَمْشُونَ مَشَى الْجَمَالِ الزُّهْرُ يَعْصُمُهُمْ ضَرْبُ إِذَا عَرَدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ^(١)
لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ وَمَالَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ^(٢)

المعنى: إن الرسول ﷺ نور يهتدى به، يجاهد الكفار في جماعة متماسكة قوية من قريش، وروى "في فتية من قريش" وعصبة: جماعة من الناس مابين العشرة والأربعين، وقد ثبتوا معه على الإيمان، فاضطهدهم المشركون فهاجروا بدينهم، وثبتوا مع النبي ﷺ في دار الهجرة وجاهدوا معه، وهم أهل شجاعة وإقدام.

ولا يميلون عن لقاء العدو خشية وليسوا بعزل من السلاح فلا يفرون، فهم أقوىاء ذو سلاح وفرسان عند اللقاء، وهم أصحاب مجد وسيادة وكرم أبطال، وشجعان ويخوضون الحروب الضارية لا يخشون الطعان ودروعهم محكمة سابغة تحميهم، ومتسربلون بها جيداً، وكأنها لإحكامها وقوتها من صنعة داود عليه السلام، ويضرب به المثل في إجادة صنع الدروع، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لَتَحْصِنَكُم مِّنْ بِأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وهذه السراويل المسدلة عليهم (الدروع) بيض جلوة صافية طوال، شكت أدخل بعضها في بعض، وسمرت، وقد نسجت من حلق، أو حلق أدخلت في بعضها بعضاً، وجدلت كأنها مثل شجر الققاء، وهو شجر ينبسط على الأرض متشابك يشبه حلق الدروع.

وإذا ظفروا بعدوهم، لم يظهر عليهم الفرع، وإذا ظهر عليهم عدوهم لم يجزعوا فهم شجعان وأصحاب همم وأشداء صبر في الحرب ولا يعبأون بالخطوب، وليس ذلك منهم بأول فعل ولا هو بمستنكر، فهم صبروا وإذا نكبوا لا يجزعون. وهم يمشون مشى الجمال البيض، يحميهم من أعدائهم ضرب شديد ويكفهم إذا هرب السود القصار وأعرضوا.

وقد شبههم بالجمال في المشي، وهو يريد امتداد قامتهم وعظم خلقهم، وأراد بـ"ضرب" نكرة للتهويل. وأراد بوصف "الزهر" أنهم بيض أي سادات لا عبيد وعرب لا أعراب، وقيل إنه أراد بالسود التنابيل الأتصار يعرض بهم، لأنهم أرادوا قتله، وعردوا:

(1) الزُّهْرُ: جمع أزهر: أبيض، عرد: هرب من القتال وفر، السود التنابيل: السود القصار، يهجو الجبناء الذين لا يثبتون للعدو، ومفرد تنابيل: تنبال: القصير.

(2) الطعن: الضرب بالحربة والخنجر، نحور: موضع الذبح في العنق، حياض: جمع حوض، يريد ميدان الحرب، تهليل: فرار يرى أنهم لا ينهزمون فيقع الطعن في ظهورهم، بل يقتلون وهم يقبلون على الموت، وروى أن النبي ﷺ أشار إلى من حوله عندما سمع هذا البيت أن اسمعوا، لإعجابه به.

هربوا وفرّوا وتركوا القتال منهزمين، والتنايل واحدا تنال وهو القصير. ولا يقتلون من ظهورهم، فهم لا يولون الدبر بل يقطع الطعن في نحورهم، وهم يتقدمون إلى أعدائهم، ولا يتأخرون عن حياض الموت إذا تأخر غيرهم عنها ونكص. يريد أن يصفهم بالشجاعة والإقدام وأنهم لا ينهزمون ولا يخشون الموت، فلا يرون له بديلاً فهم طلاب الشهادة.

فلا يفرون ولا ينهزمون فيقع الطعن في أدبارهم بل هم يواجهون القتال، فيقع الطعن في نحورهم، واختار النحر؛ لأنه موضع الطعن في الجمال.

وقد اختص المهاجرين بالمدح دون الأنصار لما ذكرناه سابقاً أنهم اشتدوا عليهم عندما عرفوه وهموا به، فحمل في نفسه فلم يذكرهم، وحمل الموضعين اللذين ذكرناهما على أنهما تعريض بالأنصار، وهو مذهب بعض الشارحين، ولهما وجه آخر من المعنى قد بيناه. وبعد، فقد شاكلت هذه القصيدة قصائد الجاهلية في الشكل، فقد بدأ الشاعر بمقدمة بكائية شكا فيها فراق الحبيبة "سعاد" وإخلافها الوعد، ونزولها بأرض بعيدة وعرة ذات تضاريس غير مستوية، والسفر إليها شاق، ووصف الشاعر وسيلة المواصلات "الناقة"، وهي الوسيلة الوحيدة التي تصلح للسفر في الصحراء القاسية وعرفت بسفينة الصحراء، وقد أطل الشاعر في وصف الناقة وعزّ مكانتها، واستطرد في وصف صفاتها المتعددة وما يميزها، وانتهى من وصفه أنها فريدة النوع نسيج وحدها، وقد أكثر القول فيها والإعجاب بها، أكثر مما ذكر به الحبيبة التي وصف صفاتها الذميمة فقط، ولم يذكر شيئاً عن محاسنها، بل تغزل في الناقة فوصف رأسها وعنقها وذراعيها الأماميتين ثم الأرجل معاً، والجسم الذي وصفه بالاكتناز والملاسة والصلابة، ووصف سيرها وحركتها وشدتها، وحسن هيئتها، وهذا الوصف من الممكن أن يحمل على ما كان يصف به الحبيب حبيبته في تغزله بها، فكان ناقة كعب امرأة طويلة القامة معتدلة غضة طويلة العنق فتية ذات سيقان طويلة مكتنزة، وهذا يشعرك أنه ترك التغزل في المرأة وجعل الناقة بديلاً لها حياء من النبي ﷺ وصحبه، وليساق بين المقدمة وبين الاعتذار والمدح، فذكر جمال المرأة ووضعها وتعلقه بها لا يناسب غرض الشاعر الرئيس، وهو الاعتذار، وقد أسرف الشاعر في الحديث عن رحلة السفر المزعومة إلى الحبيبة والناقة التي ستحملة إليها، بيد أنه بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة التي أسرف في وصفها ليست إلا نسج الخيال، فالرجل — على ما فهم من ظروف إنتاج القصيدة — قالها وهو قادم في الطريق إلى النبي ﷺ.

وهذا يشير من بعيد إلى أن المقدمة ليست هدفاً للشاعر بل تقليداً شعرياً سار عليه سابقوه من الشعراء؛ فالشاعر على طول مقدمته لم يذكر لنا نتيجة هذه الرحلة الشاقة إلى

الحبيبة، وهي رحلة في الخيال البشري سيح فيه الشاعر وطوف، وتحول تحولاً مفاجئاً في رحلة السفر؛ فقد فاجأنا بأنه وصل بهذه الناقّة المتميزة إلى النبي ﷺ، فسعاد ليست حقيقة بل رمزاً لما أحقق فيه من قبل، فقد انعكس إخفاق الشاعر وشعوره بالهزيمة على مقدمة القصيدة، فالأصدقاء تركوه وحيداً وانشغلوا عنه، وشمّت به بعضهم وخوفوه، وقد كان يحبهم ويتقّ فيهم، وفي لهم بوعده، ولكنهم خذلوه مثل سعاد تماماً التي أخلفت وكذبت، وسيطر عليه الحزن في المقدمة والألم، واستلذ رحلة الألم التي قطعها ليصل إلى اليقين، ولم يشتك الألم الذي عاناه، بل اشتكى حال الناقّة وما داهمها من ظروف قاسية، يريد حال نفسه، فالناقّة ليست وحدها التي واجهت الرحلة الشاقّة فقد كان في صحبتها، ولم تك هذه الرحلة الشاقّة للوصول إلى الحبيب المذكور، في أول القصيدة، بل إلى حبيب آخر أعز عليه وأكرم من تلك التي منت وأخلفت، ولعله كان يرمز للحبيبة إلى الحياة التي عاشها، ولعله كان يرمز للناقّة إلى نفسه التي كابدت الصعاب وعاشت محنة الاغتراب والوحدة.

وقد عظم من شأن الناقّة التي حملته في هذه الرحلة الشاقّة، وامتدحها، لأنها وصلت به إلى الحقيقة التي كان يبحث عنها، فقد ضاقت به نفسه ولم يجد لنفسه نجاه في الأرض، فلن يفر من نهايته، وقد أيقن أن الإيمان هو الحقيقة التي بحث عنها في الصحراء الممتدة، وقد كان لديه عزم وإصرار؛ ليصل إليه، وقد رمز إلى ذلك في حديثه عن ضراوة الحر وشدته في القيلولة أو الهجرة، وقسوة السير في الأرض الساخنة والحجارة، ورمز إليه بعدو الناقّة وسرعتها ونفيها الرمال من خلفها لسرعتها وعجلتها لتصل إلى هدفها وعدم توقفها للراحة و في القيلولة عندما قُلت الحيوانات لتحتمي من الحر، لكنها سارعت الزمن لئلا يفوتها الهدف التي شقيت لأجله وكابدت في الوصول إليه، ولم تعبأ بالعثرات.

وتعرض الشاعر لمحنة قاسية فقد ابتلى برفاق خوفوه العقاب، وهؤلاء الرفاق سعوا بجانب الناقّة، فهو لم ينزل عنها بعد، وقد صدم بجفوة رفاقه الذين لم يحتفوا بقدمه، بل خذلوه وخوفوه وانصرفوا عنه فصار وحيداً، ولم يك هذا متوقعاً بعد هذه الرحلة الشاقّة.

لكنه لم يعبأ بموقفهم حياله وصدهم إياه، فانتفض (ثائراً) دعوني، ولم يلتفت إلى شيء مما قالوا، فقد أصبح على يقين صادق بما هو عليه، فقد آمن بقدر الرحمن "فكل ما قدر الرحمن مفعول" وإيمانه بالرحمن جعله يؤمن بقدره في النهاية التي سيلقاها، وهذا يقين المؤمن الصادق، واختار من صفات الله تعالى "الرحمن" طمعاً في رحمته بعد أن ضاقت به الأرض، وفقد الصديق. ودخل على رسول الله ﷺ، وهو المقصود من الرحلة التي أعد لها ناقّة فتية حملته إليه، وأعلن اعترافه بأنه رسول، وخاطب الغائب تعظيماً "هو" و"رسول

الله" ولم يقل "محمدًا" على ما خاطبه به مشركو العرب، وذكر عفوه ليستعطفه، وهو ما أرسل به إليه أخوه بجير رضى الله عنه. وتحول من حديث الغائب إلى الحاضر ملتفتًا إليه داعيًا له، فخاطبه:

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ قرآن فيها مواعيط وتفصيل

يطلبه من أن يتمهل عليه وألا يعجل به، ليعرض عليه أمره، فذكر من شأن الوشاة ما ذكر ، والوشاة لهم شخصية ذات حضور في الشعر ، فلم دور في موضوع الاعتذار، وقد قال النابغة الذبياني معتذراً :

لئن كنت قد بلغت عني خيانة لمبلغك الواشي أعش وأكذب
وقال كعب :

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت عني الأقاويل

ثم ذكر له شدة ما يعانيه من شدة الموقف وثقله عليه، وأعلن بيعته، وأخذ على نفسه العهد وفاء له ثم مدحه ﷺ ومدح أرومته، وشبهه بالأسد الذي يقيم في مكان منيع، وقد عز في أصحابه، وأشبع من حوله، وفاض طعامهم، وزاد حاجتهم إليه، وأصبحت الغلبة للنبي ﷺ ولأصحابه، وهابته العرب وبادرت بمصالحته والدخول في طاعته. ثم التفت إلى بطانته الصالحة ورجاله الأفاض الذين خاض بهم المعارك، وليس لهم مطلب إلا الموت دونه، وهم رجال أشداء على الكفار رحماء بينهم.

وتجاهل كعب رضى الله عنه شطراً عظيماً من أصحابه ﷺ، وهم الأنصار في منزلة بعد المهاجرين ولهم بلاؤهم في الإسلام، فقد نصرُوا الإسلام وبذلوا المال والنفس فيه، ويحبون من هاجر إليهم ويكرمونه، وقد تركهم كعب لشيء في نفسه، ولكن رسول الله ﷺ والمهاجرين أبوا أن يخصهم بمدح دون إخوانهم الأنصار، فألقى ما في نفسه حباً لله ولرسوله ﷺ ومدحهم.

واللغة التي استخدمها كعب هي نفسها لغة شعراء الجاهلية، ولكنه لم يستخدم لغة جبلية وعرة فيها تكلف وغرابة بل شابته لغة الحضرة، وفيها اختيار ودقة، وذلك في المقدمة، ولكنه في مديحه استخدم مفردات إسلامية ذات دلالة جديدة مثل: رسول الله، سيف الله، الإسلام.

وقد كان العرب يطلقون على المسلمين الصابئين من صبا أي: ترك دينه ودان بآخر، وكان قوم غزاهم خالد بن الوليد، فلا يحسنون أن يقولوا أسلمنا، فيقولوا صبا، يريدون أسلمنا. ومثل العفو، القرآن، نافلة، وهي الزيادة عما أوجبه الله تعالى، واستخدمها كعب

بمعنى الزيادة في العطاء كرمًا وسخاءً عليهم أو زيادة في الفضل، والهدى، والموعظة،
التفصيل (يريد : التبيين) "الذنب"، "إذن الله".

ولم يتأثر كعب في قصيدة بالقرآن الكريم إلا في الألفاظ التي ذكرناها، ولم يتأثر بأسلوبه
تأثر حسان رضى الله عنه؛ لأنه حديث عهد بالإسلام، وليس لديه رصيد كاف من القرآن
يتأثر به أسلوبًا ولفظًا، وليس هناك مضامين إسلامية كثيرة لعدم علمه بها، لكنه في
قصائده التي تلتها تأثر بالقرآن الكريم وحديث النبي ﷺ.

وقد وقع في القصيدة بعض التشبيهات غير المتكلفة، وكلها مقتبسة من البيئة ومنها :
تشبيه ماء الأسنان (اللعاب) بماء الوادي فيه رمل وحصى صغار وذلك في الصفاء.
وشبه صوت سعاد بصوت الطفل الذي يلهج بغنة من طرف أنفه، وذلك لبعد المسافة فلم
يميز كلامها، والغنة : أن يشرب الحرف صوت الخيشوم، وقد شبهها بالطفل في صوته
وفتور طرفه.

وشبه اختلاف حال سعاد (يريد اضطراب مزاجها وشخصيتها) بتلون الغول، وكان
العرب يهولون من أمر الغول، ويشبهون عدم الوفاء بالوعد والعهد وتبديد الوصل
بالغرابيل التي لا تمسك الماء، وشبهها في الإخلاف بعرقوب، وهو رجل ضرب به المثل في
الإخلاف، قال علقمة الأشجعي: (١)

وعدت وكان الخُلفُ منك سجيةً مواعيد عرقوب أخاه يثيربِ

وشبه رأس الناقة بالحجارة، التي لها طول أو بالمعول، وذلك في إشارته إلى عظم
رأسها، وشبهها في السرعة بمرور عسيب النخل. وشبه جلد الحرباء الذي سودته
الحرارة، بالجلد المحترق. وشبه حركة الناقة السريعة بيدي المرأة التي فقدت ولدها ومن
حولها نساء يجاوبنها وهي تضرب وجهها وصدر بيدها وتخمش وجهها.

وشبه شدة الموقف عليه وتأثره به وهو أمام رسول الله ﷺ أنه أصبح في قوة إسماع الفيل
لأثر القول في نفسه، وكاتوا يتوهمون أن الفيل أسمع الأشياء، وأقواها، قال ليبيد: (٢)

لو يقوم الفيلُ أوقياً له زلَّ عن مثلٍ مقامي وزحل

توهم ليبيد أيضاً أن فيل الفيل "مدربة" أشد الأشياء لما له من قدرة على سياسة الفيل،
وتصرفه. وشبه رسول الله ﷺ بالأسد في الشجاعة، وذلك في مكمته بين الأسد وبوادي

(1) شرح قصيدة كعب ص ١٥٩.

(2) شرح ديوان كعب ص ٢٠.

الأسد، وبيته من دونه بيت فهو آمن، وشبهه أيضاً بالسيف الهندي في القوة واللمعان لما في حد السيف من لمعان، وشبه الدروع بنبات القفعاء المجدول. وهو نبات له ورق وثمر، فشبه حلق الدروع وتداخلها في بعضها، بحلق القفعاء المتداخلة وهو نبات أرضي كأن حبه حلق الدروع، وقد جدلت أي أدبرت وفتلت، ودخل بعضها في بعضه.

وشبه المهاجرين في مشيهم إلى العدو بالجمال الزهر (البيض)، وهم يرتدون الدروع، وروى: "مشى الجمال الجرب"؛ لأن الجمل الأجرب يطلي بالقطران، فشبههم والدروع عليهم بالجمال الجرب، وهذا بعيد والأولى أحسن. وجاءت الصور قليلة، ومنها أن جعل من صداقة سعاد دماء خلطت بالفجع والإخلاف والتبديل، وجعل اللبان (صدر الناقة) يزلق القراد، والقراد هو الفاعل، وجعل السراب يتلفح بالقور. والضرب يعصم المهاجرين من الموت، وقد فر عنهم السود القصار وتركوهم في مواجهة الموت. وهي تشبيهات وصور من البيئة التي عاش فيها الشاعر، وهي بيئة بدوية صحراوية، وليس فيها تكلف أو تعقيد.

وبعض المحدثين يرون أن كعباً أنشأ قصيدته رجاء في النجاء من القتل، وليست عن عاطفة دينية، واستدلوا لذلك بما روى عن سبب قيلها وما وقع بين كعب وأخيه بجير رضى الله عنهما، وأنه غاضبه، فهم يرون أنها قيلت اعتذاراً، ومدح النبي ﷺ؛ لأنه خشى عقابه، قال الدكتور مبارك: "وقد نظرت طويلاً في هذه القصيدة فلم أر غير ما قررت، [وهو ما ذكرناه سابقاً] فهي قصيدة جاهلية تغلب عليها قوة السبك، ولكنها تخلو من روح الدين، ولا غرابة في ذلك. فإن كعب بن زهير لم يمدح الرسول إلا لينجو من الموت، ومن كان في مثل حاله لا ينتظر منه صدق الثناء".^(١) وأقول: كيف عرف أنه غير صادق، وأنه قالها خوفاً وليست عن عاطفة صادقة، والرجل آمن، وحسن إسلامه؟! وماذا كان ينتظر من رجل لا يعرف عن الإسلام إلا قليلاً ولم يسلم بعد ولما يدخل الإيمان في قلبه؟ وكيف لا يكون صادقاً في اعتذاره ومدحه، وقد بلغت هذه القصيدة من الشهرة ما بلغت، وتعد الأبيات التي مدح فيها رسول الله ﷺ من عيون المدح ودرره في التراث العربي؟!

وقد ناقض الدكتور مبارك نفسه، فقد قال: "والذين نقول به في هذه القصيدة لم يقل به أحد من المتقدمين، فقد اهتموا بها اهتماماً عظيماً، وعدوها من أجمل ما قيل في مدح الرسول، وعنى بها الشعراء فشطروها وخمسوها وعارضوها، وأولع بشرحها فريق من كبار الرجال". وذكر رجلاً فحولاً، وأشهرهم ابن هشام الأنصاري النحوي، والسيوطي،

(1) المدائح النبوية، زكي مبارك، ص ٢٤، ٢٥.

ومحمد حسن المرصفي، وممن عارضها من الشعراء ابن نباتة المصري، ولم تنزل الشعراء ينسجون على منوالها إعجاباً بها.

وقد اهتم بها المستشرقون حديثاً، فترجموها إلى لغتهم، ولها مكانة خاصة بين الصوفية فهي عندهم في درجة بردة البوصيري الذي تأثر بها أيضاً، وعكف عليها الدارسون حديثاً ونالت اهتماماً عظيماً منهم، وقد أغرتني ببحثها فأعطيته من البحث والعناية ما لم أعطه غيرها، ولو لم يك لكعب غيرها في مقدمة الشعراء الفحول، ولكفته وحدها، وقد عُرف كعب بها مثلما عرف سيبويه بكتابه، بيد أن الدكتور مبارك على ما ذكر من شهرتها وإعجاب رجال الأدب واللغة والنحو، والمتصوفة بها، فإنه قال فيها ما لم يقل به أحد، وليس قوله قائماً على حجة بل اعتقاد شخصي وظن في عاطفة الشاعر وصدقه، وهو يذكر عنها أن الشعراء ولعوا بها، والباحثون والشرّاح، وتوارث المسلمون احترامها.

وإجماع هؤلاء عليها لا يرضيه، ولا يزيل عنه ظنه بالرجل الذي لم يطلع على ما في قلبه، وقال: "ولولا ما في ألفاظها من الوعورة لشاعت في البيئات الصوفية، وأصبحت من حملة الأوراد، وكان لها ما صار للبردة من السيرة بين العوام والخواص".^(١) والرجل لم يكن متصوفاً ولم ينشأ التصوف في عصره، فهو لاحق عليه، واللغة التي استخدمها الشاعر هي لغة الشاعر نفسه وهي لغة مدرسة زهير، وهي اللغة التي استخدمها شعراء عاشوا بين البادية والحضر، وليست غريبة كاللغة التي بدأ بها طرفة معلقته والتي وصف بها ناقته "لخولة أطلال ببرقة ثمهد"، وقد استخدم لغة بدوية تحتاج معجماً لغوياً، وفيها من الوعورة ما فيها.

وقد عاب بعض الباحثين على كعب مطلع القصيدة الذي أطل فيه، ووصفه المطول للناقّة، الذي يعد من الأشياء المحلية التي تتعلق بالبادية ولا يتذوقها إلا الأعراب، وأقول إن إطالة الشاعر في المقدمة كانت عرفاً أو تقليداً. وهذه المقدمة تشبه غيرها من المقدمات التي توجت بها المعلقات وكثير من أشعار الجاهلية وظلت تقليداً في الإسلام. وقد ذكرنا أسباب الإطالة فيها، وهذه المقدمة التي نقدها المحدثون نالت اهتمام رجال الأدب واللغة، ويتبين مما ذكره الدكتور زكي مبارك أنه كان يقارن بين مديح كعب والأعشى وحسان بمديح الصوفية الروحي الذي هاموا فيه، فأشبه الغزل، والمتغزل فيه رسول الله ﷺ، وهذه مقارنة غير عادلة، فليست هذه المدائح من هذا النوع ولم تظهر على عهدهم الصوفية،

وليسوا من رجالها، وهو اتجاه ظهر في الأدب متأثراً بالإسلام والنصرانية واليهودية
والفلسفة والثقافات الوافدة من فارس والهند واليونان، فالتصوف متعدد الروافد، وليس
التقشف والزهد الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والتابعون من هذا النوع المذهبي، وإن
كان التقشف والزهد من مناسك التصوف.

وليس لنا إلا أن نقول إن قصيدة كعب بن زهير رضى الله عنه من القصائد التي يفخر
بها الشعر العربي، وتعد معلماً بارزاً فيه، وتضاف إلى غيرها من الأعمال الأدبية الخالدة.

* * * * *

الفخر

الفخر جنس من المدح ، ولكنه موجه إلى الذات ما يتصل بها وما تنسب إليه كالعشيرة والقبيلة والمدينة والعصبة التي ينتمي إليها ، ويفخر بماله أو لقومه من فضائل، وقد ظهر هذا الفن في العصر الجاهلي على أيدي شعراء القبائل التي لها عز ومجد وكثرة العدد ، والشعراء من ذوي السيادة والمجد.

كانت النُّفُرةُ القبليةُ أعلى الأصوات في الفخر ، فقد كان العرب يتعصبون لقبائلهم تعصباً مغالياً ، فجعلوا القبيلة في منزلة الأب والأم والإله ، فلم يعرفوا نسبا ولا منتسباً سواها، وقد جسدت معلقة عمر بن كلثوم تطرف العرب في حب القبيلة.

وقد كانت الحمية القبلية سبباً في حروب كثيرة وعداوات ، وحالت دون قيام دولة جامعة وأحببت المحاولات التي قام بها بعض سادة العرب وملوكهم في إقامة دولة ولم تسكن العصبية القبلية إلا في عصر النبوة ، فقد جمع الله تعالى قبائل العرب المسلمة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وجمعت بينهم إخوة الدين ، لكنها رفعت رأسها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسكنها أبو بكر رضي الله عنه ، ثم عادت في خلافة عثمان رضي الله عنه ، ومازالت تطل برأسها بين الدول العربية.

وتحول الفخر من الفخر بأجداد القبيلة وحروبها وبطشها وظلمها إلى الفخر بالإسلام والجهاد فيه وحسن البلاء ، ونصرة النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين ، والكرم وحسن الخلق والشجاعة والإقدام قال حسان يفخر بقومه :

وَكُنَّا مَلُوكَ النَّاسِ ، قَبْلَ مُحَمَّدٍ	فلما أتى الإسلام، كان لنا الفضل ^(١)
وَأَكْرَمَنَا اللَّهُ الَّذِي لَيْسَ غَيْرُهُ	إلهٌ بأيامٍ مَضَتْ ما لها شَكْلٌ ^(٢)
بِنَصْرِ إِلَهِ النَّبِيِّ وَدِينِهِ	وَأَكْرَمَنَا بِاسْمِ مَضَى ما له مِثْلٌ ^(٣)
أَوْلَيْكَ قَوْمِي خَيْرُ قَوْمٍ بِأَسْرِهِمْ	وليسَ على معروفهم أبداً قُفْلٌ ^(٤)

(1) قوله كان لنا الفضل اذ آووا محمد وكانوا أنصاره وهذا فضل لا فضل بعده .

(2) قوله ما لها شكل أي ما لها مثل .

(3) وأكرمنا : أي لم يبخل علينا بمحبته .

(4) قوله وليس على معروفهم أبداً قفل يقول أن باب معروفهم مفتوح لكل عاف .

يَرَبُّونَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفٍ مِّنْ مَّضَى
 إِذَا اخْتَبَطُوا لَمْ يُفَحِّشُوا فِي نَدِيهِمْ
 وَحَامِلُهُمْ وَافٍ بِكُلِّ حِمَالَةٍ
 وَجَارُهُمْ فِيهِمْ بَعْلِيَاءَ بَيْتَةٍ
 وَقَاتِلُهُمْ بِالْحَقِّ أَوَّلُ قَائِلٍ
 إِذَا حَارَبُوا، أَوْ سَالَمُوا لَمْ يُشَبِّهُوا
 وَمِنَّا أَمِينُ الْمُسْلِمِينَ حَيَاتِهِ
 فَمَا عُدَّ مِنْ خَيْرٍ ، فَقَوْمِي لَهُ أَهْلٌ^(١)
 وَلَيْسَ عَلَى سُؤَالِهِمْ عِنْدَهُمْ بُخْلٌ^(٢)
 تَحَمَّلَ ، لَا غُرْمَ عَلَيْهِ وَلَا خَدْلٌ^(٣)
 لَهُ مَا ثَوَىٰ فِينَا الْكَرَامَةُ الْبَذْلُ^(٤)
 فَحَكْمُهُمْ عَدْلٌ ، وَقَوْلُهُمْ فَصْلٌ^(٥)
 فَحَرْبُهُمْ خَوْفٌ ، وَسَلْمُهُمْ سَهْلٌ^(٦)
 وَمَنْ غَسَلَتْهُ مِنْ جَنَابَتِهِ الرَّسُلُ^(٧)

كانت للأتصار مآثر في الجاهلية فاضلوا فيها الناس ووصلها حسان بمالهم من فضائل في الإسلام ، وافتخر برجلين من الأتصار هما سعد بن معاذ وحنظلة بن أبي عامر رضي الله عنهما . وقال حسان مفتخرا بيوم بدر ومعيرا قريشاً^(٨) :

فينا الرسول وفينا الحق نتبعه
 مستعصمين بحبل غير منجذم
 حتى الممات ونصر غير محدود
 مستحکم من حبال الله ممدود

وقد كان للأتصار دورهم في بدر وما بعدها ، فقد تكثر بهم المهاجرون ، وقد أعلنوا قبل بدر أنهم يؤيدون الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسيكون معه على عدوه ، وسلموه مقادة أمرهم ، وبايعوه على الجهاد ، وخاضوا حرب بدر من أجل المهاجرين ، فلم تك لهم مواجهات مع قريش ، وقد سجل حسان رضي الله عنه الوقائع وما بها من أحداث ، وذكر بعض قتلى المشركين في بعضها وتأكيدا لقوله ، وقد خص الأتصار بالنصر في المعركة ، وكأن الصراع كان بين قبيلتين ، فمازالت للقبليّة أثر في نفسه ، فذكر الأوس والخزرج في بعض قصائده وقد ذكرهما ليجعلهما نموذجا يقتدى به في الإسلام ، فقد رفع منهما في شعر ونسب النصر لهما مرارا ليباهي بهما العرب ، ويخص من بين الأتصار عشيرته بني النجار ، وهم أحوال النبي صلى الله عليه وسلم .

(1) يربون : يبنون . من مضى : من أسلافهم .

(2) اختبطوا : قصدوا . الندي : المجلس .

(3) الحمالة : ما يتحملة الإنسان من غرم في دية .

(4) العلياء : الموضع المرتفع وقوله ما ثوى فينا : أي مدة إقامته بيننا .

(5) يقولون الحق ويحكمون بالعدل .

(6) لم يشبهوا : أي لا يشبههم أحد .

(7) أمين المسلمين : سعد بن معاذ الأوسي . غسل الملائكة : حنظلة بن أبي عامر الذي قتل في يوم أحد .

(8) الديوان ص ٥٥ .

وقال حسان رضي الله عنه في هزيمة قريش ببدر وضحاياها يفخر بقومه:

بنو الأوس الغطاريف وأزرتها	بنو النجار في الدين الصليب
فغادرنا أبا جهل صريعاً	وعتبه قد تركنا بالحبوب
وشيبة قد تركنا في رجال	ذوي نسب إذا نسبوا حسيب
يناديهم رسول الله لما	قذفناهم كباكب في القليب
ألم تجدوا كلامي كان حقاً	وأمر الله يأخذ بالقلوب
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا	صدقت وكنت ذا رأي مصيب

وقد منيت قريش بخسائر جسيمة صار للإسلام شأن بين العرب ، وظهر كقوة عسكرية جعلتهم يحفظون حرمة المسلمين ويتوددون إلى نبي الإسلام ويبادون إلى مصالحته. وكان للمصير الذي انتهى إليه كبار الملأ من قريش أثر في نفوس المشركين، فقد كان القليب (البئر) مصيرهم المفجع الذي تألموا منه كثيرا ، وقد أورثهم هذا شتانا وغلا ، فأعدوا العدة لثأر من المسلمين ، فكان يوم أحد الذي أصيب فيه المسلمون ، ولكن لم تك مصيبتهم فيه كمصيبة المشركين يوم بدر .

لقد طور حسان رضي الله عنه الفخر في الإسلام؛ فحولته من الحمية القبيلية والدعاء بدعواهم إلى الحمية الدينية والولالية في الإسلام والإخوة الدينية ، ولم يك ذكر القبيلة في شعر حسان من دعو الجاهلية أو عصبية بل كان من قبيل ذكر فضائلها في الدين وبلاتها ، لتكون نموذجا يحتذى به ، وقد ترك حسان في فخره عداوات الجاهلية فلم يذكر شيئا في فخره مما كان لقومه على الأوس في الجاهلية أو على غيرهم ، فقد كانت هناك دماء بين الأوس والخزرج - قبيلة حسان - قبيل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لحسان فيها شعر يهاجي فيه الأوس وشاعرها قيس بن الخطيم ، ولم يعير أحدا من المسلمين بمذمه في جاهلية ولا إسلام.

وقد تطور عن الفخر المفاخرة، وهي أن يفاخر الشاعر بشعره شاعرا آخر أو يفاخر الخطيب خطيباً آخر، فيذكر ما لقومه وذلك في ملأ من شيعتهما .

وقد كان فن المفاخرة أو المنافرة شائعا في الجاهلية ، فقد كان بعض سادة القبائل يتنازعون الرياسة فيها ، فيقضى بينهم حكم ، أو أن تقوم مخاصمة بين سيدين من العرب ، فيستدعي كل واحد منهم من يشايعه من الشعراء ، فيمدح الشاعر صاحبه وماله من فضل ويعرض بالآخر ، وذلك في حضرة العشيرة أو رجال منها ، فتتشأ الخصومات ، وقد تقوم الحروب وتدوم طويلا ، يستدعي الطرفان حكما "أو محكما"، وكانوا يبذلون في ذلك عطايا وذبائح ، وقد يتحملها الحكم ليصلح بين الطرفين ، ويراعي في حكومته (قضائه) أن

يحقق التراضي بينهما والنصفة ، ولا ينصر أحدهما على الآخر؛ لئلا تقوم خصومة بينهما؛ فيقطع الخلاف بمدح كل سيد منهما بما فيه دون أن ينتقص من الآخر أو يفاضله عليه ويمدح الآخر بما فيه ، ويسوي بينهما في الفضائل، ويجعلهما كفرسي الرهان المتكافئين في السبق ويذبح الذبائح ويطعم الجمعيين، ويعرف الحكم في أحياء العرب بصنيعه هذا ولا تنقض حكومته في القضايا.

وقد ارتضى وفد تميم بما قاله خطيب النبي صلى الله عليه وسلم وشاعره فقضوا بالفوز، واعترفوا بقوة حجة النبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا^(١).

وقد أتى وفد بني تميم ، وفأخروا النبي صلى الله عليه وسلم بمالهم من مجد في العرب ، ومن فيهم من الملوك ، وذكروا انتصاراتهم وشراساتهم في القتال ، وما أصابوه من غيرهم وقتلاهم في العرب ، وفخروا بكرمهم وما يصنعونه بالأضياف وسنى القحط. وأتهم اصحاب السيادة وهم رؤساء الناس. وقد كان بنو تميم من أشرف العرب ، وأصحاب بأس شديد وشراسة في القتال ، وكانت العرب تهابهم لشجاعتهم وكثرتهم .

وكان في وفد تميم عطار بن حجاب بن زُرارة في جماعة من أشرف بني تميم منهم الأقرع بن حابس ، والزبرقان ، وعمرو بن الأهم ، والحجاب بن يزيد، فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته وكانت إلى جوار المسجد، فقالوا اخرج إلينا يا محمد ، فتأذى منهم النبي صلى الله عليه وسلم، وهم الذين نزلت فيهم سورة الحجرات^(٢). وقيل إن عددهم سبعون أو ثمانون رجلاً.

وروى أنهم رفعوا أصواتهم من وراء الحجرات ، ونادوا رسول الله مجرداً من لقبه وقالوا: يا محمد، قد جئنا لتفاخرك، وقد جئنا بشاعرنا وخطيبنا، وقد تأذى من أصواتهم وسوء خطابهم، فخرج إليهم صلى الله عليه وسلم فجلس، فقام الأقرع بن حابس وكانت فيه فظاظة البداوة فقال : والله — إن مدحي لزين وإن ذمي لشين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ذلك الله"، فقالوا : إنا أكرم العرب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أكرم منكم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليه السلام "، فهو نبي ابن بني نبي ابن نبي ولم يذكر نفسه صلى الله عليه وسلم تواضعاً فهو أكرم النسب ، ولم يذكر نسبه وعلوه

(1) ارجع إلى: الحكم القبلي في العصر الجاهلي، الدكتور محمود عكاشة ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٢٠٠٢م ص ١٢٥.

(2) الحجرات : المراد بها مسكن رسول الله ﷺ ، وكانت إلى جوار المسجد ولها باب يؤدي إليه . وقد نزلت سورة الحجرات في وفد تميم.

على أهل زمانه^(١).

فقالوا : يا محمد، جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال : " قد أدنيت لخطيبكم فليقل، وجلس النبي صلى الله عليه وسلم، وجلس الناس فقام عطار بن حاجب ، فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضلُ والمِنَّ ، وهو أهله ، الذي جعلنا ملوكا ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق ، وأكثر عدداً ، وأيسرهُ عدَّةً، فمن مثلنا في الناس ؟ ألسنا برؤس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن فأخرنا فليعدُّ مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نعرف بذلك ، أقول هذه لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا، ثم جلس^(٢).

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن الشماس (من بنى الحرث بن الخزرج): " فَمُ فَأَجِبِ الرَّجُلَ فِي خُطْبَتِهِ"، فقام ثابت فقال: الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ولم يك شيء قط إلا فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا أكرمه نسباً ، وأصدقهُ حديثاً ، وأفضله حسبا ، فأنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه ، أكرمُ الناس حسباً ، وأحسن الناس وجوها ، وخيرُ الناس فعلاً ، ثم كان أول الخلق إجابته واستجاب لله حين دعاه رسول الله نحن ، فنحن أنصار الله ، ووزراء رسوله ؛ نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً ، وكان قتله علينا يسيرا ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي والمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم. فقام الزبيرقان بن بدر، فقال :

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلَا حِيَ يُعَادِلُنَا	مِنَّا الْمُلُوكُ وَفِينَا تَنْصِبُ الْبَيْعِ ^(٣)
وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ كُلَّهُمْ	عِنْدَ النَّهَابِ وَفَضْلُ الْعِزِّ يَتَّبِعُ
وَنَحْنُ نَطْعُمُ عِنْدَ الْقَحْطِ مُطْعَمًا	مِنَ الشَّوَاءِ إِذَا لَمْ يُؤْنَسِ الْقَرْعُ ^(٤)
بِمَا تَرَى النَّاسَ تَأْتِينَا سَرَائِهِمْ	مِنْ كُلِّ أَرْضٍ هَوِيًّا ثُمَّ نَصْطَنِعُ ^(٥)

(1) ارجع إلي الأغاني جـ ٧/٤ ، ٨ .

(2) السيرة ، ٤ / ٢٢٤ ، والأغاني ٨/٤ .

(3) البيع : مواضع الصلوات والعبادات ، واحدها بيعة ، ومنه قوله تعالى : (لهدمت صوامع وبيع) .

(4) القرع : سحاب رقيق يكون في الخريف ، واحده قرعة ، بفتح القاف والزاي فيهما .

(5) هويا : سراعا ، يريد : يقصدونهم للضيافة ، وسراة أعلى الشيء ويريد عليه القوم جمعها: سروات.

فَنَنْحَرُ الْكُومَ عُبْطاً فِي أُرُومَتِنَا
فَلَا تَرَانَا إِلَى حَى نَفَاخِرْهُمْ
فَمَنْ يُفَاخِرُنَا فِي ذَاكَ نَعْرِفُهُ
إِنَّا أَبْيْنَا وَلَا يَأْبَى لَنَا أَحَدٌ
لِلنَّازِلِينَ إِذَا مَا أُنْزِلُوا شَبِعُوا^(١)
إِلَّا اسْتَقَادُوا فَكَانُوا الرَّأْسَ يَفْتَقِعُ
فَيَرْجِعُ الْقَوْمُ وَالْأَخْبَارُ تَسْتَمَعُ
إِنَّا كَذَلِكَ عِنْدَ الْفَخْرِ نَرْتَفِعُ^(٢)

وكان حسان رضي الله عنه غائباً ، فبعث إليه رسول الله ﷺ ، قال حسان : جئني رسوله ، فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم ، فخرجت إلى رسول الله ﷺ ، وأنا أقول^(٣) :

مَنْعَنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ حَلَّ وَسَطْنَا
مَنْعَاهُ لَمَّا حَلَّ بَيْنَ بِيُوتِنَا
بَبِيَّتٍ حَرِيدَ عِزِّهِ وَثَرَاوُهُ
هَلِ الْمَجْدُ إِلَّا السُّودُّ الْعَوْدُ وَالنَّ
عَلَى أَنْفٍ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍ وَرَاغِمٍ
بِأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَظَالِمٍ
بِجَابِيَةِ الْجَوْلَانِ وَسَطِ الْأَعَاجِمِ
دَى وَجَاهِ الْمُلُوكِ وَاحْتِمَالِ الْعِظَائِمِ ؟

قال حسان : فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقام شاعر القوم ؛ فقال ما قال عرضت في قوله ، وقلت على نحو ما قال ، فلما فرغ الزبرقان قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت :
" قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال "

قال : فقام حسان ؛ فقال :
إِنَّ الذَّوَانِبَ مِنْ فِهْرِ وَإِخْوَتِهِمْ
قَدْ بَيَّنُّوا سُنَّةَ لِلنَّاسِ تَتَّبِعُ^(٤)

(1) الكوم : جمع كوماء ، وهي الناقة العظيمة السنام ، وعبطاً : أي من غير علة ، تقول مات فلان عبطة ، واعتبط فلان - بالبناء للمجهول - إذا مات شاباً أو من غير علة ، والأرومة : الأصل .
(2) قال ابن هشام : يروى "منا الملوك وفيها تقسم الربيع" ويروى "من كل أرض هواناً ثم متبع" رواه لي بعض بني تميم ، وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها للزبرقان . كان من عادتهم في الجاهلية إذا غنموا أن يعطوا الرئيس ربع الغنيمة ، ويسمى المرباع ، والربع أيضاً ، وهذا كناية عن أنهم الرؤساء والسادة . السيرة جـ ٢٢٦/٤ .

(3) سنتاتي الأبيات كاملة .

(4) الذوائب : الأعالي ، واحدها ذوابة ، وأراد ههنا السادة .

يَرْضَى بِهِمْ كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ
سَجِيَّةً تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمْ
لَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ
إِنْ سَابَقُوا النَّاسَ يَوْمًا فَازَ سَبْقُهُمْ
أَعْفَى ذُكِرَتْ فِي الْوَحْيِ عِفَّتُهُمْ
لَا يَبْخُلُونَ عَلَى جَارٍ بِفَضْلِهِمْ
إِذَا نَصَبْنَا لِحِي لَمْ نَدِبْ لَهُمْ
نَسْمُو إِذَا الْحَرْبُ نَالَتْنا مَخَالِبُهَا
لَا يَفْخَرُونَ إِذَا نَالُوا عَدُوَّهُمْ
كَأَنَّهُمْ فِي الْوَعْيِ وَالْمَوْتِ مُكْتَنِعٌ
خُذْ مِنْهُمْ مَا آتَى عَفْوًا إِذَا غَضِبُوا
فَإِنَّ فِي حَرْبِهِمْ فَاتَرَكَ عَدَاوَتَهُمْ

تَقْوَى إِلَهِهِ وَكُلِّ الْخَيْرِ يَصْنَعُ^(١)
أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَائِهِمْ نَفَعُوا
إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاعْلَمْ شَرُّهَا الْبِدْعُ^(٢)
فَكُلُّ سَبَقٍ لَأَدْنَى سَبَقِهِمْ تَبِعُ
عِنْدَ الدَّفَاعِ وَلَا يُوْهُونَ مَا رَفَعُوا^(٣)
أَوْ وَازِنُوا أَهْلَ مَجْدٍ بِالْأَدْنَى مَتَعُوا^(٤)
لَا يُطْبَعُونَ وَلَا يَرُدُّهُمْ طَمَعُ^(٥)
وَلَا يَمْسُهُمْ مِنْ مَطْمَعٍ طَبَعُ^(٦)
كَمَا يَدْبُ إِلَى الْوَحْشِيَّةِ الذَّرْعُ^(٧)
إِذَا الزَّعَانِفُ مِنْ أَظْفَارِهَا خَشَعُوا^(٨)
وَأِنْ أُصِيبُوا فَلَا خُورٌ وَلَا هُلَعُ^(٩)
أُسْدٌ بِحَلِيَّةٍ فِي أَرْسَاعِهَا فَدَعُ^(١٠)
وَلَا يَكُنْ هَمُّكَ الْأَمْرَ الَّذِي مَنَعُوا^(١١)
شَرًّا يُخَاضُ عَلَيْهِ السُّمُّ وَالسَّلْعُ^(١٢)

(1) جاء في رواية : يرضى بها كل من كانت سريرته : تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا .

(2) السجية : الطبيعة والخلقة .

(3) أوهت : أضعفت وهدمت .

(4) متعوا : زادوا وظهروا عليهم ، تقول : متع النهار ، إذا ارتفع .

(5) لا يطبعون : أي لا يتدنسون .

(6) الطبع — بفتح الطاء المهملة والباء جميعاً — الدنس .

(7) نصبنا : أظهرنا لهم العداوة ولم نسرهما في أنفسنا ، والذرع — بفتح الحاء — ولد البقرة الوحشية .

(8) الزعانف : أطراف الناس وأتباعهم ، وخشعة : خضعوا وتذللوا .

(9) الخور : جمع أخور ، وهو الضعيف ، والهلع : جمع هلوع ، وهو الجبان الخائف .

(10) الموت مكتنع : دان قريب ، تقول : اكتنع منه ؛ إذا دنا ، وحيلة : اسم موضع تنسب إليه الأسود ، قال

أبو ذر : "يروى بالباء المنقوطة بواحدة من أسفل ، ويروى بالياء المنقوطة باثنتين من أسفل وهو الصواب ، قال ياقوت : "حلية — بالفتح ثم السكون وياء خفيفة وهاء : مأسدة بناحية اليمن ، قال بعضهم :

كَأَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ مِنْكَ مُدْرِبًا بِحَلِيَّةٍ مَشْبُوحِ الذَّرَاعَيْنِ مِهْرَعَا

وقيل : حيلة : واديين أعيار وعليب ... وقيل : هو من أرض اليمن ، وقيل : موضع بنواحي الطائف ،

الأرساغ : جمع رسغ ، وهو موضع مربوط القيد ، وفدع : اعوجاج إلى ناحية . السيرة ٢٨٨/٤ .

(11) عفوا : أي من غير طلب ولا مشقة .

(12) السلع : نبات مسموم .

أَكْرَمَ بِقَوْمٍ رَسُولُ اللَّهِ شِيعَتُهُمْ إِذَا تَفَاوَتَ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ
أَهْدَى لَهُمْ مَدْحَتِي قَلْبٌ يُوَازِرُهُ فِيمَا أَحَبُّ لِسَانٍ حَائِكٌ صَنَعَ (١)
فَاتَهُمْ أَفْضَلُ الْأَحْيَاءِ كُلَّهُمْ إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ الْقَوْلِ أَوْ شَمَعُوا (٢)

مدح حسان رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من مسلمي قومه؛ فهم أعالى بني فهر وإخوتهم الأنصار، وهؤلاء قد بينوا للناس أموراً عظيمة جديرة بالاتباع، فقد وضعوا منها ما يتبع في الحياة ، ويرضى به كل مؤمن وداعية خير، وهم شجعان إذا حاربوا أصابوا عدوهم وأضروا به ، وإن أرادوا النفع لحفائهم نفوهم .

وهذه الأعمال صفات فيهم وسجايا متمكنة منهم ، وليست ادعاء فشر الخلق ما يدعيه الإنسان في نفسه، وليس فيه يخادع به الناس. فإن كان في الناس سباقون بعدهم في هذه الخلائق فهم أئمة الناس في هذه الخلائق ، فهم أصحاب فضيلة وأصحاب الحرب وليس من ورائهما فضل. ولا يستطيع الناس أن يسدوا أو يصلحوا ما أضعت أيديهم ، يريد أن الناس لا تقدر على دفعهم ولا يستطيعون أن يهدموا ما فعلوه وأصلحوه، وإن ساقوا الناس يوماً سبقوهم ، وإن فاحروا الناس بمالهم من سجايا وكرم غلبوهم .

وقد مدحهم الله تعالى بالعفة ، فلا يتدنسون ولا يرغبون في معصية ، ويجتنبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ولا يبخلون على جار بما عندهم ، ولا يمسهم سوء من أحد. وإذا أظهرنا لقوم العداوة لم ندههم أو نراوهم بل أظهرناهم لهم. ونحن نتطلع للحرب ونظهر لها ، إذا أطراف الناس وأتباعهم خضعوا وتذلوا خوفاً، يريد يشبتون ولا يفرون ، إذا خاف الناس وذلوا. ولا يشمتون بعدوهم إذا هزموه ، وإن أصيبوا لا يجزعون ويجبنون. كأنهم في الحرب أسد في وادي حلية مقيدة وقد ثارت بواديها تتطلب الفكاك ، وقد أحاط الموت بها يصف شراستهم وهم يواجهون الموت في المعارك بالأسد التي اجتمعت في واديها وقد هيجها قيدها. فخذ منهم ما منوا عليك به ولا تطلب منهم ما منعوك وهم غاضبون. ولا يواجههم بعداوة فإن حربهم شر شديد يقتل. فهم أكرم الناس برسول الله ﷺ ، وهم شيعة إذا ضلت الناس واختلفت. وأهدى لهم مديحي قلب مفتون بهم ويوآزره لسان مغوه يحسن ما يقوله ويحكمه. فهم أفضل أحياء العرب كلهم إذا افتخروا بجذ أو بهزل .

وقد افتخر حسان رضي الله عنه بمكارم الأخلاق وما من الله تعالى على المؤمنين من فضل وخلق

(1) صنع — بفتح الصاد والنون جميعاً — صانع ماهر يتقن ما يصنعه ويحسن عمله .

(2) شمعو : هزلوا ، وأصل الشمع الطرب واللهو ، ومنه قولهم : جارية شموع؛ إذا كانت كثيرة الطرب.

وما يتمتع به المسلمون من شجاعة وإقدام وصبر في القتال وعفتهم وحسن خلقهم ولم يفخر بمظالم الجاهلية، بل هم سادة الناس بخلقهم، وأئمتهم بفعالهم ودعوتهم، وكل الناس تبع لهم في الخير، ولن يسبقهم إليه أحد أو يعلو عليهم .

وتعد هذه القصيدة أقوى قصائد المديح في شعر حسان ، فقد قارع بها شاعر تميم ومن معه ، فقد مدح الزبرقان بن بدر قومه وفخر بهم ، فذكر كرمهم وسيادتهم، وافتخر بغارات قومه ونهبهم وقتلهم ، وافتخر بخسائره وتعالى على الناس بفخره، ولكن حسانا افتخر بإخوانه من المهاجرين والأنصار الذين وضعوا للناس منهجا يعمل به كل المؤمنين ، ومدحهم أحسان أخلاقهم ، وما هم عليه من خلق وسلوك ، ومدح عفتهم بيد أن الأول لم يمدح خلقا ولا سلوكا ، فمدح قومه مدحا حيا. ثم افتخر بمكان النبي ﷺ فيهم ونزوله عليه ونصرتهم إياه، وطاعتهم له ، وجهادهم معه المشركين ، ومدحهم في الحرب وذكر فعالهم فيها وافتخر بتشييعهم لرسول الله ﷺ ومولاته مجمع في مدحه وفخره بين الحسي والمعنوي ، ولم يفخر بشائبة من شوائب الجاهلية ، فترك المظالم والعداوات والقتل والنهب، والغارة. وجعل مدحته هدية للمسلمين جميعا من قلب يجبههم ولسان زرب يؤازره. وقد علق الدكتور زكي مبارك على هذه القصيدة وابدأ إعجابه بها ، ورأى أنها أقوى مدائح حسان ، ولكنه جعلها ملاحاة ومخاصمة قارع بها خصومة ، وأنه كان يتخذ من مدح الرسول ومدح أهله سنادا لما عمد إليه من المقارعة والملاحاة، وأزيدة أنها هذا كان في الحق فلم يستعن برسول الله صلى الله عليه وسلم في باطل، فقد تبني حسان رضي الله عنه ما الصدق في شعره بعد إسلامه، قال في ذلك^(١):

وإن أشعر بيت أنت قائلة بيت يقال إذا أنشدته صدقا

ولكن الدكتور مبارك عدل عما صدر به كتابه من عزمه على إنصاف دينه ورجاله، فقد قال: " وهذه القصيدة تمجيد لأتباع الرسول، والشاعر مدفوع إليها بقوة العصبية، وليس من روح الدين إلا إشارته إلى وحي القلب، إذ يقول :

أهدي لهم مدحتي قلب يؤازره فيما يحب لسان حائك صنع^(٢)

وهذا القول فيه نظر، فالرجل مدح ما لقومه في الدين، وذكر فضائلهم، ليقابل به ما ذكر شاعر تميم عن قومه ، ولم تك هنالك ملاحاة أو تهاجي ؛ بل مناظرة بين طرفين ؛ الهدف منها أن يعرف كل طرف منهما ما للآخر من فضل ، فلما كان كثير الفضل للإسلام اعترفوا

(1) ديوان حسان ص ٥٥

(2) المدائح النبوية ، الدكتور زكي مبارك ص ٣٣

له بذلك ، قال أحدهم لخطيبه : أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، وأسلموا ، ولم يحمل شيء من الشعر على الهجاء ، فالشاعر لم يتهاجا ولم يعرض أحد الخطيبين بالآخر ، ولم يختلف أسلوب حسان في الفخر عما قاله في قصائده الأخرى التي أخلص المدح فيها لقومه الأتصار فمدح ما لهم في الإسلام ، وترك جاهليتهم التي رجعوا عنها في الإسلام وتابوا منها .

وكان ذكر القبيلة في المدح والفخر غير مذموم بل ذم الإسلام الدعاء بدعوى الجاهلية فيما شجر بين الناس من خلاف — لأنها تجلب العداوة وتسفك الدماء ولا يستعدي الرجل قومه على آخرين في الإسلام ، وليس شعر حسان من ذلك ، وقد كان النبي ﷺ يفخر بنسبه في قريش ، ويجعل لكل قبيلة لواء يعقده لرجل منهم ، ويفاضل قبيلة على أخرى في الدين والفضل وحسن البلاء والبذل والجهاد ، فالقبيلة كانت جزءا من المجتمع العربي ، وقد استمع لهجاء حسان قريشا وافتخاره بقومه الأتصار الذين قتلوا رعوسا من قريش يوم بدر. ولم يمنعه ﷺ من ذلك ، ولم ينتصر لقبيلته قريش فلحمة الدين كانت أقوى في الدين من لحمة القبيلة ، فقد قتل رجال من المسلمين رجالا من ذويهم مشركين ، وكانت العاطفة الدينية من وراء قصائد حسان فقد جاش صدره في المواقف بقصائد كثير كلها في الدين . وحسان القائل مفتخرا بقومه^(١) :

الله أكرمنا بنصر نبيه	وبنا أقام دعائم الإسلام
وبنا أعز نبيه وكتابه	وأعز بالضرب والإقدام
في كل معترك تطير سيوفنا	فيه الجماجم عن فراخ الهام
ينتابنا جبريل في أبياتنا	بفرائض الإسلام والأحكام

وجاء في رواية أخرى رواها ابن هشام أن الزبرقان بن بدر لما قدم رسول الله ﷺ في وفد بني تميم قام فقال :

بَأْنَا فُرُوعِ النَّاسِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ	وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَدَارِمٌ ^(٢)
وَأَنَا نَذُودُ الْمُعَلِّمِينَ إِذَا اتَّخَوْا	وَنَضْرِبُ رَأْسَ الْأَصِيدِ الْمُتَفَاقِمِ ^(٣)

(1) الديوان ص ٢٣٠ .

(2) دارم : من بني تميم .

(3) المعلمين : الذين يعلمون أنفسهم بعلامة يعرفون بها ليطلع الناس على بلاتهم في الحروب ، ويروى في مكانه "العالمين" ، وانتخوا : تكبروا وأعجبوا بأنفسهم ، والأصيد : المتكبر الذي يلوي عنقه يمينا وشمالا ، والمتفاقم : المتعاطف ، وقد قالوا : تفاقم الخطب ، إذا اشتد وعظم وصعب الخلاص منه .

وَأَنَّ لَنَا الْمَرْبَاعَ فِي كُلِّ غَارَةٍ
فَقَامَ حَسَنَ بْنَ ثَابِتٍ فَأَجَابَهُ فَقَالَ :
هَلِ الْمَجْدُ إِلَّا السُّؤُودُ الْعُودُ وَالنَّدَى
نَصَرْنَا وَآوَيْنَا النَّبِيَّ مُحَمَّدًا
بِحَيِّ حَرِيدٍ أَصْلُهُ وَثَرَاؤُهُ
نَصَرْنَاهُ لَمَّا حَلَّ وَسَطَ دِيَارِنَا
جَعَلْنَا بَيْنَنَا دُونَهُ وَبَنَاتِنَا
وَنَحْنُ ضَرْبَنَا النَّاسَ حَتَّى تَتَابَعُوا
وَنَحْنُ وَلَدْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عَظِيمَهَا
بَنِي دَارِمٍ لَا تَفْخَرُوا إِنْ فَخَرَكُمُ
هَبْلَتُمْ عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وَأَنْتُمْ
فَإِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ لِحِقْنِ دِمَائِكُمْ
فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ نَدَاً وَأَسْلَمُوا
نُغَيْرُ بِنَجْدٍ أَوْ بِأَرْضِ الْأَعَاجِمِ^(١)
وَجَاهُ الْمُلُوكِ وَاحْتِمَالُ الْعِظَامِ^(٢)
عَلَى أَنْفِ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍ وَرَاغِمٍ
بِجَابِيَةِ الْجَوْلَانِ وَسَطِ الْأَعَاجِمِ^(٣)
بِأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَظَالِمٍ
وَطَبْنَا لَهُ نَفْسًا بِقِيءِ الْمَغَاتِمِ
عَلَى دِينِهِ بِالْمُرْهَقَاتِ الصَّوَارِمِ^(٤)
وَلَدْنَا نَبِيَّ الْخَيْرِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ^(٥)
يَعُودُ وَبَالَا عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ^(٦)
لَنَا خَوْلٌ مَا بَيْنَ ظَنَرٍ وَخَادِمٍ^(٧)
وَأَمْوَالِكُمْ أَنْ تَقْسَمُوا فِي الْمَقَاسِمِ
وَلَا تَلْبِسُوا زِيَا كَزِيَّ الْأَعَاجِمِ^(٨)

لقد قدم شاعر تميم ما لديه من مفاخر لقومه، وهي لا تختلف عما ذكره الزبير بن بدر في قصيدته الأولى، فقد أعاد صياغتها غير أنه ترك الكرم والبيع التي عبدوا الله فيها، وذكر الحرب، ولا يستدعي الموقف ذكر الحرب؛ فقد قدموا ليصالحوا النبي ﷺ، ويسلموا وهم أهل بادية خشن جلاف أساءوا الدخول على النبي صلى الله عليه وسلم، فنادوه من

(1) المرباع : ربع الغنيمة ، وهو حظ الرئيس، ويكني بذلك عن أنهم رؤساء ، ونجد : أراد به ما ارتفع وعلا من الأرض.

(2) العود : القديم، والذي يتكرر على الزمان، والندى : الكرم والعطاء ، والعظام : جمع عظيمة .

(3) حى حريد — بالحاء المهملة — منفرد لا يختلط بغيره لعزته ، وجابية الجولان : موضع بالشأم ، وأصل الجابية الحوض الكبير وهو الذي يسميه الناس الصهريج .

(4) المرهقات الصوارم : أراد السيوف المحددة القاطعة .

(5) ولدنا نبي الخير ، ذلك لأن أم عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ كانت من بني النجار، فهم أخواه رضى الله عنهم.

(6) الوبال : الهلاك .

(7) هبلم : فقدتم، وتقول : هبلته أمه؛ تريد الدعاء عليه بالفقدان، والظنر — بكسر فسكون — التي ترضع ولد غيرها، وهي تأخذ على ذلك أجراً، وأصله الناقة التي تعطف على ولد غيرها، والخادم: يقال للذكر والأنثى، وخول : عطية من العبيد.

(8) الند — ومثله النديد — هو المثل والشبيه .

وراء الحجرات باسمه دون لقبه، ثم افتخر رجال منهم بمالهم ولقومهم، وقد تنكبهم الكبير على الناس والتعالي، وذكروا شيئاً من مظالم الجاهلية، كالغارة والنهب وأخذ السيد ربع الغنيمة وهو ما أبطله الإسلام. وقد كال حسان رضي الله عنه لهم الصاع صاعين وهدم ما فخرُوا به من كثرة العدد ومظالم الجاهلية. فنقض رضي الله عنه قولهم، فقال: إن المجد في السيادة والكرم وسلطان الملوك ومواجهة الكوارث، وليس في الغارة، والنهب والفتك والظلم بل المجد في نصرة النبي صلى الله عليه وسلم، وأنهم جعلوا أنفسهم دروعاً له تقيه من الأعداء، وهذا كان من الأنصار في الإسلام، وزاد عليه أنهم أخوال النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلا تفخروا يا بني دارم فقط يكون فخركم وبالا عليكم، وكيف تفخرون علينا وأنتم عبيد إحساننا وهباتنا، فإن كنتم جنتم حقناً لدمائكم وأموالكم، فأسلموا قبل أن تقتلوا وتصبح أموالكم غنيمة، ولا تتعالوا كبرا وعمى وغطرسة كالأعاجم. ولا شك أن ما عرضه حسان أخصم، وأحج مما فخر به شاعرهم حسان، وقد ذكرت المصادر أنهم أنصفوا النبي ﷺ من أنفسهم. قال ابن إسحق: "فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله قال الأقرع بن حابس: وأبى إن هذا الرجل لمؤتى له^(١)؛ لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا"، وسلموا بحجة النبي ﷺ، وكان الحكم في مثل هذه المنافرات محايداً من غير الفريقين، ففضوا هم أنفسهم للنبي ﷺ فلما فرغ القوم أسلموا، وجَّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم^(٢). وكان عمرو بن الأهتم قد خلفه القوم في ظهرهم^(٣)، وكان أصغرهم سناً، فقال قيس بن عاصم، وكان يبغض عمرو بن الأهتم: يا رسول الله، إنه قد كان رجل منا في رحالنا، وهو غلام حدث، وأزرى به، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما أعطى القوم، فقال عمرو بن الأهتم — حين بلغه أن قيساً قال ذلك — يهجو^(٤):

ظَلَلْتُ مُفْتَرِشَ الْهَلْبَاءِ تَشْتَمُنِي عِنْدَ الرَّسُولِ فَلَمْ تَصْدُقْ وَلَمْ تُصِبْ^(٥)
سُدْنَا كُمْ سُدُّدًا رَهْوًا وَسُودُّدُكُمْ بَادٍ نَوَاجِذُهُ مُقْعٍ عَلَى الذَّنْبِ^(٦)

(1) لمؤتى له — بضم الميم وفتح الهمزة وتشديد التاء — أى: أنه موفق، وتقول أيضاً: آتاه الشيء، إذا وافقه.

(2) الجوائز: العطايا، واحدها جائزة.

(3) ظهرهم: إبلهم.

(4) السيرة جـ ٢٣٢/٤.

(5) الهلب والهلباء: شعر الذنب، وقد استعاره ههنا للإتسان.

(6) رهوا — بالراء المهملة — متسعاً، والنواجذ: الأسنان، واحداها ناجذ، قال الحماسي:

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذِيَهُ لَهُمْ طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوَحْدَانًا

ولم تجد المفاخرة مكانا لها في الإسلام ، بعد أن دخل المشركون في دين الله، غير ما ابتدر إليه الجاهليون ، وما قاموا به قبل أن يسلموا ، وذلك لما في المفاخرة من تعالٍ وكبر ومخاصمة ومفاضلة بين القبائل مما يوقع بينهم الضغينة والتحاسد ، ويجلب القتال . ولكن الفخر ظل في موضعه ، لأن الشاعر كان يفخر بذاته وقومه دون أن يعقد مقارنة مع أحد ، فيذكر فضائل نفسه وقومه وحزبه ومذهبه وشيعته. وقد ترك المفتخر مظالم الجاهلية وشينها ، وما حرمه الإسلام لنلا يكون سبّة يعيره الناس به ويطعنون في دينه ، وكانوا يسمون ذكر مظالم الجاهلية ردة وتبدي (ردة عن الإسلام وتخلق بأخلاق البادية) ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينهي عن التبدي وهو ترك الحضر والعودة إلى البادية ، فالحضر أحفظ لدينهم ومعاشهم .

* * * * *

= ومقع على الذنب : هو من قولهم : ألقى الكلب ؛ إذا جلس على ألبيته وضم ساقيه وأمر ذنبه خلفه .
السيرة جـ ٤/ ٢٣٣ .

الرثاء

الرثاء : هو التفجع على الميت والتحزن عليه وبكاء أفضاله والتحسر على فقده ، وذكر محاسنه عقب موته، ويعد الرثاء مدحاً بيد أنه يكون للميت .

وهو غرض قديم بدأه الجاهليون ، فقد كانوا يرثون أبطالهم في قصائد حماسية، فيثيرون القبائل لتأخذ بثأرهم، وكانوا يمجدون أعمالهم ويذكرون صفاتهم ويذكرون فضائلهم ، ويزعمون أموراً تحدث للميت منها أن هامة تخرج من رأسه تطلب ثأره، وكانت هذه البكائيات لا تخلو من إثارة المشاعر والدعوة إلى الانتقام، وندب العشيرة لذلك، وكانوا يفعلون أمورا تثير الجزع وتشرى الشر، ويظهرون حزنهم العميق إزاء فقد الميت، ويطلب الباكي من النساء أن يبكين ويضربن الخدود، ويشققن الجيوب تحسرا عليه وإمعانا في أثر الخطب على النفس .

وظهر لون من الرثاء (وهو التأبين) في الجاهلية، ووجد هذا على بعض القبور الأثرية بشمال الجزيرة مدونا بخطوط ثمودية وسريانية ، فقد كتبوا على القبور اسم الميت ولقبه وبعض أعماله العظيمة ، ويدعون فيها بالصبر والإيمان بالقدر. وتطور فن الرثاء إلى أن رثى الشاعر نفسه قبل أن يموت ، ويذكر فيها ما يحدث له ويفعل به بعد موته وامتد ذلك في الإسلام وحمل على الموعظة والتعزي. ويعد رثاء الميت في ميدان الحرب أكثر أثراً وهماً وأفذح مصيبه عند الجاهليين.

وتعد الخنساء أشهر شاعرة عربية في الجاهلية في فن الرثاء، فقد عرفت بمراثيها في أخويها معاوية وصخر، ومم قالتها في صخر:

وإن صخرًا لتأتُم الهداة به كأنه علمٌ في رأسه نار

والطريف في بعض قصائد الرثاء أنها بدأت بمقدمه ذكر فيها الطفل وديار الحبيب الدوارس ، أو يستهل القصيدة بالغزل ، ثم يدخل في الرثاء ، فيصور مصرع الفقيد وجزعه عليه ، ويتحدث عن خلاله الحميدة فيمدحه بالشجاعة ، والجود والإقدام والصبر والحزم. وكان الراثي يطلب أحيانا نزول الغيث على قبر الميت ليصبح قبره طيباً عطراً ورياضاً جميلاً ، فيستسقى السماء لقبره. وبعضهم اتخذ الموت عبره وعظة ، فأكثر التأمل في الحياة ، فتأسى على ما مضى، فكل إنسان سوف يلاقيه ، قال طرفه^(١) :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مالٍ الفاحش المتشدد

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة
وما تنقص الأيام والدَّهرُ ينفدُ
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى
لكالطول المُرْحَى وثنياء باليد
متى يشأ يوماً يقوده لحتفه
ومن يك في حبل المنية ينفدُ

وقد أثر الإسلام في فن الرثاء، فالجاهليون كانوا يذكرون فضائل الميت وأعماله وفعله بالأعداء وشجاعته في الحرب، ولا يتورعون عن بعض أعماله التي تعسف فيها وظلم ويعدون منها من فضائله، ولكن الرثاء في الإسلام سلك نمطاً آخر منها: ذكر محاسن الميت وبلائه في الدين وفضائله الحميدة وكرم خلقه ومنزلته بين الناس ، ويدعو الله له بالرحمة والمغفرة وأن يخلفهم خيراً منه، وأن يأجرهم فيه.

وترك الرثاء بعض أمور الجاهلية من إظهار الجزع على الميت، وإثارة المشاعر، وذكر الثأر والهامة التي تخرج من رأس، والصدى واستئزال المطر على القبر لينعم صاحبه.

ويعد الرثاء مديحاً بيد أنه يقال للميت فهو مدح للميت، وما يقال للحي يسمى مديحاً، وهو في الناس سواء، بيد أن ما قيل في النبي ﷺ بعد موته يسمى مديحاً أيضاً، وأكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول ﷺ ، وسميت مدحاً ؛ لأن النبي ﷺ قائم فينا، موصول الحياة فخطبه الشعراء مخاطبة الأحياء.

وقد روى صاحب السيرة مراثي حسان رضي الله عنه في النبي ﷺ عقب وفاته، وسماها صاحب السيرة رثاء؛ لأنه تفجع فيها عليه وتحزن على وفاته وشكى فراقه، ووصف حال المؤمنين من بعده، أن القصائد التي قيلت في النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته تذكر محاسنه وشمائله وتثنى عليه ، وتذكر وصاياه وأدبه تسمى مديحاً، وعرفت من هذا النوع قصيدة البوصيري البردة التي أولها :

أمن تذكر جيران بذي سلم
مَزَجَتْ دمعاً جرى من مُقْلَةٍ بدمٍ

وتعد هذه أشهر قصائد المديح، وعارضها الشعراء قديماً وحديثاً وتليها في المديح شهرة قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير.

ويعد حسان بن ثابت رضي الله عنه أول من رثى الرسول ﷺ، ولم نسمع عن رثاء فيه بعد حسان غير ما يسمى مديحاً، فما قيل فيه بعد الوفاة سمي مديحاً، فالمسلمون استطاعوا أن يتغلبوا على فقد جسده، وأيقنوا أنه موصول الحياة بكتاب الله فيهم وسنته وقوله وعمله وخلقته.

قال حسان بن ثابت يبيكي رسول ﷺ، فيما رواه ابن هشام عن أبي زيد الأنصاري^(١):

بَطِيْبَةٌ رَسَمَ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ	مُنِيرٌ وَقَدْ تَعَفُّو الرُّسُومَ وَتَهْمُدُ ^(٢)
وَلَا تَمْتَحِي الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ	بِهَا مَنِيرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ ^(٣)
وَوَاضِحُ آثَارِ وَبَاقِي مَعَالِمِ	وَرَبْعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلَّى وَمَسْجِدُ ^(٤)
بِهَا حُجَرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسَطُهَا	مِنْ اللَّهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ ^(٥)
مَعَارِفُ لَمْ تُطْمَسْ عَلَى الْعَهْدِ آيَهَا	أَتَاهَا الْبَلَى فَالْأَى مِنْهَا تَجَدَّدُ ^(٦)
عَرَفْتُ بِهَا رَسَمَ الرُّسُولِ وَعَهْدَهُ	وَقَبْرًا بِهَا وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْحَدُ ^(٧)
ظَلَلْتُ بِهَا أَبْكِي الرُّسُولَ فَأَسْعِدْتُ	عُيُونَ وَمِثْلَاهَا مِنْ الْجَفْنِ تُسْعِدُ ^(٨)
تَذَكَّرُ آلَاءَ الرُّسُولِ ، وَمَا أَرَى	لَهَا مُحْصِيًا نَفْسِي ، فَنَفْسِي تَبْلُدُ ^(٩)
مُفْجَعَةٌ قَدْ شَفَّهَا فَقَدْ أَحْمَدُ	فَظَلَّتْ لِآلَاءِ الرُّسُولِ تُعَدُّ ^(١٠)

(1) الديوان، دار الجيل، ص ٩٣ والسيرة ج ٤ / ٣٤٦، ٣٥٠.

(2) طيبة: اسم من أسماء يثرب، وقد عرفت به في الجاهلية ثم صارت مدينة الرسول ﷺ في الإسلام.

تهمد: الهمود: البلى، يمدح المدينة بأن بها آثار الرسول ﷺ، فقد كان يقيم بها، وقد تدرس وتبلى بقايا الآثار، ولكنه مازال حياً فيهم.

(3) يصعد: يصعد المنبر. ففقد المفعول، ونصب ضميره. تمتحى: تزول.

(4) ربع: مكان به قوم.

(5) الحجرات: بيوتات النبي ﷺ.

(6) لم تطمس: لم تتغير، آية: علامة، دليل. العهد ما هي عليه، وروى: معالم بدل معارف. الديوان

ص ٣.

(7) عهد: تعاليم أى تعلمت فيها علمه الذي تركه، ملحد: من يلحد الناس.

(8) أسعدت: أعانت، والمراد بالجفن هنا العين نفسها.

(9) تبلد: تتحير والتبلد أيضاً نقیض التجلد وهو استكانة.

(10) مفجعة: موجعة.

- وَمَا بَلَغَتْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَشِيرَهُ
أَطَالَتْ وَقُوفاً تَذْرِفُ الْعَيْنُ جُهِدَهَا
فَبُورِكَتْ ، يَا قَبْرَ الرَّسُولِ ، وَبُورِكَتْ
وَبُورِكَ لَحْدُ مَنْكَ ضَمْنُ طَيْبٍ
تَهِيلُ عَلَيْهِ التَّرْبُ أَيْدٍ وَأَعْيُنُ
لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْماً وَعِلْماً وَرَحْمَةً
وَرَأَوْا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيَّهُمْ
يُبْكَونَ مَنْ تَبْكِي السَّمَاوَاتُ يَوْمَهُ
وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْمًا رَزِيَّةً هَالِكٍ
تَقْطَعُ فِيهِ مِزْلَ الْوَحْيِ عَنْهُمْ
يَذُلُّ عَلَى الرَّحْمَنِ مَنْ يَقْتَدِي بِهِ
إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمْ الْحَقَّ جَاهِداً
عَفْوٌ عَنِ الزَّلَّاتِ ، يَقْبَلُ عَذْرَهُمْ
وَإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقُومُوا بِحَمْدِهِ
فَبَيَّنَّا هُمْ فِي نِعْمَةِ اللَّهِ بَيْنَهُمْ
- وَلَكِنْ نَفْسِي بَعْضَ مَا فِيهِ تَحَمَدُ^(١)
عَلَى طَلَلِ الْقَبْرِ الَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ^(٢)
بِلَادُ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ^(٣)
عَلَيْهِ بِنَاءٌ مِنْ صَفِيحٍ ، مُنْضَدُ^(٤)
عَلَيْهِ ، وَقَدْ غَاظَتْ بِذَلِكَ أَسْعَدُ^(٥)
عَشِيَّةً عَلَوُهُ الثَّرَى ، لَا يُوسَدُ^(٦)
وَقَدْ وَهَنْتَ مِنْهُمْ ظَهُورٌ ، وَأَعْضَدُ^(٧)
وَمَنْ قَدْ بَكَتُهُ الْأَرْضُ فَالْنَّاسُ أَكْمَدُ^(٨)
رَزِيَّةً يَوْمَ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدُ^(٩)
وَقَدْ كَانَ ذَا نَوْرٍ ، يَغُورُ وَيَنْجُدُ^(١٠)
وَيُنْقِذُ مِنْ هَوْلِ الْخَزَايَا وَيُرْشِدُ^(١١)
مُعَلِّمٌ صَدَقَ ، إِنْ يُطِيعُوهُ يَسْعُدُوا^(١٢)
وَإِنْ يُحْسِنُوا ، فَاللَّهُ بِالْخَيْرِ أَجْوَدُ^(١٣)
فَمِنْ عِنْدِهِ تَيْسِيرٌ مَا يَتَشَدَّدُ^(١٤)
دَلِيلٌ بِهِ نَهْجُ الطَّرِيقَةِ يَقْصَدُ^(١٥)

- (1) العشير : الجزء في الأصل، وقوله بعض ما فيه أي بعض ما في كل أمر .
- (2) تذرف العين : تبكي سخاء .
- (3) المسدد : الذي وفقه الله للصواب . والقصد من القول والعمل .
- (4) الصفيح : الحجر الرقيق العريض .
- (5) تهيل مضارع هال . أي تصب . وقوله : وأعين ، أراد ، وأعين تصب عليه الدمع .
- (6) لا يوسد : لا يجعل له وساد . و الوساد : المتكأ .
- (7) وهنت : ضعفت وفترت .
- (8) قوله من تبكي السماوات يومه أي اليوم الذي قضى فيه أكرم : أحزن .
- (9) عدلت : ساوت ، الرزية : المصيبة .
- (10) يغور ويغير : أي يبلغ الغور، وهو المنخفض من الأرض . وينجد : يبلغ النجد وهو المرتفع .
- (11) أي يرشد إلى الحق وهو الله .
- (12) إمام أي محمد الرسول ﷺ .
- (13) عفو فاعول من العفو، وهو التجاوز عن الذنب وأصله المحو .
- (14) يتشدد : يتصعب — ناب الأمر نوباً : نزل وقوله : "لم يقوموا بحمده" أي لم يقضوا حقه .
- (15) قوله : بينهم دليل بيان لنعمة الله .

حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا^(١)
إِلَى كَنْفٍ يَحْنُو عَلَيْهِمْ وَيَمْهَدُ^(٢)
إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ الْمَوْتِ مُقْصِدٌ^(٣)
يُبْكِيهِ جَفْنُ الْمُرْسَلَاتِ وَيَحْمَدُ^(٤)
لِغَيْبِهِ مَا كَانَتْ مِنَ الْوَحْيِ تَعَهْدُ^(٥)
فَقِيدٌ يَبْكِيهِ بَلَاطٌ وَغَرَقْدٌ^(٦)
خَلَاءٌ لَهُ فِيهِ مَقَامٌ وَمَقْعَدٌ^(٧)
دِيَارٌ، وَعَرْصَاتٌ، وَرَبْعٌ، وَمَوْلِدٌ^(٨)
وَلَا أَعْرِفُكَ الدَّهْرَ دَمْعُكَ يَجْمَدُ^(٩)
عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِغٌ يَتَغَمَّدُ^(١٠)
لِفَقْدِ الَّذِي لَا مِثْلَهُ الدَّهْرُ يُوْجَدُ^(١١)
وَلَا مِثْلَهُ، حَتَّى الْقِيَامَةِ، يُفْقَدُ^(١٢)
وَأَقْرَبُ مِنْهُ نَائِلًا، لَا يُنْكَدُ^(١٣)

عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَحِيدُوا عَنِ الْهَدَى
عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ، لَا يُثْنِي جَنَاحَهُ
فَبَيْنَا هُمْ فِي ذَلِكَ النُّورِ، إِذْ غَدَا
فَأَصْبَحَ مُحْمُودًا إِلَى اللَّهِ رَاجِعًا
وَأَمْسَتْ بِلَادُ الْحَرَمِ وَحَشًا بِقَاعُهَا
قَفَارًا سِوَى مَعْمُورَةِ اللَّحْدِ ضَافُهَا
وَمَسْجِدُهُ، فَالْمُوحِشَاتُ لِفَقْدِهِ
وَبِالْجَمْرَةِ الْكُبْرَى لَهُ ثُمَّ أَوْحِشَتْ
فَبَكَى رَسُولَ اللَّهِ يَا عَيْنُ عَبْرَةٍ
وَمَا لَكَ لَا تَبْكِينَ ذَا النِّعْمَةِ الَّتِي
فَجُودِي عَلَيْهِ بِالدَّمْعِ وَأَعُولِي
وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ
أَعَفٌّ وَأَوْفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ

(1) يحيدوا عن الهدى : يضلّوا .

(2) عطوف عليهم : مشفق — لا يثنى جناحه : لا يرف عطفه عن أحد — ومعنى الكنف : الجانب . ويمهد :

يوطئ

(3) المقصد : المصيب .

(4) المرسلات وأراد بها الملائكة المستتررة عن عيون الناس .

(5) الحرم : مكة — وحشًا : قفراً .

(6) الغرقد : ضرب من شجر العضاة ، واسم مقبرة أهل المدينة لوجود هذا الشجر هناك .

(7) أي افتقدته الأماكن فأضحت موحشة .

(8) جمرات المناسك ثلاث .

(9) يقول : بعد محمد لست أرى عيني تجمد عن الدمع .

(10) سابغ النعمة : أتمها، ويتغمد : يغمر ويستتر .

(11) واعولي : أي اصرخي .

(12) لم تفقد الناس شخصاً عظيماً كفقدهم محمد .

(13) النائل : العطاء . لا ينكد : لا يكثر .

وَأَبْدَلَ مِنْهُ لَطِيفٌ وَتَالِدٌ
وَأَكْرَمَ حَيًّا فِي الْبُيُوتِ ، إِذَا انْتَمَى
وَأَمْنَعَ ذُرُواتِ ، وَأَثْبَتَ فِي الْعُلَى
وَأَثْبَتَ فَرْعاً فِي الْفُرُوعِ وَمَنْبِتاً
رَبَاهُ وَلِيداً ، فَاسْتَتَمَ تَمَامَهُ
تَنَاهَتْ وَصَاةُ الْمُسْلِمِينَ بِكَفِّهِ
أَقُولُ ، وَلَا يُلْفَى لِقَوْلِي عَائِبٌ
وَلَيْسَ هَوَائِي نَازِعاً عَنْ ثَنَائِهِ
مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَلِكَ جَوَارَهُ

إِذَا ضَنَّ مَعْطَاءٌ بِمَا كَانَ يُنْتَلَدُ^(١)
وَأَكْرَمَ جَدًّا أَبْطَحِيًّا يُسَوَّدُ^(٢)
دَعَائِمَ عِزٍّ شَاهِقَاتٍ تُشَيِّدُ^(٣)
وَعُودًا غَدَاةَ الْمُزْنِ ، فَالْعُودُ أَغِيدُ^(٤)
عَلَى أَكْرَمِ الْخَيْرَاتِ ، رَبُّ مُمَجَّدُ^(٥)
فَلَا الْعِلْمُ مُحْبُوسٌ ، وَلَا الرَّأْيُ يُفْقَدُ^(٦)
مَنْ النَّاسِ ، إِلَّا عَازِبُ الْعَقْلِ مُبْعَدُ^(٧)
لَعَلِّي بِهِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ أَخْلَدُ^(٨)
وَفِي نَيْلِ ذَاكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَدُ^(٩)

بدأ حسان رضي الله عنه مرثيته ببكاء الأطلال التي خلفها الرسول ﷺ بالمدينة (يثرب)، والأماكن التي كان يجلس فيها، ومصلاه ومنبره، ومسكنه (حجراته)، وهي المعالم التي ذكرته بذكرياته معه صلى الله عليه وسلم ، فأبكته وأفجعتة ، ففقد الرسول ﷺ أعظم مصيبة حلت به وظل يزرف دمه على قبره ، وهو يعدد فضائل النبي ﷺ ومحاسنه ومآثره ، وأطال في الوقوف على قبره ، ودعا له بالبركة ودعا للبلد (يثرب) التي بها القبر ، ودعا للحد الذي فيه الجسد الطاهر .

وقد أعانت عيون أخريات عينه في البكاء فبكين معها تضامناً وحزناً عليه . وقال إن الجسد الذي غيبوه في التراب ليس لغيره بل غيبوا حلماً وعلماً ورحمة ، وقد حزن عليه جميع أصحابه وبكوه ، وبكاه أهل السموات والأرض ، وهل من مصيبة في الأرض تعادل موت النبي ﷺ ، وما فقدته الناس بموته ، فقد انقطع الوحي عنهم ، وهو النور الذي كان يضيئ ما هبط وغار وما علا منها وارتفع .

- (1) تلبد : القديم ، والطريق : الحديث .
- (2) ابطحيا : نسبة إلى الابطح بمكة وقريش .
- (3) شاهقات : مرتفعات .
- (4) أغيد : ناعم متين — المزن : السحاب .
- (5) استتم بمعنى أتم الشيء .
- (6) لعله يريد والله أعلم أن يقول — افنده : اضعفه .
- (7) عازب العقل : بعيده .
- (8) قوله نازعاً عن ثنائه أي كف وانتهى .

- (9) المصطفى : الله تعالى — ذاك اليوم : أي يوم الحساب . الديوان ص ٩٩ .

وقد كان الوحي ينزل على النبي ﷺ ، فيخبره بالحق ، وينقذهم من الهلاك في النار وينبئهم بما في الغيب .

والنبي ﷺ إمام حق ومعلم صدق ، فإن أطاعه الناس اهتدوا وسعدوا في حياتهم ، وقد كان يخفف عنهم ويبسر ما لا يطيقونه ، ويذل لهم الصعاب — وقد كانوا في نعمة وهو بينهم — لأنه دليل على ما هم عليه من القصد والصواب .

فقد كان يرشد إلى الهدى ، ويعز عليهم أن يضلوا وقد كان رءوفاً رحيماً .
وبينما هم في هذا الفضل والنعمة إذ توفاه الله تعالى ، فصاروا غرباء في بلدهم يشعرون بالوحشة ، وكأنهم في صحراء قاتله ليس بها حياة ثم ذكر بعض المعالم الدينية ، مثل المسجد والمقام وداره والمواضع التي يقضي منها مناسك الحج ، ومقبرة الغرقد التي يدفن بها أهل المدينة ، وقد بكته هذه الأماكن لعهد بها وذكرياته فيها .

ثم تناول أثر فقدته على العالمين ، فقد فقد العالم رجلاً لا نظير له في الماضين ولا في القادمين ، فقد كان عفواً ، وفيماً ، كريماً ، بشوشاً لا يكدر ، ويبذل كل غال عنده وأثير لديه إذا بخل أهل العطاء .

وهو من أكرم حي في العرب ، فهو كريم من أصل كريم من نبت طيب .
ثم وصف ملكاته الخاصة ، فقد كان مقولاً فصيحاً لساناً عاقلاً رزيناً غير هوائي ولا ينزع عن رشده إلى ضلاله ، وليس بصاحب بدعة مذمومة .

وقد أكرمه الله تعالى بالجنة ، ودعا الشاعر ربه أن يلحقه به فيكون جاره في الجنة وينعم بصحبته فيها مثلما نعم بها في الدنيا .

وقال في يوم دفن النبي ﷺ (١) :

أَلَا دَفَنْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ فِي سَقَطٍ مِنْ الْأُلُوَّةِ وَالْكَافُورِ مَنْضُودٍ (٢)

ولحسن مراثي أخرى تفيض بالحزن والألم لفراق رسول الله ﷺ ، وهي مراثي دينية يبيكي فيها انقطاع الوحي وخلال النبوة والمعالم والآثار ، والروضة الشريفة التي دفن فيها ، وما أصاب الأنصار بفقدته ، والوحدة التي يعانيتها ، وهذه المعاني ترددت في مراثيه .
وقال حسان رضي الله عنه أيضاً :

(1) الديوان ص ١٠٤ .

(2) ألا : هنا للتوبيخ والإتكار ، والسقط : الذي يعبي فيه الطيب — الألوة : العود الذي يتبخر به ومنضود صفة لسقط .

- كُحِلَتْ مَآقِيهَا بِكُحْلِ الْأُرْمَدِ^(١)
 يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى لَا تَبْعِدْ^(٢)
 غُيِّتَ قَبْلَكَ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ^(٣)
 فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ النَّبِيُّ الْمُهْتَدِي^(٤)
 يَا لَهْفَ نَفْسِي لِيَتْنِي لَمْ أُولَدْ^(٥)
 يَا لِيَتْنِي صُبْحَتْ سَمَّ الْأَسْوَدِ^(٦)
 فِي رَوْحَةٍ مِنْ يَوْمِنَا أَوْ فِي غَدِ^(٧)
 مُحَضًّا ضَرَائِبُهُ كَرِيمَ الْمُحْتَدِ^(٨)
 وَلَدَتَكَ مُحْصَنَةً بِسَعْدِ الْأَسْعَدِ^(٩)
 مَنْ يُهْدِ لِلنُّورِ الْمُبَارَكِ يَهْتَدِ^(١٠)
 فِي جَنَّةٍ تَتْنِي عُيُونُ الْخُسَدِ^(١١)
 يَا ذَا الْجَلَالِ وَذَا الْعُلَا وَالسَّوْدَدِ^(١٢)
 إِلَّا بِكَيْتٍ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدِ^(١٣)

مَا بَالُ عَيْنِكَ لَا تَنَامُ كَأَنَّمَا
 جَزَعًا عَلَى الْمَهْدِيِّ أَصْبَحَ ثَاوِيًا
 جَنَّبِي يَقْبِكَ التُّرْبُ لَهْفِي لِيَتْنِي
 بِأَبِي وَأُمِّي مَنْ شَهِدْتُ وَفَاتَهُ
 فَظَلَلْتُ بَعْدَ وَفَاتِهِ مُتَبَلِّدًا
 أَأَقِيمُ بَعْدَكَ بِالْمَدِينَةِ بَيْنَهُمْ ؟
 أَوْ حَلَّ أَمْرُ اللَّهِ فِينَا عَاجِلًا
 فَتَقُومَ سَاعَتُنَا ، فَتَلْقَى طَيِّبًا
 يَا بَكْرَ أَمَنَةِ الْمُبَارَكِ ذَكَرُهُ
 نُورًا أَضَاءَ عَلَى الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا
 يَا رَبِّ ! فَاجْمَعْنَا مَعًا وَنَبِينَا
 فِي جَنَّةِ الْفَرْدَوْسِ وَاكْتُبْهَا لَنَا
 وَاللَّهِ أَسْمَعُ مَا بَقِيَتْ بِهِالِكَ

- (1) المآقي : مجاري الدموع . الأرمد : الذي يشتكى وجع عينيه الديوان ص ٩٩ .
 (2) جزعاً : خوفاً — قوله يا خير من وطئ الحصى : يا أشرف إنسان .
 (3) بقيع الغرقد : بقيع المدينة الذي يدفنون فيه موتاهم .
 (4) بأبي وأمي : أي أفديه أبي وأمي .
 (5) المتبلد : من أدركته الحيرة .
 (6) صبحت : سقيت صباحاً — الأسود العظيم من الحيات .
 (7) في رَوْحَةٍ مِنْ يَوْمِنَا أَوْ فِي غَدِ : أي حل أمر الله فينا دائماً .
 (8) تقوم ساعتنا : أي تقم القيامة — الضرائب : الطبيعة السجية . المحتد : الأصل .
 (9) المحصنة العفيفة ، وأصل الإحصان المنع . وقوله بسعد الأسعد : أي باليمن وبالبركة .
 (10) نوراً على البرية : التعاليم الإسلامية التي أنارت ظلام الأوثان .
 (11) تتني : ترد وتدفع من ثني يتني .
 (12) فاكتبها لنا : لتكن الجنة من نصيبنا .
 (13) قوله : أسمع يريد لا أسمع . وهو يقول : يمين الله لا أسمع نعي ميت مدة حياتي إلا بكيت على النبي محمد .

يَا وَيْحَ أَنْصَارِ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ
ضَاقَتْ بِالْأَنْصَارِ الْبِلَادُ فَأَصْبَحَتْ
وَلَقَدْ وَلَدَنَاهُ ، وَفِينَا قَبْرُهُ
وَاللَّهُ أَكْرَمَنَا بِهِ وَهَدَى بِهِ
صَلَّى إِلَهِ وَمَنْ يَحْفُ بِعَرْشِهِ
فَرِحَتْ نَصَارَى يَثْرِبَ وَيَهُودُهَا
بَعْدَ الْمَغِيبِ فِي سَوَاءِ الْمَلْحَدِ^(١)
سُوداً وَجُوهُهُمْ كَلَوْنِ الْإِثْمَدِ^(٢)
وَفُضُولُ نِعْمَتِهِ بِنَا لَمْ يُجْحَدِ^(٣)
أَنْصَارُهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ مَشْهَدِ^(٤)
وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارَكِ أَحْمَدِ^(٥)
لَمَّا تَوَارَى فِي الضَّرِيحِ الْمَلْحَدِ^(٦)

لقد جزع الشاعر لفقده صلى الله عليه وسلم ، وفقد طعم الحياة من دونه ويأمل أن يلحق به في الجنة فيكون رفيقه فيها. وجسد حالة الحزن الشديد التي خيمت على المكان ومن فيه ، وما يشعر الناس به من حزن وألم وضيق. وقال أيضا يرثي النبي صلى الله عليه وسلم ، ويمدحه أيضاً :

أَلَيْتُ مَا فِي جَمِيعِ النَّاسِ مَجْتَهِدًا
تَاللَّهِ مَا حَمَلْتُ أَنْتَى وَلَا وَضَعْتُ
وَلَا بَرَأَ اللَّهُ خَلْقًا مِنْ بَرِيَّتِهِ
مَنْ الَّذِي كَانَ نَوْرًا يُسْتَضَاءُ بِهِ
مُصَدِّقًا لِلنَّبِيِّينَ الْأَلْسَى سَلَفُوا
يَا أَفْضَلَ النَّاسِ ، إِنِّي كُنْتُ فِي نَهْرٍ
أَمْسَى نِسَاوُكَ عَطْلَانَ الْبُيُوتِ ، فَمَا
مَنْيَ أَلِيَّةَ بَرٍّ ، غَيْرِ إِفْنَادِ^(٧)
مِثْلَ النَّبِيِّ، رَسُولِ الرَّحْمَةِ الْهَادِي^(٨)
أَوْفَى بِذِمَّةِ جَارٍ ، أَوْ بِمِيعَادِ^(٩)
مُبَارَكِ الْأَمْرِ ذَا عَدَلٍ وَإِرْشَادِ^(١٠)
وَأَبْذَلَ النَّاسَ لِلْمَعْرُوفِ لِلْجَادِي^(١١)
أَصْبَحْتُ مِنْهُ كَمِثْلِ الْمُفْرَدِ الصَّادِي^(١٢)
يَضْرِبْنَ فَوْقَ قَفَا سِتْرٍ بِأَوْتَادِ^(١٣)

- (1) المغيب : هو محمد .
- (2) الإثمَد : الكحل . يقال جعل سواد الليل لعينيه كالإثمَد .
- (3) قوله ولقد ولدناه لأن بني النجار أخوال محمد .
- (4) الله أكرمنا به : قد وهبنا الله عطية وجود النبي .
- (5) يحف بعرشه : أي الملائكة .
- (6) فرحت النصارى واليهود عندما أدخل القبر ، أي عند وفاته . الديوان ص ١٠٢ .
- (7) أليت : حلفت — الإفناد : الكذب — لعل تقدير البيت هكذا : أليت ألية بر غير إفناد مني مجتهداً "أي غير مقصر" ما في جميع الناس .
- (8) تالله : إعادة القسم للتوكيد .
- (9) برا : أي برأ : أي خلق والبرية : الخلق والذمة والعهد .
- (10) قوله من الذي : متعلق بقوله أوفى في البيت السابق .
- (11) الجادي : طالب الجدوي وهي العطية ، المعروف .
- (12) الصادي : العطشان . قوله : يا أفضل الناس يروي خير البرية أي يا خير البرية .
- (13) قفا ستر : أي خلفه ووراءه .

مِثْلُ الرَّوَاحِبِ يَلْبَسْنَ الْمُسُوحَ، وَقَدْ أَيْقَنَ بِالْبُؤْسِ بَعْدَ النَّعْمَةِ الْبَادِي^(١) وهي أبيات تفيض حزناً وألماً وحسرة على فقد النبي ﷺ ، فالشاعر يفتقد إلى الأُنس ويشعر بالظماً والوحدة ، ويحن لأيام صحب النبي ﷺ فيها وتروى من حبه حباً ، ونهل وتعلل من فيض خلقه الكريم ، ومدحه ﷺ بعد أن رثاه ، وهذا المدح تعبيراً رمزياً على استمرار الميت في ذاكرة الشاعر وخلده ، وأنه يعيش معه بعيداً عن العالم المادي ، فالشاعر يستأثر معه بحديث خاص ، فيحدثه حديث الأحياء ، فيناديه ويطلب جوابه ، ويشكو إليه ما يعانيه والشكوة تكون لحبيب قريب .

وعبر حسان بن ثابت رضي الله عنه عن عظم مصابهم بفقد رسول الله ﷺ تعبيراً صادقاً يثير الشجن، فقال يرثي النبي ﷺ :

نَبَّ الْمَسَاكِينَ أَنَّ الْخَيْرَ فَارَقَهُمْ	مَعَ النَّبِيِّ تَوَلَّى عَنْهُمْ سَحَرًا ^(٢)
مَنْ ذَا الَّذِي عِنْدَهُ رَحْلِي ، وَرَاحِلَتِي	وَرَزَقُ أَهْلِي، إِذَا لَمْ يُؤْنِسُوا الْمَطَرًا ^(٣)
أَمْ مَنْ نُعَاتِبُ لَا نَخْشَى جَنَادِعَهُ	إِذَا اللِّسَانُ عَتَا فِي الْقَوْلِ، أَوْ عَثَرًا ^(٤)
كَانَ الضِّيَاءُ ، وَكَانَ النُّورَ نَتَبَعُهُ	بَعْدَ الْإِلَهِ ، وَكَانَ السَّمْعَ وَالْبَصْرًا ^(٥)
فَلَيْتَنَا يَوْمَ وَارَوْهُ بَمَلْحَدِهِ	وَعُيُوبُهُ ، وَأَلْقَوْا فَوْقَهُ الْمَدْرًا ^(٦)
لَمْ يَتْرِكِ اللَّهُ مِنَّا يَعْدَهُ أَحَدًا	وَلَمْ يُعِشْ بَعْدَهُ أَتْنَى ، وَلَا ذَكَرًا ^(٧)
ذَلَّتْ رِقَابُ بَنِي النَّجَّارِ كُلِّهِمْ	وَكَانَ أَمْرًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ قَدْ قُدِّرًا ^(٨)

وقد فقد حسان رضي الله عنه بصره بعد وفاة النبي ﷺ ، فلم يزد ذلك إلا إيماناً وصلاحاً ولم يجزع وتذكر رسول الله ﷺ وقال :

-
- (1) المسوح : كساء من الشعر — البادي : صفة البؤس .
(2) قوله نب المساكين : أراد نبيء فحذف الهمزة لضرورة الشعر .
(3) قوله لم يؤنسوا المطرا : أي لم يبصروه ويروه . والرحل : المنزل والمأوى . الراحلة من الإبل : ما كان منها صالحاً ؛ لأن يرحل ، والقوى منها على الأحمال والأسفار للذكر والأنثى .
(4) الجنادع : أوائل الشر . عتا : طغى . الديوان ص ١٥٥ .
(5) — (6) — (7) — (8) وحسان يرثي النبي فيختر أجمل الصفات الكريمة ويمدح بها الرسول وأتباعه مع الإشارة إلى إذلال بني النجار حيث كان هذا الانحمار والإذلال أمراً مقدراً من الله تعالى . الديوان ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

فَعَمِيَ عَلَيْكَ النَّاطِرُ^(١)

فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحَاذِرُ^(٢)

كُنْتُ السَّوَادَ لِنَاطِرِي

مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلَيْمْتُ

ولحسن مرآتي أخرى في رثاء بعض المسلمين الذين نالوا الشهادة ، وهي قصائد أشبه بالمدح بيد أنها في ميت ، فقد وصف شجاعتهم وما فعلوه في الأعداء ، ونعاهم إلى الجنة التي وعدوا بها .

قال رضي الله عنه يرثي حمزة بن عبد المطلب :

بَعْدَكَ ، صَوَّبَ الْمُسْبِلَ الْهَاطِلَ^(٣)

فَمَدَفَعَ الرُّوحَاءَ فِي حَائِلٍ^(٤)

لَمْ تَدْرِ مَا مَرْجُوعَةُ السَّائِلِ^(٥)

وَأَبَكَ عَلَى حِمْزَةٍ ذِي النَّائِلِ^(٦)

غَيْرَاءُ فِي ذِي الشَّبَمِ الْمَاحِلِ^(٧)

يَعْتَرُ فِي ذِي الْخُرْصِ الذَّابِلِ^(٨)

كَالْلَيْثِ فِي غَابَتِهِ الْبَاسِلِ^(٩)

لَمْ يَمِرْ دُونَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ^(١٠)

أَتَعْرِفُ الدَّارُ ، عَفَا رَسْمُهَا

بَيْنَ السَّرَادِيحِ ، فَأَدْمَانَةَ

سَأَلْتُهَا عَنْ ذَاكَ ، فَاسْتَعْجَمْتُ

دَعُ عَنْكَ دَاراً قَدْ عَفَا رَسْمُهَا

الْمَالِيءِ الشَّيْزِيِّ ، إِذَا أُعْصِفَتْ

التَّارِكِ الْقِرْنَ لَدَى لَبْدِهِ

وَاللَّابِسِ الْخَيْلِ إِذَا أَحْجَمَتْ

أَبْيَضَ فِي الذَّرْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ

(1) - (2) ويرثي حسان أيضاً النبي فيصفه بسواد العين التي لم تر غيره بعد .

وقال عندما فقد بصره :

فَفِي لِسَاتِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورُ

وَفِي فَمِي صَارِمٌ كَالسَّيْفِ مَأْتُورُ

إِنْ يَأْخُذُ اللَّهُ مِنْ عَيْنِي نُورَهُمَا

قَلْبُ ذِكِّي ، وَعَقْلٌ غَيْرُ ذِي رَدَلُ

وعندما فقد حسان بصره لم يتزعزع إيمانه. وقوله الرذل : الرديء. المأثور : أي ذو جوهر .

(3) قوله : عفا رسمها أي محا أثرها . الصوب : المطر . المسبل : المنصب . الهاطل : الكثير السيلان .

(4) السرداح: الوادي أو مكان متسع. أدمانة، والروحاء : موضعان . المدفع : حيث يندفع السبل . حائل : جبل .

(5) استعجمت : لم ترد جواباً .

(6) النائل : العطاء .

(7) الشيزي : جفان من خشب يوضع فيها الطعام للضيوف . الغبراء : الريح التي تثير الغبار . الشبم : البرد .

(8) اللبد : الذي يوضع تحت سرج الفرس. ذو الخرص : الرمح .

(9) أحجمت : تأخرت هيبه . الباسل : الشديد الكريه .

(10) أبيض : كنى بذلك عن شرفه وعرضه. يمرى : يدفع حقاً بباطل .

- ما لشَهِيدٍ بَيْنَ أَرْماحِكُمْ
 إِنَّ أَمْرًا غُودِرَ فِي آلَةٍ
 أَظْلَمَتِ الْأَرْضُ لِفَقْدَانِهِ
 صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ فِي جَنَّةٍ
 كُنَّا نَرَى حَمْزَةَ حَرِزًا لَنَا
 وَكَانَ فِي الْإِسْلَامِ ذَا تُدْرٍا
 لَا تَفْرَحِي يَا هِنْدُ ، وَاسْتَحْلِي
 وَابْكِي عَلَى عُتْبَةٍ ، إِذْ قَطَعَهُ
 إِذْ خَرَّ فِي مَشِيخَةِ مَنْكُمُ
 أَرَادَهُمْ حَمْزَةً فِي أُسْرَةٍ
 غَدَاةَ جَبْرِئِيلُ وَزَيْرُ لَهْ
- شَلَّتْ يَدَا وَحْشِيٍّ مِنْ قَاتِلٍ^(١)
 مَطْرُورَةٍ ، مَارِنَةِ الْعَامِلِ^(٢)
 وَأَسْوَدَ نَوْرُ الْقَمَرِ النَّاصِلِ^(٣)
 عَالِيَةٍ ، مُكْرَمَةِ الدَّاخِلِ^(٤)
 مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَابِتًا نَازِلِ
 لَمْ يَكُ بِالْوَانِي ، وَلَا الْخَاذِلِ^(٥)
 دَمْعًا وَأَذْرِي عِبْرَةَ الثَّائِلِ^(٦)
 بِالسَّيْفِ تَحْتَ الرَّهْجِ الْجَائِلِ^(٧)
 مِنْ كُلِّ عَاتٍ قَلْبُهُ ، جَاهِلِ^(٨)
 يَمْشُونَ تَحْتَ الْحَلْقِ الذَّائِلِ^(٩)
 نَعْمَ وَزَيْرُ الْفَارِسِ الْحَامِلِ^(١٠)

ولقد بدأ حسان قصيدته بمقدمة بكى فيها الديار وما حل بها ثم نفص يده منها، وقال:
 دع عنك دار قد عفا رسمها وابك على حمزة ذي النائل فتخلص من المقدمة، وتوجه إلى
 مدح حمزة رضي الله عنه الأسد المغوار ، والفارس المقدام ، فهو كتيبة وحده ، ثم وجدته
 مطرحا غدر به ، ودعا على قاتله ونعاه إلى الجنة ، ثم أعرب عن إعجابه بشجاعة حمزة ،
 وأنه كان حرزاً للمسلمين يدفع عنهم الأعداء.

- (1) وحشي : قاتل حمزة . وحذف التنوين من وحشي للضرورة .
- (2) الألة : الحربة . المطرورة : المسنونة . المارنة : اللينة . العامل : صدر الرمح .
- (3) الناصل : الخارج من السحاب .
- (4) يرشى حمزة متمنياً له فسيح الجنة وقوله حرزاً لنا : أي مساعداً لنا ومعاوناً .
- (5) تدراً : قوة .
- (6) هند : هي بنت عتبة بن ربيعة، قتل حمزة أباه يوم بدر وعمها شيبه بن ربيعة وقتل على رضى الله عنه الوليد بن عتبة، وقيل قتل حمزة رضى الله عنه حنظلة بن أبي سفيان .
- (7) قطه : قطعه : الرهج : الغبار .
- (8) أراد بالمشيخة : من قتل يوم بدر من سراة القرشيين .
- (9) الحلق الذائل : الدروع الطويلة الذيل .
- (10) الحامل : الذي يحمل عن الناس كل شيء .

ثم عاتب هند بن عتبة وذمها ، فقد أعربت عن فرحتها بقتله ، وشممت فيه فقال لها حسان: لا تفرحي بموت حمزة، ولكن ازرفي دمعك على من قتلوا من ذويك يوم بدر، وهم أصحاب القليب.

وقال حسان بن ثابت يبكي خبيبا وأصحابه الذين نالوا الشهادة يوم الرجيع:

صَلَّى إِلَهُ عَلَى الَّذِينَ تَتَابَعُوا	يَوْمَ الرَّجِيعِ فَأَكْرَمُوا وَأَنْثَبُوا ^(١)
رَأْسُ السَّرِيَّةِ مَرْتَدٌ وَأَمِيرُهُمْ	وَابْنُ الْبَكِيرِ أَمَامَهُمْ وَخَبِيبُ ^(٢)
وَابْنُ لَطَارِقٍ وَابْنُ دَثْنَةَ مِنْهُمْ	وَأَفَاهُ ثُمَّ حَمَامُهُ الْمَكْتُوبُ ^(٣)
وَالْعَاصِمُ الْمَقْتُولُ عِنْدَ رَجِيعِهِمْ	كَسَبَ الْمَعَالِي إِنَّهُ لَكَسُوبُ ^(٤)
مَنْعَ الْمَقَادَةَ أَنْ يَنْأَلُوا ظَهْرَهُ	حَتَّى يُجَالِدَ إِنَّهُ لَنْجِيبُ ^(٥)

وقال حسان بن ثابت يبكي خبيبا :

مَا بَالُ عَيْنَيْكَ لَا تَرْقَا مَدَامِعَهَا سَحَا عَلَى الصَّدْرِ مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ الْقَلِقِ^(٦)

(1) أنثبوا — بالبناء للمجهول — أثابهم الله .

(2) خبيب: هذا الاسم في حقيقته مصغر بضم الخاء وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة، وقد جاء به ههنا مكبراً بفتح الخاء وكسر الموحدة حين اضطر إلي ذلك، ومن الناس من يرويه على أصله، وذلك عيب من عيوب الشعر أن تجمع في قافية واحدة بين ياء ساكنة مفتوح ما قبلها وياء مكسور ما قبلها كأن تجمع بين غير يفتح فسكون وأمر، وبين عين وأمين، وبين قيد وشديد، ونحو ذلك، ويسمى هذا العيب بالتوجيه، وأراد مرتد بن أبي مرتد، وخالد بن البكير الليثي، وخبيب بن عدى أحد بنى جحجي .

(3) ابن لطارق : هو عبد الله بن طارق حليف بنى ظفر، وابن دثنة: أراد زيد بن الدثنة، وأصل ضبطه بفتح الدال وكسر الثاء المثناة وتشديد النون، ولكن لا يقوم به وزن البيت، فعدل عنه إلي تسكين الثاء وتخفيف النون، ووفاه : جاءه، وثم يفتح الثاء — بمعنى هناك، والحمام — بكسر الحاء — الموت، وقد منع صرف طارق حين اضطر إلي ذلك أيضاً.

(4) العاصم : أراد به حمى الدبر عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، وكسوب — بفتح الكاف — صيغة مبالغة .

(5) المقادة : المذلة والانقياد إلي أعدائه، ويجالد : يضارب ويقاوم بالسيف، ومن رواه "حتى يجدل" كما ذكر

ابن هشام فمعناه حتى يقع على الجدالة وهي الأرض. ويروى : حتى يجدل إنه لنجيب. السيرة جـ ١٧١/٣

(6) "عينك" يروى في مكانه "عينك" بالإفراد، وهو أنسب بقوله "مدامعها" ؛ وقوله لا ترقى" أصله لا ترقأ—

بالهمز— فسهل الهمزة وتقول: رقا الدمع يرقأ، إذا انقطع، وسحا : مصدر بمعنى الصب، واللؤلؤ: كبار

الجوهر، والقلق — بفتح القاف وكسر اللام — المضطرب المتحرك المتساقط .

عَلَى خُبَيْبَ فَتَى الْفَتَيَانِ قَدْ عَلِمُوا
فَإَذْهَبْ خُبَيْبُ جَزَاكَ اللَّهُ طَيِّبَةً
مَاذَا تَقُولُونَ إِنْ قَالَ النَّبِيُّ لَكُمْ
فِيم قَتَلْتُمْ شَهِيدَ اللَّهِ فِي رَجُلٍ
لَا فَشَلَ حِينَ تَلْقَاهُ وَلَا نَزِقَ^(١)
وَجَنَّةَ الْخُلْدِ عِنْدَ الْحُورِ فِي الرَّفْقِ^(٢)
حِينَ الْمَلَائِكَةُ الْأَبْرَارُ فِي الْأَفْقِ
طَاعَ قَدْ أَوْعَتْ فِي الْبُلْدَانِ وَالرَّفْقِ^(٣)

وكان من أصحاب يوم الرגיע (في سنة ثلاث من الهجرة) كان ستة : هم مرثد بن أبي مرثد، الغنوي ، وخالد بن البكير اللثي ، وعاصم بن ثابت الأوسي ، وخبيب بن عدي العوفى ، وزيد بن الدثنة الخزرجي ، وعبد الله بن طارق، وقد بعثهم النبي ﷺ إلى عضل والقارة ، فمروا بقبيلة هذيل ، فأخذتهم غداً ، ووقع بينهم قتال فقتلت عاصماً ، ومرثداً ، وخالداً، لأنهم أبو أن يسلموا لهزيل^(٤).

وأما زيد وخبيب وعبد الله فلاتوا لهزيل وصدقوا عهدهم، فقتلوا عبد الله بالطريق، وباعوا خبيبا وزيدا لمشركي مكة فقتلوهما. وقد هجا حسان رضي الله عنه هذيل لما فعلوه ، بأصحاب النبي ﷺ وبكى خبيب بن عدي الذي باعوه إلى عتبة بن الحرث بن عامر ليقتله بأبيه:
أَبْلَغَ بَنِي عَمْرٍو بِأَنَّ أَخَاهُمْ
شَرَاهُ زُهَيْرُ بْنُ الْأَعْرَ وَجَامِعٍ
وَكَاْنَا جَمِيعًا يَرْكَبَانِ الْمَحَارِمَا^(٥)
شَرَاهُ امْرُؤٌ قَدْ كَانَ لِلْغَدْرِ لَازِمًا^(٥)
وَكَاْنَا جَمِيعًا يَرْكَبَانِ الْمَحَارِمَا^(٦)

(1) الفشل -بفتح الفاء وكسر الشين-الضعيف القوة الجبان،والنزق - بفتح النون وكسر الزاى - السيء الخلق

(2) الحور في الأصل : جمع حوراء ، وهى التي اشتد سواد سواد عينها واشتد بياض بياضها ؛ والرفق: يروى بضم الراء والفاء جميعاً ، فهو جمع رفيق، قاله أبو ذر، ويروى بضم الراء وفتح الفاء ، فهو جمع رفقة، والرفقة - بسكون الفاء وراؤه مضمومة - اسم للجماعة الذين ترافقهم ويرافقونك .

(3) أوعت : اشتد فساده ، والرفق : قد مضى في تفسير البيت السابق، وتكراره هنا يعتبر من عيوب الشعر ، ولهذا بادرا ابن هشام بقوله "ويروى في الطرق".

(4) السيرة جـ-٣/١٦٠ ، ١٦١ .

(5) بنى عمرو : يريد بهم بنى عمرو بن عوف قوم خبيب، وأخاهم : أراد به خبيباً، وشراه : باعه، وهو من الأضداد، وقد مضى قريباً استشهاد ابن هشام على استعماله في هذا المعنى. وقد باعه زهير وجامع وهما من هذيل : وقد باعهما بأسيرين لهما في مكة .

(6) المحارم : جمع محرم وهو الأمر المحظور إتياته .

أَجْرْتُمْ فَلَمَّا أَنْ أَجْرْتُمْ غَدْرْتُمْ وَكُنْتُمْ بِأَكْنَافِ الرَّجِيعِ لَهَازِمًا (١)
فَلَيْتَ خُبَيْبًا لَمْ تَخُنْهُ أَمَانَةً وَلَيْتَ خُبَيْبًا كَانَ بِالْقَوْمِ عَالِمًا

لقد طور حسان من المراثي ، فاستبدل بكاء الأنثافي (معارض القدر) وبقايا الديار
الدارسة ، المسجد والمصلي والبيت والمجلس والأماكن التي كانت للنبي ﷺ بها ذكريات ،
فذكر معالم لها صلة بالفقيد وبكى هذه الديار والمعالم ولم يقل إلا خيراً ، وقد أطال من
الوقوف على قبره وجعل القبر بديلاً للطلل ، ودعا لقبره بالبركة ولم يدع بنزول المطر على
ما كان يدعوا به الجاهليون .

وقد تأثر حسان بالقرآن الكريم لفظاً وأسلوباً ومعنى ؛ فأسلوبه سلس سهل ليس فيه
تكلف ، ولفظه واضح ليس بغريب ولا وحشي وبعض معانيه إسلامية مولده .

وقد استمرت في قصيدته تقاليد مراثي الجاهلية ومنها بكاء الديار التي تركها الميت وما
بقي من رسمها ، والبكاء على القبر ، وبكاء الفقيد ، وقد أعانته عيون على البكاء تضامناً
معه ، وأهرق الدمع حزناً عليها ، ودعا غيره إلى البكاء والمشاركة في الحزن ، وأطال
الوقوف على قبره مثلما كان يطيل الوقوف على الطلل ، ودعا بالبركة للقبر ولساكنه
وللمدينة التي دفن بها ، ودعا للحدود وذكر الحجر المعد ليكون غطاءً ومعطماً على القبر .

(١) لهازمًا : ترو هذه الكلمة بالذال المعجمة ، وبالزاي ، فمن رواه بالذال المعجمة فإنما أراد به الشجعان ،
ومنه يقال : سيف لهزم ، إذا كان قاطعاً ، يعبرهم بأنهم خرجوا بقضيتهم وقضيضهم على جماعة قليلة العدد قد
أجاروهم فأمنوا لهم ، فتشاجروا عليهم ، ومن رواه بالزاي فإنما أراد به أنهم جنباء ضعفاء ، وأصل
للهمزة بضیعة في أصل الحنك .

الهجاء

الهجاء ذكر ما يكره الإنسان عن نفسه بما يتنافى مع العدل والمروعة. وهو غرض من أغراض الشعر العربي ، وقد نشأ في الجاهلية ، وكان العرب يتطيرون منه ويتساءمون ، ويخشون وقعه عليهم لئلا يفضحون به في الناس، فيعبرونهم به. ولشعر الهجاء وقع في الحياة الاجتماعية وأثر لا يحويه إلا شعر مثله يعلو عليه ، وقد رفع الشاعر بمدحه قوماً ، ووضع هجاؤه من آخرين فجعلهم سبة في الناس . وقد اشتهرت أبيات لما جرى على رسمها ومضى على حكمها .

قد كان بنو أنف الناقة^(١) (اسم قبيلة) يستحيون من اسمهم ونسبهم إليها، وكانوا يغيضون إن ذكر اسم أنف الناقة أو أن ينسبهم إليه أحد ، وكان ذلك حالهم حتى عرف الحطيئة ذلك فيهم، وقد أكرموه فرفع عنهم ما هم فيه بقوله مادحاً:

سيرى أمام فإن الأكثرين حصى والأطيبين إذا ما ينسبون أباً
قومٌ إذا عقدوا عقداً لجارهم شدوا العنّاجَ وشدوا فوقه الكرباً
قوم هم الأنف والأذنابُ غيرهم ومن يسوي بين أنف الناقة الذنبا

فصار أحدهم إذا سئل عن انتسابه لم يبدأ إلا به. وقد أذل الشعر رقياً في الجاهلية ، فوضع من قوم لهم شرف في الناس ، فأصابهم خزي وعار بببت شعر أو أكثر هجاهم به شاعر سليط مفوه ، فصاروا سبة يسخر منهم الناس ، فقط كان للهجاء وقع السيف والنبيل في نفوس العرب ، فهو سلاح آخر في معاركهم لا يملكه إلا الشعراء المجيدون، فالشاعر يعد لسانه للضرب، ويشحذه ويصقله ، وهو مدجج تام السلام، وقد ارتدى درعه لئلا يدركه شيء من عدوة، فالشعر رمح ودرع، في معارك الكلام، قال عبد قيس بن خفاف البرجمي:

فأصبحت أعددت للنائب ت عرضاً بريئاً وعضباً صقيلاً^(٢)
ووقع لسان كحد السنّان ورُمحاً طويل القنّاة عسّولا
كما الغدير رفته الدبور يجر المدجج منها فضولا

وقد كانت عكاظ سوق تجارية وأدبية يجتمع فيها الشعراء يتناشدون الشعر، ويسمعهم

(1) زهر الآداب جـ ١/ ١٩. وأنف الناقة لقب جعفر بن قريع بن عوف بن كعب بن زيد مناة بن تميم، وقد أطلق عليه هذا الاسم، لأن أباه نحر ناقة وقسمها بين نساته، فأرسلت به أمه إلى أبيه فكان قسمه منها الرأس والعنق، فأمسك بالأنف فجرها إلى أمه، فرأى قومه ذلك فعرف به .

(2) المفضليات جـ ١/ ٣٥٧ - ٣٦٣ . العضب : السيف القاطع، والصقيل : المصقول الحاد. الدبور : ربح غربية تقابل الصبا. المدجج : تام السلاح . يجر منها فضولاً: كناية عن أنها سابقة تفضل عن أطرافه.

من حضر السوق من العرب ، وكان الهجاءون ينشدون أهاجيهم فيها لتذيع في العرب ،
ويبلغ مداها أقاصي الجزيرة فيصيبوا خصومهم في مقتل .

وكان بعكاظ شجرة عظيمة يحضرها الشعراء ، ويضربون القباب حولها ، وكان
الشعراء يحضرون السوق مع قوافلهم ، وقد عرفت هذه الشجرة (السَّرْحَة) في شعر
الجاهلية قال راشد بن شهاب البشكري مهددا قيس بن مسعود الشيباني:

ولا تُوعِدني إنني إن تلاقيني معي مَشْرِفي في مضاربه قَضَمَ
وذمُّ يُغشَى المرءَ خزيًا ورهطه لدى السَّرْحَة العشاء في ظلها الأدم^(١)

يقول : لا تهددني فإن معي سيف فيه فلول من كثرة الطعن ، وأستطيع أن أذمك
وأهجوك وقومك عند شجرة " السرحة " هجاء لاذعا يلحقك أنت وقومك ذلا وعارا تفضحون
به في العرب حيث تقام القباب في ظلها ، وكان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم ،
ويتشرفون بهذا الاسم ، وقد سمي به جدهم عبد الله بن كعب لتعجيله القرى للضيغان ، فقد
نزل عليه حي من طيئ ، فبعث إليهم بقراهم عبدا له ، وقال له : اعجل عليهم ، ففعل العبد
فأعتقه بعجلته ، فأطلقوا عليه العجلان ، لعجلته في ضيافتهم ، وهي مبالغة من عجل ،
فكان هذا اللقب شرفاً له ولبنيه حتى هجاهم قيس بن عمرو بن مالك بن حزن بن الحارث
بن كعب المعروف بالنجاشي، فقال^(٢):

أولئك أحوال اللعين وأسرة الـ هجين ورهط الواهن المتذلل
وما سُمي العجلان إلا لقوله خذ القعب وأحلب أيها العبد واعجل

فصار الرجل منهم إذا سئل عن نسبة فقال : كعبي، ولا يقول عجلان لما قاله النجاشي
فيه. وقد أدرك المتقدمون وقع الشعر وأثره في حياة العرب العامة ، فقد بني الشعر لقوم
بيوتا شريفة ، وهدم لآخرين أبنية منيفة ، فهو كما قال القائل^(٣) :

وما هو إلا لقول يسري فتغتدي له غُررٌ في أوجه ومواسم

وقد سمع أبو عمرو بن العلاء رجلاً يقول : إنما الشعر كالميمس، فقال أبو عمر : وكيف
يكون؟ ذلك يذهب بذهاب الجلد ، ويدرس مع طول العهد ، والشعر يبقى على الأبناء بعد
الآباء، ما بقيت الأرض والسماء وقد عبر عن هذا المعنى الطائي^(٤) بقوله :

(1) المفضليات ص ٣٠٨ المشرفي : السيف . قَضَمَ : فلول من كثرة الطعن . السَّرْحَة العشاء : الشجرة
الخفيفة ، وهي شجرة معمرة .

(2) زهر الآداب جـ ١ / ١٩ .

(3) زهر الآداب جـ ١ / ٢٢ .

(4) زهر الآداب جـ ١ / ٢٣ .

وأني رأيت الوسم في خلق الفتى هو الوسم لا ما كان في الشعر والجلد وقد تغير فن الهجاء في الإسلام ، فقد ترك شعراء الإسلام بعض سلوك الجاهلية ، فكان الشاعر يرتدي حلة خاصة إذا أراد الهجاء ، تشبه حلل الكهان ، ويحلق بعض رأسه ، وينتعل نعلًا واحدًا ، فيشبه سدنة المعبد والحجيج ليرهب من يهجوّه ، وأنه سينزل عليه اللغات وشر عظيم .

وكان الشاعر يدعي أن لشعره فعل السحر ، وأنه سوف يدنس العرض وسيلحق الرجز والإثم وغير ذلك. ولكن شعراء الإسلام تعرضوا لسوء الخلق فيمن يهجونهم ، ويعيرونهم بالشرك وأن ميثاوم النار ، ويفتخرون بإيمانهم عليهم ، ويعيرونهم ببعض ما في أنسابهم ، وبعض سقطاتهم ، وما فيهم من فاحشة أو مظالم ، ولا يدعون فيهم ما ليس فيهم ، بل يهجون ما هو كائن فيهم ، ولا يطعنون في أعراضهم إلا ما طعن فيه ، ويتعففون عن البذاءة وسوء الخلق. وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]

نزل في هجاء شعراء المشركين والإباحيين وامتدح الله تعالى المؤمنين منهم فقالوا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] ، وقيل إن الله تعالى أُرخص للمؤمنين في هجاء من تعرض لهم من المشركين بمثل قولهم فليسوا من الغاوين .

وقد هجا المشركون النبي ﷺ أولاً بعد الهجرة ، وروى تميم الخزاعي أن رجلاً أتى النبي ﷺ ، فقال يا رسول الله ، إن أبا سفيان [بن الحارث بن عبد المطلب] يهجوك: فقال رسول الله ﷺ : اللهم إنه هجاني ، وإنني لا أقول الشعر ، فاهجه عني ، فقام إليه عبد الله بن رواحه ، فقال : يا رسول الله إيدن لي فيه ، فقال : أنت القائل: فثبت الله ما آتاك من حسن ؟ قال : نعم : قال : وإياك فثبت^(١) الله.

ثم قام إليه كعب بن مالك ، فقال : يا رسول الله إيدن لي فيه ، فقال : أنت القائل " هممت ؟؟ قال: نعم .

قال: لست له ، ثم قام حسان بن ثابت ، فقال: يا رسول الله ، إيدن لي فيه ، فقال قصيدة التي أولها^(٢) :

ألا أبلغ أبا سفيان عني مغلغة فقد برح الخفاء

(1) ارجع إلى : فتح الباري جـ ١٠ / ٦٢٥ والعقد الفريد ٥ / ٢٩٥

(2) ارجع إلى صحيح مسلم كتاب الشعر .

وقيل إن شعر حسان كان أقوى عليهم وهم مشركون فلما أسلموا، أوجعهم شعر عبد الله بن رواحة ، لأنه كان يعيرهم بكفرهم.

وقد وجه النبي ﷺ الشعراء من أصحابه ﷺ وسلم إلى أن يصيبوا من المشركين مثلما أصابوا منهم ، وألا يجوروا في أخذ الحق، فكانوا يردون عليهم قولهم بالمثل دون أن يكذبوا عليهم ، أو يصيبوا أحدا مما لم يؤذ المسلمين بلسانه أو بفعله بيد أن شعر شعراء المسلمين كان أقوى أثرا بما فيه من دعائم حجبية ولفظية واسلوبية.

وكان النبي ﷺ لا يبدأهم بالعدوان، ولا يستعديهم على المسلمين، بل هم بادروا بهجائه وهجاء المسلمين.

ونالوا من الإسلام، ولم يسب لهم عرضا ولا آلهة لئلا يسبوا الله تعالى:

﴿لَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فهم بدأوا المسلمين دخل من رجل من أهل اليمن مسجد الكوفة ، فإذا بعمار بن ياسر ورجل ينشده هجاء معاوية وعمرو بن العاص، وهو يقول: ألصق بالعجوزين [يريد معاوية وعمرا، أي سدد هجاءك إليهما وألصقه بهما] فقال الرجل: سبحان الله " أتقول هذا وأنتم أصحاب محمد ﷺ ؟ قال: إن شئت فاجلس، وإن شئت فذهب، فجلست، فقال: أدري ما كان يقول لنا رسول الله ﷺ لما هجانا أهل مكة ؟" قال لا أدري. قال: " كان يقول لنا: قولوا لهم مثل ما يقولون لكم ^(١) ".

وقد جاء في بعض السور المكية قبل الهجرة نقد لاذع وذم لما كان عليه المشركون من وثنية وخلق مشين ومظالم لا يتورعون عنها.

وكان لها وقع شديد على أنفسهم فاق أثر الشعر فيهم، وقد خص القرآن الكريم ابا لهب وزوجه، قال تعالى:

﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْمِي لَهَيْ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَيْ (٣) وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ [المسد].

(1) ارجع إلى فتح الباري جـ ١٠ / ٦٢٥، والعقد الفريد جـ ٥ / ٢٩٥ وكان عمار بن ياسر حليف على رضي الله عنهما في الفتنة، وقتل فيها ، وقتلته فنة معاوية رضي الله عنه ، فعلم الناس أنها الباغية لقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمار في حفر الخندق " تقتلك الفتنة الباغية " .

وروى أن أم جميل حمالة الحطب زوج^(١) أبي جهل حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ، وهو جالس عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر^(٢) من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر: أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعره، ثم قالت:

مُدَّ مَمًّا عَصِينَا وأمره أبينا ودينه قلينا

ثم انصرفت، فقالت أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ فقال ما رأتني لقد أخذ الله ببصرها عني^(٣). وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ مذمما ثم يسبون، فكان رسول الله ﷺ يقول: "ألا تعجبون لما صرف الله عني من أذى قريش، ويسبون ويهجون مذمما، وأنا محمد^(٤)". فحمل معنى الذم على غيره ولم يحمله على نفسه، فليس مذمما بل محمداً، وكانت قريش تقصده به، فلم يحمله على نفسه.

وكان المشركون يعدون تعريض القرآن بهم وذمهم هجاء. فقد أكد الروايات أن أم جميل تأذت من ذم القرآن لها وغيرها الناس بذلك، وعدت ما نزل به القرآن هجاء، روى أنها قالت: "يا أبا بكر هجاني صاحبك، قال: لا ورب هذا البنية، ما ينطق بالشعر ولا يفوه به، قالت: "إني لمصدق"^(٥).

وقد نزلت آيات أخرى في ذم بعض المشركين ومنها قوله تعالى: ﴿عُتِلَّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ [القلم: ١٣] قيل نزلت في الوليد بن المغيرة وقيل الأسود بن عبد يغوث، وقيل الأخنس بن شريق، وقيل غير ذلك، وزنيم: المعروف بالشر، وقيل المعلق في القوم ليس منهم أو من ادعي نسباً^(٦).

(1) فتح الباري كتاب التفسير ج ٨ / ٦٥١ - ٦٥٢، والزمخشري في الكشاف ج ٤ / ٦٤٨. وأبو لهب: عبد العزى بن عبد المطلب، عم النبي صلى الله عليه وسلم، وقد طلب منه أخوه أبو طالب أن يعضد ابن أخيه محمد ففعل بعد موته، ولكنه كرهه عندما سألته عن آيائه، فقال على غير دين، فغضب لذلك وعاداه، وقد مات غماً بعد بدر.

(2) الفهر: حجارة على مقدار ملء الكف.

(3) السيرة ج ١ / ٣٧٩ وأم جميل: العوراء بنت حرب بن أمية — قلينا: أبغضنا.

(4) رواه البخاري.

(5) رواه البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما، فتح الباري ج ٨ / ٦٥٣ وروى عن زيد بن أرقم أنها قالت للنبي ﷺ: "هل رأيتني أحمل حطبا، أو رأيت في جيدي حبلا" وذلك لما قيل لها إن محمداً هجاك.

(6) فتح الباري ج ٨ / ٥٦٦ وقال الشاعر: زنيم ليس يعرف من أبوه.

وقد عددت الآيات خصال الذم: ﴿وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَاْفٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّا زِ مَشَاءَ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَامٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣)﴾ [القلم] وهذه مثالب ونقائص وأشدها على من قيلت فيه (زنيم) و تعني دعى ، وقد جاء في بعض الروايات أنها نزلت في الوليد، وقيل عنه إنه كان دعى ادعاه أبوه بعد مولده، وقيل غير ذلك ، وقد هجاه حسان رضي الله عنه بذلك فقال:

وأنت زنيمٌ يَنْيِطُ في آل هاشم كما نيِطُ خلف الراكب القدح الفرد

يقول : وأنت دعى ملحق ببني هاشم تذكر في آخرهم ، كما يأتي القدح خلف الراكب لا يذكر إلا عند الحاجة إليه^(١). وقال للوليد بن المغيرة أيضاً^(٢):

مَتَى تُنْسَبُ قُرَيْشٌ أَوْ تُحْصَلُ فَمَا لَكَ فِي أُرُومَتِهَا نِصَابُ^(٣)
نَفْتَكُ بَنُو هُصَيْصٍ عَنْ أَبِيهَا لَشَجَعٍ حَيْثُ تُسْتَرْقُ الْعِيَابُ^(٤)
وَأَنْتَ ابْنُ الْمُغِيرَةِ ، عَبْدُ شَوْلٍ قَدْ أُنْدَبَ حَبْلَ عَاتِقِكَ الْوُطَابُ^(٥)
إِذَا عَدَّ الْأَطْيَابُ مِنْ قُرَيْشٍ تَلَاَقَتْ دُونَ نَسَبَتِكُمْ كِلَابُ^(٦)
وَعِمْرَانَ بْنِ مَخْزُومٍ فَدَعَهَا هُنَاكَ السَّرُّ وَالْحَسَبُ اللَّبَابُ^(٧)

وكان حسان يسل الرجل من مشركي قريش ، فيجعله وحيداً ، ثم يسدد سهامه إلى ذات الرجل دون أن يصيب شيئاً من نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيذكر أبويه وما لهم من نسب دخيل على قريش ، فيصفه بالجبن والبخل ، والتقاعس والخسة قال حسان في هجاء بني سهم بن عمرو^(٨):

(1) ارجع إلى الكشاف جـ ٤ / ٤٤٢ ، ٤٤٣

(2) قال محقق الديوان : لا نعلم إن كان الوليد بن المغيرة أبو خالد بن الوليد نفسه أو ابنه الوليد بن الوليد بن المغيرة أخو خالد بن الوليد ؟ أما الوليد بن الوليد بن المغيرة المخزومي فقد حضر معركة بدر مع المشركين وأسر ، وافتداه أخواه هشام وخالد وبعد الفداء أسلم . الديوان ص ٦٠ .

(3) تحصل : تميز أو تبين — الأرومة : بضم الهمزة وفتحها : الأصل ، وكذلك معنى النصاب .

(4) هو هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب — شجع : قبيلة من كنانة وتسترق من السرقة ، والعياب جمع عيبة ؛ أو عيبة من الجلد توضع فيها الثياب .

(5) عبد شول : راعي إبل — أندب : ترك فيه ندبة ، وهو أثر جرح باق في الجلد ، العاتق : ما بين المنكب والعنق ، الوطاب : سقاء اللبن ، يقول حسان : إنه راع يحمل الوطاب على عاتقه فأثر ذلك فيه .

(6) الأطياب : الخيار جمع أطيبي ، والمعنى واضح

(7) السر : المروءة والكرم والفضل ، الحسب اللباب : الخالص غير المشوب .

(8) الديوان ص ١٣٦ .

لولا النبي، وقول الحق مغضبة لما تركت لكم أنثى ولا ذكراً وجاء في الحديث أن النبي ﷺ كان يأمر حسان أن يذهب إلى أبي بكر فيتزود منه ببعض هنات المشركين ونقائصهم ، ويعلم منه أنسابهم ، وقد حدث ذلك في هجاء حسان أبا سفيان بن الحارث ، فلما سمع أبو سفيان هجاء حسان علم أنه اطلع على عورته مما علمه من أبي بكر ﷺ، فحسان لم يك عالماً بما تخفيه قريش عن نفسها، وليس عليه إلا أن يصيغ هذه المضامين شعراً، وقد استطاع حسان أن يدرك دوره في المعركة وأن يتخير آلة الحرب التي تصيب هدفها وقد كان دقيق الملاحظة فكان لا يخطئ هدفاً، وكانت تصويباته ترضي رسول الله ﷺ ، وقد شفي حسان بهجائه المشركين وأشفى صدر رسول الله ﷺ ، وكان النبي ﷺ يحثه على هجائهم ومهاجتهم ، وأبلغه أن جبريل معه ، وهو ينافح عن رسول الله ﷺ.

وكان يشاركه في هجائهم كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، وكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر وينسبهم إليه وأنه ليس فيهم أشر من الكفر ، فكان شعر حسان وكعب أشد عليهم في كفرهم ، فلما أسلموا كان شعر بن رواحة أشد عليهم من شعر حسان وكعب^(١).

وكان حسان واعياً بما لشعره من دور في الصراع بين الإسلام والمشركين ، فالشعر سلاح آخر في المعركة ، وله أثر غائر لا يمحي بمرور الزمن ، فجرح اللسان ليس كجرح اليد ، قال حسان معرضاً بالمشركين^(٢):

لنا في كل يوم من معد سباب أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوافي من هجائنا ونضرب حين تختلط الدماء

فالشعر كان يجاسر السلاح في المعارك ، وكان له فيها ضرب السيف ووقع النبل . ولقد أذن النبي ﷺ الشعراء المسلمين في الرد على هجاء المشركين بعد أن آذوا المسلمين ونالوا من أعراضهم ، فروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول صلى الله عليه وسلم قال : اهجوا قريشاً ، فإنه أشد عليها من رشق النبل ، فأرسل إلي ابن رواحة ، فقال أهجم ، فلم يرخص ، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت ، فلما دخل عليه ، قال حسان : آ ن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بنبيه ثم أدع لسانه

(1) ارجع إلي الأغاني جـ ٢٨/ ٥ .

(2) الديوان ص ٥١ .

فجعل يحركه، فقال : والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فرأى الأديم^(١) . فقال رسول الله ﷺ: لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسائها، وإن لي فيهم نسباً حتى يلخص لك نسبي ، فاتاه حسان ثم رجع ، فقال يا رسول الله قد لخص لي نسبك ، والذي بعثك بالحق لأسئلك منهم كما تسأل الشعرة من العجين ، قالت عائشة، فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان: " إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله"، وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "هجاهم حسان فشفي واشتفى". قال حسان: [مخاطبا شاعر المشركين، ولم تذكره الراوية، وجاء في أخرى أنه أبو سفيان بن الحارث]^(٢):

هجوتَ محمداً فأجبت عنه	وعند الله في ذاك الجزاء ^(٣)
هجوتَ محمداً براً حنيفاً	رسول الله شيمته الوفاء
فإن أباي ووالده وعرضي	لعرض محمد منكم وقاء
ثكلتُ بُنيّتي إن لم تروها	تثير النقع من كنفي كداء
يُباربن الأعنة مُصعدات	على أكتافها الأسل الظماء
تظل جياذنا متمطرات	تلطمهن بالخمر النساء
فإن اعترضتمونا عنا اعتمرنا	وكان الفتح واكتشف الغطاء
وإلا فاصبروا لضراب يوم	يُعز الله فيه من يشاء
وقال الله قد أرسلت عبداً	يقول الحق ليس به خفاء
وقال الله قد يسرتُ جنداً	هم الأتصار عرّضتها اللقاء

(1) الرشق : الرمي ، وهو اسم للنبل التي ترمى دفعة واحدة - النكاية : الإغلاظ ، آن لكم : حان لكم : الذنب يراد به : اللسان ، شبه حسان نفسه في انتقامه بالأسد في انتقامه ويطشه إذا اغتاظ ، فيضرب بذنبه جنبه = كما فعل حسان حين أدلع لسانه ، فجعل يحركه فشبه نفسه بالأسد ولسانه بذنبه ، ودلع لسانه وأدله ودلع اللسان بنفسه: أخرجه عن شفتيه - فرأى : مزق ، الأديم : الجلد ، يروى : لأمزقن أعراضهن تمزيق الجلد .

(2) كان أبو بكر رضي الله عنه عالماً بالأنساب ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلم حسان نسبه من أبي بكر لئلا يصيبه بهجانه ، وأقسم حسان ألا يمس نسبه بسوء ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم حسان أن جبريل عليه السلام يؤيده في دفاعه عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد أرضى حسان النبي صلى الله عليه وسلم وشفى صدره وطيب نفسه وأرضاها ، واشتفى بما ناله من أعراض المشركين فمزقها كما يمزق الجلد ، ونافح عن الإسلام وأهله .

(3) ديوان حسان ص ١٧ وهي قصيدة طويلة روى الإمام مسلم بعضاً منها، ولم تأت المقدمة في رواية مسلم، وهي مقدمة غزلية خمرية.

يلاقي كلَّ يومٍ من معدٍّ سِبَابٌ أو قِتَالٌ أو هِجَاءٌ
فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحُه وينصره سَوَاءٌ
وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء^(١)

وقد رواه مسلم برواية أخرى عن عائشة رضي الله عنها أن حسان رضي الله عنه استئذن النبي ﷺ في هجاء أبو سفيان بن الحارث ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "كيف بقرابتي منه" ؟ ، قال: والذي أكرمك لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من الخميرة ، فقال حسان^(٢):

وإن سنام المجلد من آل هاشم بنو بيت مخزومٍ ووالدك العبد
وبعده بيت لم يروه مسلم ، وبه تتم الفائدة ، وهو :

ومن ولدت أبناء زهرة منهمو كرام ولم يقرب عجائزك المجد

وهذه القصيدة في رواية ابن هشام ثمان وعشرون ، وهي الرواية التي اعتمدنا عليها في الشرح.

(1) معاني الكلمات : حنيفا : المائل إلى الخير ، وقيل التابع لملة إبراهيم - شيمته الوفاء : خلقه الوفاء ، والبر: من البر وهو المتسع في الإحسان ، تثير النقع : ترفع الغبار وتهيج ، ويريد شدة السيرة وكثرة الجند ، كنفي كداء : جانبي كداء وكداء موضع بمدخل مكة ، بيارين الأعنة : يريد الخيل الشديدة الصارمة التي تنازع راكبيها ، وقيل إن قوامها واعتدالها تضاهي به الأسنة في رواية بيارين (الأسنة) وهي الرماح ، وفي رواية بيارعن الأعنة ، مصعدات : مقبلات إليكم ومتوجهات ، وأصعد في الأرض : إذا ذهب فيها مبتدأ أو لا يقال للراجع مصعد ، على أكتافها الأسل : فوق أكتافها الرماح الرقاق - الظمء : الرقاق : يريد أنها تريد أن ترتوي من شدة عطشها من دماهم ، ممطرات : مسرات بعضها يسبق بعض .

(2) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه ج ١٦ / ٤٧ — وبنت مخزوم فاطمة بنت عمرو بن مخزوم أم عبد الله والزبير وأبي طالب ، وهي جدة النبي لأبيه ، وقد ولدت هاله بنت وهب بن عبد عناف بن زهرة حمزة وصفية رضي الله عنها ، وأم الحارث والد أبي سفيان سمية بنت موهب ، وموهب غلام لبني عبد مناف ، يريد أنه من نسب العبيد .

وقد بدأها حسان رضي الله عنه بمقدمة غزلية أولها :

عفت ذات الأصابع فالجِواء^(١) إلى عذراء منزّلها خلاء

واستغرقت عشرة أبيات ، ثم دخل في موضوع القصيدة ، وقد ذكر فيه العمرة والفتح ، وهذا يحدد لنا زمن قيلها قبيل الفتح ، وقد تناول الفتح ثم مدح المسلمين ثم خص قومه الأنصار بالمدح فوصفهم بالشجاعة والإقدام ، وأنهم نصرّوا رسول الله ، والوحي ينزل فيهم ، ثم هجا أبا سفيان بن الحرث ، ونذكر لك القصيدة كاملة للتمتع بها الفائدة ، قال حسان رضي الله عنه^(٢) :

عَفَتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجِوَاءُ	إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلَاءُ ^(٣)
دِيَارٍ مِنْ بَنِي الْحَسَّاسِ قَفْرٌ	تُعَفِّهَا الرِّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ ^(٤)
وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنْيْسٌ	خِلَالَ مُرُوجِهَا نَعْمٌ وَشَاءُ ^(٥)
فَدَعَ هَذَا وَلَكِنْ مِنْ لَطِيفٍ	يُورِقُنِي إِذَا ذَهَبَ الْعِشَاءُ ^(٦)
لِشَعْنَاءَ الَّتِي قَدْ تَيَمَّمَتْهُ	فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مِنْهَا شِفَاءُ ^(٧)
كَأَنَّ خَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ	يَكُونُ مَزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءُ ^(٨)

(1) الجِواء موضع بالشام . وهو منزل الحرث بن أبي شمر الغساني ، وعذراء: مكان قريب من دمشق .

(2) ارجع إلى ديوان ، تحقيق وليد عرفات ، صادر ، بيروت ص ١٧ ، السيرة النبوية ج ٤ / ٤٤ ، ٤٥

(3) عفت : درست وتغيرت ، وذات الأصابع ، والجِواء : موضعان في بلاد الشام بأكناف دمشق ، وعذراء : موضع على بريد من دمشق ، وهذه المواضع كانت بها منازل بني جفنة ملوك غسان الذين كان يستجمعهم حسان رضي الله عنه في أيام الجاهلية ، فهو لا يفتأ يذكرها ، ومنزلها : إنما أفرد ؛ لأنه حين أضافه فقد آذن بعمومه ، وخلاء : قفر خال .

(4) الحساس هنا وصف وليس علما ، والحساس : الرجل الجواد الذي يطرد الجوع بسخائه ، وقفر : موحشة خالية ، والروامس : الرياح التي تثير التراب فترمس به الآثار : أي طمسها وتعفيها ، والسماء : أراد به هنا المطر .

(5) المروج : جمع مرج ، وهو الأرض الواسعة ذات الكلأ ، والنعم : الإبل ، وهم يخصون الإبل بهذا الاسم ؛ لأنها أكثر أموالهم ، والشاء : الغنم .

(6) الطيف : الخيال الذي يلح في النوم ، ويورقني : يسهرني ويذهب نومي وقوله " إذا ذهب العشاء " أراد إذا حان موعد النوم .

(7) شعناء : قيل هي بنت سلام بن مشكم ، وقيل : هي امرأة من خزاعة ، وأراها رمزاً تقليدياً لاتعنى امرأة معروفة ، وتيمته : أي استولت على قلبه وذلته وذهبت به كل مذهب .

(8) خبيئة : مخبوءة ، ويروي في مكانه " سينة " ، والمراد على أية حال الخمر ، وبيت رأس : موضع بالأردن مشهور بالخمر ، وفي الديوان بعد هذا البيت قوله :

على أنيابها أو طعم غُضٍّ من التفاح حصرة الجناء

إِذَا مَا الْأَشْرُ بَاتُ ذُكِرْنَ يَوْمًا فَهِنَّ لَطِيبَ الرَّاحِ الْفِدَاءُ^(١)
نُؤْلِيهَا الْمَلَامَةَ إِنْ الْمَنَّا إِذَا مَا كَانَ مَغْتًا أَوْ لِحَاءُ^(٢)
وَنَشْرِبُهَا فَتَتْرُكْنَا مُلُوكًا وَأَسْدًا مَا يُنْهِنُنَا اللَّقَاءُ^(٣)

بدأ حسان رضي الله عنه بمقدمة طليله بكى فيها ديار بني الحسحاس التي كانت تسكنها حبيبته "شعثاء"، وقد تيمت قلبه وأرقت نومه ، وليس لقلبه من حبها شفاء ، وقد لجأ إلى الخمر الممزوجة بالعسل والماء يتداوى بها من ألم حبها. فإذا شربها غاب عن وعيه ونسى ما به من ألم الحب وأعطيته شعورا واهماً أنه صار ملكا على الناس ، وأسداً في المعركة فلا يهاب لقاء العدو. وقد أثارت هذه المقدمة جدلاً بين العلماء لما ذكر فيها من غزل في شعثاء التي قيل عنها إنها بنت سلام بن مشكم اليهودي ، وقيل هي من خزاعة ، والمتفق عليه أن ذلك قبل إسلامه وذكر الخمر وأثرها في نفسه عندما يشربها ، وهي مما حرمه الإسلام ف قيل إنها قيلت في الجاهلية وأكملت في الإسلام .

وأرى أنها ليست إلا تقليداً لما كانت عليه افتتاحية القصيدة في الجاهلية ، وهي مثل الافتتاحات الدينية التي ابتدأ بها القصاص قصصهم في الإسلام ، وليست إلى تمهيدا للدخول إلى موضوع القصيدة، ولم ترو كتب الحديث هذه المقدمة.

وقد أحسن حسان التخلص منها ، ودخل إلى موضوع القصيدة ، فالخمر تتركهم ملوكاً وأسداً في المعارك لا يهابون لقاء العدو ، ثم قال موجهاً خطابه إلى مشركي مكة :

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تَتَّيْرُ النَّفْعَ مَوْعِدَهَا كِدَاءُ^(٤)
يُنَازِعَنَّ الْأَعْنَةَ مُصْغِيَات عَلَى أَكْتَاْفِهَا الْأَسْلُ الظَّمَاءُ^(٥)
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطَّرَات يُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمْرِ النَّسَاءُ^(٦)

(1) يريد إذا ذكرت الاشربة فهذه الخمر أفضلها .

(2) ألما : أتينا ما نلام عليه ، والمغث : الشر والقتال ، وهو الأخذ باليد ، واللحاء : السباب والشتم ، يقول : إننا ننسب إلى الخمر ما يكون منا إذا شربناها مما يستحق اللوم .

(3) ينهننا : يزعجنا ويردنا ، واللقاء أراد به لقاء الأعداء ، والمراد أنهم إذا شربوها لم يهابوا لقاء العدى .

(4) النفق : العبار ، وكداء : الثنية العليا بمكة ، مما يلي المقابر ، وهي المعلى .

(5) ينازعن بروي في مكانه (بيارين) والمراد أن الخيل تجاري الأعنة . وذلك كناية عن لينها وسرعة

انقيادها، ومصغيات: مستمعات ، يروى في مكانه (مصعدات) والأسل : الرماح ، الظلماء: العطاش .

(6) متمطرات : ذاهية مسرعة يسبق بعضها بعضا، وتلطمهن: تضرب خدودهن لتردهن، والخمر: جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة وجهها، وقد روى أن نساء مكة يوم الفتح ظلن يضربن بخمارهن وجهه الخيل ليرددهن.

وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغَطَاءُ^(١)
يُعِينُ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ^(٢)
وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءٌ^(٣)
يَقُولُ الْحَقُّ إِنَّ نَفْعَ الْبَلَاءِ^(٤)
فَقُلْتُمْ لَا نَقُومُ وَلَا نَشَاءُ^(٥)
هُمُ الْأَنْصَارُ عُرِضَتْهَا اللَّقَاءُ^(٦)
سَبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هَجَاءٌ^(٧)
وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلُطُ الدِّمَاءُ^(٨)
مُغْلَغَةٌ فَقَدْ بَرَحَ الْخَفَاءُ^(٩)
وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الْإِمَاءُ^(١٠)
وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْجَزَاءُ^(١١)
فَشَرَكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ^(١٢)
أَمِينَ اللَّهُ شَيْمَتُهُ الْوَفَاءُ^(١٣)
وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ^(١٤)
لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ^(١٥)

فَإِمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا
وَالْأَفْصَحُ لَجَلَادٍ يَوْمُ
وَجَبْرِيلُ رَسُولُ اللَّهِ فِينَا
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَدَقُوهُ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ سَيَّرْتُ جُنْدًا
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍ
فَنَحْكُمُ بِالْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا
أَلَا أَبْلَغُ أَبَا سَفْيَانَ عَنِّي
بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَّتْكَ عَبْدًا
هَجَوْتُ مُحَمَّدًا وَأَجَبْتُ عَنْهُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكُفٍ
هَجَوْتُ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا
أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ
فَأَنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعَرَضِي

- (1) اعتمرنا : أدبنا مناسك العمرة ، وانكشف الغطاء : ظهر ما كان خفياً .
- (2) الجلال : المضاربة بالسيف ، وقوله "يعين الله" يروى في مكانه "يعز الله" .
- (3) أصل القدس طهارة ، والمراد بروح القدس جبريل عليه السلام ، وليس له كفاء : أي ليس له مثل ولا نظير ، يريد لا يقوم له أحد .
- (4) أراد بالعبد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، البلاء : الاختبار .
- (5) عرضتها اللقاء : أراد عاداتها التي جرت على أن تتعرض لعملها .
- (6) نحكم : نمنع ، ومنه قول جرير :-
أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم
إني أخافُ عليكم أن أغضبا
- (7) مغلغة : الرسالة ترسل من بلد إلى بلد ، وقد روى في الديوان : ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوف نخب هواء والمجوف : الجبان ، وأصله خالي الجوف ، والنخب والهواء مثله .
- (8) الجزاء المكافأة على الشيء ، سواء أكان خيرا أم شرا ،
- (9) الحنيف : أصله المائل ، مأخوذ من الحنف ، ويقال رجل أحنف وحنيف ، ورجال حنفاء ، و أراد بالحنيف هنا المسلم ، لأنه مال عن الباطل إلى الحق ، ويروي في مكانه (حفي) ، وهو المبالغ في الشيء والبحث عنه ، وشيمته : طبيعته .
- (10) يريد أمن يهجو رسول الله ومن يمدحه سواء ؛ بدليل الأخبار عنه بسواء التي لا يخبر بها إلا عن متعدد ؛ فحذف الاسم الموصول المعطوف على الموصول وأبقى صلته .

لِسَانِي صَارِمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ وَبَحْرِي لَا تُكَدِّرُهُ الدَّلَاءُ^(١)

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ ، وكان يؤذيه ويؤذي المسلمين ويهجوهم ويهجو المسلمين ويقلب عليه المشركين فاستنذنه حسان في الرد عليه وهجائه ، فأذن له على ألا يصيب قرابته منه .

فمدح حسان من آل هاشم بني بنت مخزوم ، وهي أم عبد الله أي النبي صلى الله عليه وسلم والزيبر ، وأبي طالب أبي على رضي الله عنه ، وهما عما رسول الله ﷺ :

وأم والد أبي سفيان بن الحارث هي سمية بنت موهب ، وكان موهب غلام لبنى عبد مناف وأم أبي سفيان كانت كذلك ، وهو المراد بقوله لم يقرب عجائزه ، فأمه وأم أبيه ابنتا عبدین . وقد تلتطف حسان رضي الله عنه في هجائه ولم يصب من نسب أبي سفيان شيئا له صلة بنسب رسول الله ﷺ^(٢) .

الشرح : قال حسان مخاطبا شاعر المشركين : هجوت محمدا ، وقد دافعت عنه ، وأبغى بذلك الجزاء من الله تعالى ، ومحمد الذي هجوته هو البر المحسن الذي اجتمع الخير فيه والمنتزه عن المآثم ، والمستقيم المائل إلى الخير على ملة إبراهيم عليه السلام . وقد جعلت أبي وجدي وعرضي وفاء للنبي صلى الله عليه وسلم وأفيه بهم ، فجعلتهم وكل أمرى عرضة للذم فداء له .

ودعا على نفسه بفقد ابنته التي يحبها إن لم تدهمهم جيوش عظيمة تثير التراب والغبار لكثرتها تدخل عليكم مكة من كداء (باب من أبواب مكة) . ولن يصدها عنكم شيء ، ولن ترجع عنكم فهي ظمأي ، وتريد أن ترتوي من دمائكم ، وهذه الخيل تحمل على ظهورها رجال أصلاب أقوياء كالرماح ، وسوف تزيل النساء التراب بعد أن نوقع بكم هزيمة منكرة ، فهي خيل عزيزة كريمة . وليس أمامكم إلا أن تتركونا نعتمر ونفتح مكة وينجلي الأمر ، فإن لم تسلموا لنا وتقبلوا الفتح ، فاصبروا لحربنا وسوف يعز الله من يشاء .

ولقد أرسل الله تعالى نبيه وهو عبد من عباده يقول الحق دون مراء ، ومدح الشاعر قومه الأنصار فقال :

(1) أصل الصارم السيف القاطع ، فشبه به لسانه ، ويروي : " لسانِي صارم لا عيب فيه " .

(2) وهو المراد من قوله " لأسلنك منهم كما تسل الشعر من الخمير ، والخمير العجين وجاء بهذا اللفظ في رواية أخرى أي لا تلطفن في تخلص نسبك من هجوه بحيث لا يبقى جزء نسبك في نسبهم الذي ناله الهجوم مثل الشعرة التي تسل من العجين ، لا يبقى منها شيء فيه بخلاف ما لو سلت من شيء ، صلب فإنها بما انقطعت منها فيه بقية . شرح النووي لصحيح مسلم ج ٨/١٦ .

وقد هيا الله تعالى لكم جنده الأتصار وهم جند يقبلون على الحرب ولا ينصرفون عنها ويحبون لقاءكم ، وهذا الجند يجاهد مشركي العرب ، ويلقي منهم السباب والقتال والهجاء لما يحدثه فيهم ، وليس مدحك رسول الله أو هجاؤكم بشيء .
فقد شرفنا الله تعالى بنزول جبريل الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم وهو منا وليس لجبريل عليه السلام نظير وكفاء مماثل ومقاوم فيكم .

وقال يهجو أبا سفيان بن الحارث :

إِنَّ السَّنَامَ وَإِنْ طَالَتْ شَطِيتُهُ يَعْتَادُ ذُرْوَتَهُ الْأَدْوَاءُ وَالْعَمْدُ^(١)
فَاللُّؤْمُ فِيكَ وَفِي سَمَرَاءَ مَا بَقِيَتْ وَفِي سَمِيَّةَ حَتَّى يَنْفَدَ الْأَبْدُ^(٢)

وقد أوجع المشركين بهجائه فجعل الرجل منهم طائرا غريبا أو غصنا مريضا ضعيفا يهوى ، ثم يسد أسهمه إلى الرجل منهم فما يقوم له ولا يثبت ، فتعرض لأخلاق الرجال فمزقها تمزيقا وأقذع القول فيهم ، فتألموا من وقع قوله ، وقد أغراه بهم صدق إيمانه ويقينه بالحق ، وحبه لله تعالى ورسوله ورضى رسول الله ﷺ عنه ، وسروره بشعره فيهم .

وكان لليهود نصيب من هجاء شعراء المسلمين، فقد شاركوا المشركين في عداوة الإسلام، قال حسان في خبير يهجوهم، ويعيرهم، وقد هزمهم المسلمون بها هزيمة منكرة^(٣).

بئس ما قاتلت خيابرُ عما جَمَعُوا مِنْ مَزَارِعٍ وَنَخِيلٍ
كرهوا الموت فاستبيح حماهم وَأَقْرُوا فِعْلَ اللَّئِيمِ الدَّلِيلِ
أمن الموت تهربون فإن الـ موتَ موتِ الهُزَالِ غَيْرُ جَمِيلٍ

ويتميز شعر حسان بأنه ذو مسحة مدنية، فهو من يدخل في شعر أهل الحضر، فلا تجد فيه جلافة البادية وغلظتها وتكلفها، وغرابة ألفاظها ووحشيتها، فقد عاش حسان في يثرب، ثم الشام ثم العراق ثم عاد إلى الشام، فقد عاش في كنف الملوك والسادة وبين قومه الخزرج، وقد شاركهم في حربهم مع الأوس ولم يك مقاتلاً ولا من رجال الغزو، وإنما أخلص نفسه للشعر بيد أن ابن رواحه كان فارساً محارباً ثم شاعراً، وكان كعب بن مالك كذلك - رضى الله عنهم - وقد تأثر في الإسلام بالمضامين الإسلامية والقرآن الكريم وخطاب النبي ﷺ، وتأثر بالروح الإسلامية التي أظلت المسلمين وسكنت قلوبهم، فوقع في

(1) شطيته : جانبه .

(2) سمراء : أم الحارث بن عبد المطلب - وسمية : أم أبي سفيان .

(3) السيرة جـ/ ٤٠١/٣ .

شعره معاني قرآنية، ووظف فيه تراكيب قرآنية وولد معاني جديدة، وبه كثير من الألفاظ الإسلامية، وهي ألفاظ وقعت في لغة الجاهلين، واستخدمت في الإسلام بمعان جديدة، مثل : الإسلام، والكفر، والإيمان، العقيدة، الصلاة، الشريعة، النفاق، الصيام، الزكاة، الدعاء، النافلة، الحج، الشرك، الوثنية، الجهاد، الثواب، العقاب، الجنة، النار، القيامة، البعث... وغير ذلك من المفردات التي كساها الإسلام معنى جديداً فطور من دلالتها ووسعها ناهيك عما في قصائده من مضامين إسلامية تتعلق بالإيمان والتوحيد والشرك والموت والجنة والنار والجهاد .

وقد كان يرسل الشعر على سجيته فلا يتكلف، ولا يسرف في القول، فكان يرتجل شعره متأثراً بالموقف، فيستجيب له فيرسله على ما توحى به قريحته، ويرجع ذلك إلى طبيعة الموقف وسرعة الحدث وما أحدثه الإسلام من تغيير مفاجئ في حياة الناس، وكانت الحماسة الدينية تدفع حسان إلى الإسراع بالقول الذي تفيض به قريحته ، وكان صادقاً في إيمانه.

وكانت انفعالاته سبباً في انتقاله السريع من مقدمته أحياناً إلى الموضوع الرئيس، فكان الشاعر يطبل في مطلع القصيدة (المقدمة)، ويسترسل في موضوعها وما يصفه بيد أن حسان كان يمل هذا الطول ويلقي به، ويدخل في الموضوع:

واتخذ بعض المحدثين الانتقال السريع في شعر حسان مطعناً ، فقالوا إن قصيدته غير مرتبة أحياناً، وقد يكون بها خلل، وتفتقد إلى التسلسل المنطقي، وهذا شأن كثير من الشعر، وقد وقع اختلاف في ترتيب قصائد الشعر، في بعض الروايات، وقد وقع هذا في شعر مدرسة الصنعة، وسوف تجد في كتابنا إشارات إلى وقوع زيادات واختلاف في ترتيب قصيدة "بانت سعاد"، وهي لكعب بن زهير، وهو الرجل الثاني في مدرسة زهير التي كانت تراجع أشعارها وتحوكة وتحسنه وتصلح منه، وعرف عنها الدقة، وقصيدته التي مدح فيها الأنصار فيها زيادات واختلافات كثيرة، وقد دس عليه ما لم يقله.

وحمل على حسان بعض الدنيويين حملة شعواء، وهدفهم هدم المنزلة التي حظى بها عند رسول الله ﷺ، وعند المسلمين عامة، وإن كان شعره ضعيفاً عند قوم فهو عند رسول الله ﷺ جيش فتاك، وكان على المشركين كوقع النبل جملة واحدة.

إن حسان مؤسس مدرسة الشعر الديني، وقد أقام الحجاج والمناظرة في الإسلام بشعره، وهو أيضاً الذي جعل للشعر غاية دينية يبتغي بها وجه الله ورضاه. وقد كان وحدة كفناً لشعراء المشركين جميعاً، فقد كان شعره أشد عليهم من السيف، وكان النبي ﷺ يعرف له ذلك .

الحماسة

الحماسة هي الشجاعة والشدة، ويراد بشعر الحماسة الشعر الذي يقال في الحروب يشد من أزر الجنود، ويقوي عزمهم ويدفع همتهم، فما وصف به من الشجاعة والشدة في الحرب يسمى حماسة وبسالة .

وقد بدأ شعر الحماسة في الجاهلية في القصائد التي قالتها العرب في أيامها وفخرها بالوقائع التي انتصرت فيها .

ويشكل الرجز جزءاً من شعر الحماسة، فقد ارتجز كثير من فرسان العرب، وهم في طريقهم إلى لقاء العدو، وهم يقاتلونه، وهو أبيات قليلة يرتجلها صاحبها من فيض خاطره وما يختلج فيه من مشاعر جياشة ويعيش لحظة صدق في لقاء العدو أو في موقف أو في ضائقة .

وقد صح عن النبي ﷺ شئ من ذلك، ومنه ما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه: رأيت النبي ﷺ والعباس وأبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهما آخذان بلجام بغلته، وهو يقول: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب^(١)

وروي عن سفيان بن عيينة يرفعه إلى النبي ﷺ، أنه لما دخل الغار نكب، فقال: هل أنت إلا إصبع دميّ وفي سبيل الله ما لقيت^(٢).

وكان النبي ﷺ ينقل اللبن يوم الخندق ويقول :

(1) صحيح البخاري ، كتاب المغازي في غزوة حنين .

(2) العقد الفرید جـ ٥ / ٢٨٣ .

وقد رأى الخليل بن أحمد وابن عبد ربه أن هذا من المتنور الذي يوافق الشعر، وقيل: هذا رجز وليس من أقسام الشعر، وقيل هو كلام موزون لا يقصد به الشعر، ولا يبلغ مقدار القصيدة. فتح الباري — ٦٣٠/٧ وهذان البيتان لم تقع نسبتهما لأحد غير رسول الله ﷺ.

هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالَ خَبِير هَذَا أُبْرُ رَبَّنَا وَأُطَهَّر^(١)

ويقول:

اللهم إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَةِ فارحم الأتصار والمهاجرة
وقيل إنه تمثل بشعر رجل من المسلمين. وقال قائل من المسلمين في الخندق:
لئن قعدنا والنبي يعمل ذاك إذا للعمل المضلل
وقال علي عليه السلام في ذلك^(٢):

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعدا

ومن يرى عن التراب حائدا

وكان علي عليه السلام يرتجز إذا برز إلى القتال ويقول^(٣) :

أي يوم من الموت أفرُّ يوم لا يُقدر أم يوم قدر
يوم لا يُقدر لا أرهبه ومن المقدور لا يتجو الحذر
وقال أبو زعنة بن عبد الله الخزرجي يوم أحد^(٤) :

أنا أبو زعنة يعدو بي الهُزم لم تمنع المخزاة إلا بالآلم

يحمي الذمار خزرجي من جُشم

افتخر بنفسه وبفرسه (الهُزم) الذي يعدو به في الحرب، ولا يمنع الإنسان عن نفسه
العار إلا بمواجهة العدو وبالمعاناة والألم .

وكان لأبي دجانة عصابة يضعها على رأسه في الحروب و تعرف "عصابة الموت"،
فخرج يوم أحد، وهو يقول ومعه سيف رسول الله ﷺ :

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدَى النَّخِيل^(٥)

أن لا أقوم الدهر في الكيول أضرب بسيف الله والرسول

وكان للنساء دور في تسعير المعركة في الجاهلية، فكانت النساء تخرجن وتكن في
عقب الجيش، وترتجزن الأشعار الحماسية، فقد كانت هند بنت عتبة ونسوة كن معها يوم

(1) صحيح البخاري ، كتاب المناقب، باب مناقب الأنصار، وفتح الباري ٢٨٢/٧ ، ٢٨٣ .

(2) فتح الباري جـ ٢٨٣/٧ .

(3) العقد الفريد جـ ٢٨٧/٥ .

(4) السيرة جـ ١٥٤/٣

(5) السيرة جـ ١٤/٣ . السفح: جانب الجبل ، الكيول : آخر الصفوف في الحرب .

أحد يضرين الدفوف خلف الرجال، ويحرضنهم، فقالت هند فيما تقول^(١):
 ونيهاً بني عبد الدار ونيهاً حُمَاة الأديار ضرباً بكل بتار
 وتقول^(٢) :

إِنْ تَقْبِلُوا نَعَاتِقَ ونفرش النَّمَارِقَ
 أَوْ تَدْبِرُوا نِفَارِقَ فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقَ

وقد كان شعراء عصر النبوة مجاهدين يقاتلون بالسيف والشعر معاً، وقد كانت أشعارهم الحماسية استجابة مباشرة عما جاشت به قريحتهم في الموقف الذي تأثرت به، وقد ألهب انتصار بدر قريحته الشعراء وغور بهم في ميدان الشعر، فصارت لهم الكلمة على شعراء قريش .

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه في انتصار بدر، ويفخر بالنبوي صلى الله عليه وسلم قائد المعركة^(٣):

مُسْتَشْعِرِي حَلَقِ الْمَادِي يَقْدُمُهُمْ جَلْدُ النَّحِيزَةِ مَاضٍ غَيْرُ رَعِيدٍ^(٤)
 أَعْنَى رَسُولَ إِلَهِ الْخَلْقِ فَضَّلَهُ عَلَى الْبَرِيَّةِ بِالتَّقْوَى وَبِالْجُودِ
 وَقَدْ زَعَمْتُمْ بَأَنْ تَحْمُوا ذِمَارَكُمْ وَمَاءُ بَدْرِ زَعَمْتُمْ غَيْرُ مَوْرُودٍ^(٥)
 ثُمَّ وَرَدْنَا وَلَمْ نَسْمَعْ لِقَوْلِكُمْ حَتَّى شَرِبْنَا رِوَاءَ غَيْرِ تَصْرِيدٍ^(٦)
 مُسْتَعْصِمِينَ بِحَبْلِ غَيْرِ مُنْجَذِمٍ مُسْتَحْكِمِينَ مِنْ حِبَالِ اللَّهِ مَمْدُودٍ^(٧)
 فِينَا الرَّسُولُ وَفِينَا الْحَقُّ نَتَّبِعُهُ حَتَّى الْمَمَاتِ وَنَصْرٌ غَيْرُ مَحْدُودٍ^(٨)
 وَافٍ وَمَاضٍ شِهَابٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ بَدْرٌ أَنَارَ عَلَى كُلِّ الْأَمَاجِيدِ^(٩)

(1) السيرة جـ ١٣/٣ ونيهاً: كلمة تحريض وإغراء، حماية الأديار: الذين يحمون أعقاب الناس، البتار: السيف القاطع الماضي في ضربته .

(2) السيرة جـ ١٣/٣: النمازق: جمع نمرقة، وهى الوسادة الصغيرة ، الوامق : المحب .

(3) ديوان ص ٨٤، وقد نسبها ابن إسحق إليه ، ونسبها ابن هشام إلى عبد الله بن الحارث السهمي رضي الله عنه .

(4) مستشعري : لا يسي ، تقول : استشعرت الثوب، إذا لبسته على جسمك من غير حاجز، ومنه الشعار وهو ما ولى الجسم من الثياب، ويقابله الدثار، وهو ما كان فوق ذلك، والمادى : الدروع اللينة البيض، والنحيزة: الطبيعة، والرعيد: الجبان.

(5) الذمار — ككتاب — ما وجب على المرء أن يحميه .

(6) رواء : هو التملؤ من الماء، والتصريد : تقليل الشرب.

(7) المنجذم : المنقطع .

(8) المحدود : الممنوع .

(9) الأماجيد : الأشراف السادة .

لقد كان النبي ﷺ دعماً قوياً وعظيماً في المعركة، وهو مع أصحابه رضوان الله عنهم، ويأتون به، وكان يتقدمهم ويقدم لهم نموذجاً عظيماً في الشجاعة والقتال، فيحتمعون به إن اشتدت المعركة، ويتعززون به إن احتاجوا مدداً. وقد كانوا على ثقة بما هم عليه من حق، فقائدهم رسول الله ﷺ الذي يقدمهم بأمر من الله مُحكم، فلا مراء في أمره ولا خلاف على رأيه .

وقال كعب بن مالك أيضاً في بدر:

لَعَمْرُ أَبِيكُمَا يَا ابْنَي لُؤَيٍ
لَمَّا حَامَتْ فَوَارِسُكُم بَبْدَرٍ
وَرَدَّنَاهُ بِنُورِ اللَّهِ يَجْلُو
رَسُولُ اللَّهِ يَقْدُمُنَا بِأَمْرٍ
فَمَا ظَفِرَتْ فَوَارِسُكُم بَبْدَرٍ
فَلَا تَعْجَلْ أَبَا سُفْيَانَ وَارْقُبْ
بِنَصْرِ اللَّهِ رُوحَ الْقُدْسِ فِيهَا
عَلَى زَهْوٍ لَدَيْكُمُ وَانْتِخَاءً^(١)
وَلَا صَبْرًا بِهِ عِنْدَ اللَّقَاءِ^(٢)
دُجِيَ الظُّلُمَاءُ عَنَّا وَالْغَطَاءُ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أَحْكَمَ بِالْقَضَاءِ
وَمَا رَجَعُوا إِلَيْكُمُ بِالسَّوَاءِ
جِيَادَ الْخَيْلِ تَطْلُعُ مِنْ كَدَاءٍ^(٣)
وَمِيكَالٍ فَيَا طَيْبَ الْمَلَاءِ^(٤)

وكان للأتصار دور عظيم في نصرته النبي ﷺ والمسلمين، فقد بذلوا النفس والمال فيه قال حسان بن ثابت في ذلك :

قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ أَوْوَا نَبِيِّهِمْ
إِلَّا خَصَائِصَ أَقْوَامٍ هُمْ سَلَفُ
مُسْتَبْشِرِينَ بِقَسَمِ اللَّهِ ، قَوْلُهُمْ
أَهْلًا وَسَهْلًا فَفِي أَمْنٍ وَفِي سَعَةٍ
فَأَنْزَلُوهُ بَدَارٍ لَا يَخَافُ بِهَا
سِرْنَا وَسَارُوا إِلَى بَدْرِ لِحِينِهِمْ
وَصَدَّقُوهُ وَأَهْلُ الْأَرْضِ كُفَّارُ
لِلصَّالِحِينَ مَعَ الْأَنْصَارِ أَنْصَارُ
لَمَّا أَتَاهُمْ كَرِيمُ الْأَصْلِ مُخْتَارُ^(٥)
نِعَمَ النَّبِيِّ وَنِعَمَ الْقَسَمِ وَالْجَارُ
مَنْ كَانَ جَارَهُمْ دَارًا هِيَ الدَّارُ
لَوْ يَعْلَمُونَ يَقِينُ الْعِلْمِ مَا سَارُوا

(1) الزهو : الكبر، و الانتخاء : الإعجاب بالنفس .

(2) حامت : منعت نفسها ودافعت عنها .

(3) كداء — بفتح الكاف ممدوداً — موضع بمكة .

(4) الملاء : الملاء ، وهم أشراف القوم، ومده : ضرورة .

(5) القسم — بفتح القاف — مصدر قسم ، وهو بكسر القاف : الحظ والنصيب. روى : "لما أتاهم كريم الأصل مختار".

دَلَّاهُمْ بِغُرُورٍ ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ
وَقَالَ: إِنِّي لَكُمْ جَارٌ فَأُورِدْهُمْ
ثُمَّ التَّقِينَا فَوَلُّوا عَنْ سَرَاتِهِمْ
إِنَّ الْخَبِيثَ لَمَنْ وَالَاهُ غَرَّارٌ
شَرَّ الْمَوَارِدِ فِيهِ الْخَزْئُ وَالْعَارُ
مِنْ مُنْجِدِينَ وَمِنْهُمْ فِرْقَةٌ غَارُوا^(١)

وقد أصيب المسلمون يوم أحد، فاستشهد منهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقد وقعت فيهم خسائر بشرية أكثر مما فقدوه يوم بدر وهم يومئذ قلة، ولم يك مصابهم في أحد من قلة، فقد كانوا أكثر عدداً من يوم بدر.

وقد كمنوا للمشركين يوم أحد، وجعلوا الجبل رداءً لهم يحمي ظهورهم، وانتصروا يوم أحد وهم المشركون بالفرار بعد أن أدركوا الهزيمة، فأدرك خالد بن الوليد فرجة الجبل وقد تركه النبالة الذين جعلهم النبي ﷺ، فخالفوا أمره فنزلوا من الجبل بعد أن رأوا هزيمة المشركين، فعلاهم خالد من الجبل وهو يومئذ مشرك - فلم يدر المسلمون ما حدث، ووقع الاضطراب في صفوفهم، وكثرت خسائرهم، وثأرت قريش لبعض قتلاها في بدر، وقتل حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وكان من الشخصيات البارزة في تاريخ الدعوة، وكان رجل حرب مقدم يخشى الأعداء صولته، وقد قتل غيلة يوم أحد، فلم يقدر أحد من المشركين على مواجهته.

وقد تحولت شعراء المشركين عن مراثي من قتل في بدر إلى الفخر والهجاء، فعيروا المسلمين بما حدث لهم وتوعدوهم بحرب أخرى بائدة، ولهم فيها أشعار كثيرة حماسية ورد عليهم شعراء المسلمين.

وكان مما قيل من الشعر في يوم أحد قولُ هُبَيْرَةَ ابْنِ أَبِي عمرو بن عائد بن عبد بن عمران بن مخزوم ، وهو من المشركين:

مَا بَالُ هَمْ عَمِيدٍ بَاتَ يَطْرُقُنِي
بَاتَتْ تُعَاتِبُنِي هِنْدٌ وَتَعَذَّلْنِي
مَهْلًا فَلَا تَعَذِّلْنِي إِنَّ مِنْ خَلْقِي
بِالْوُدِّ مِنْ هِنْدٍ إِذْ تَعْدُو عَوَادِيهَا^(٢)
وَالْحَرْبُ قَدْ شَغَلَتْ عَنِّي مَوَالِيهَا
مَا قَدْ عَلِمْتَ وَمَا إِنْ لَسْتُ أَخْفِيهَا

(1) السراة : خيار الناس ، ومنجدين : قاصدين نجداً ، وغاروا : ذهبوا إلى الغور .

(2) العميد : الموجع المؤلم، وأصل العميد البعير الذي انشق سنامه لكثرة اللحم فيه، والعوادي : الشواغل .

حَمَّالٌ عِبَاءٌ وَأَثْقَالٌ أُعَاتِيهَا (١)
 سَاطٌ سَبُوحٌ إِذَا يَجْرِي يُبَارِيهَا (٢)
 مَكْدَمٌ لَاحِقٌ بِالْعَوْنِ يَحْمِيهَا (٣)
 كَجِدْعٍ شَعْرَاءٍ مُسْتَعْلٍ مَرَايِيهَا (٤)
 وَمَارِنًا لَخَطُوبٍ قَدْ أَلَاقِيهَا (٥)
 نَيْطَتْ عَلَى فَمَا تَبْدُو مَسَاوِيهَا (٦)
 عُرْضُ الْبِلَادِ عَلَى مَا كَانَ يُزْجِيهَا (٧)
 قُلْنَا النَّخِيلَ فَاْمَوْهَا وَمَنْ فِيهَا (٨)
 هَابَتْ مَعَدُّ قُلْنَا نَحْنُ نَأْتِيهَا (٩)
 مِمَّا يَرَوْنَ وَقَدْ ضُمَّتْ قَوَاصِيهَا (١٠)

مُسَاعِفٌ لِبْنَى كَعْبٍ بِمَا كَلَفُوا
 وَقَدْ حَمَلْتُ سِلَاحِي فَوْقَ مُشْتَرَفٍ
 كَأَنَّهُ إِذْ جَرَى عَيْرٌ بِقَدْفَةٍ
 مِنْ آلِ أَعُوجٍ يَرْتَاحُ النَّدَى لَهُ
 أَعْدَتُهُ وَرَقَاقُ الْحَدِّ مُتَخَلِّلاً
 هَذَا وَبَيْضَاءَ مِثْلَ النَّهْيِ مُحْكَمَةً
 سُقْنَا كَنَانَةً مِنْ أَطْرَافِ ذِي يَمَنِ
 قَالَتْ كَنَانَةً أَنَّى تَذْهَبُونَ بِنَا
 نَحْنُ الْفَوَارِسُ يَوْمَ الْجَرِّ مِنْ أَحَدٍ
 هَابُوا ضَرْبًا وَطَعًا صَادِقًا خَذَمًا

- (1) مساعف : مطيع موات، بما كلفوا : أولعوا به وأحبوه، والعبء : الحمل الثقيل، وأراد به هنا ما يكلفونه من مشاق الأمور وعظامها، وأعانيها : أكابدها وأحتملها .
- (2) مشترف : يروى بفتح الراء وبكسرهما ؛ فمن رواه بفتح الراء عني به فرساً يستشرفه الناس، أي: ينظرون إليه ويتطلعون نحوه لحسنه، ومن رواه بكسر الراء عني به شرفاً عالياً مشرفاً على الأرض، وساط : أي بعيد الخطو إذا مشى، والسبوح : الذي يسبح في جريه كأنه يعوم، ويباريها : أي يعارضها ويجاريها، والضمير المستتر عائد إلي الفرس الذي وصفه، والضمير البراز عائد إلي الخيل، وقد أضر الخيل وإن لم يجر لها ذكر لأن الكلام يدل عليها.
- (3) العير : حمار الوحش، والقدفة : الفلاة ، ومكدم : معضوض عضته آتنة (الأنثى منه آتن)، ولاحق : معناه ضامر، والعون : جماعات حمر الوحش.
- (4) أعوج : اسم فرس مشهور في الجاهلية، ويرتاح له يستبشر به ويهتز لمرآه، والندى : المجلس فيه القوم، والجذع : الفرع ، والشعراء هنا : نخلة كثيرة الأغصان، ومراقبيها : معاليها .
- (5) رقاق الحد - بضم الراء - أراد به سيفاً ، ويروى رقاق - بكسر الراء - فهو جمع رقيق، والأول أحسن لأفراد الضمانر بعده، ومنتخلا : متخيراً، والمارن : الرمح اللين عند الاهتزاز، والخطوب : حوادث الدهر، واحدها خطب .
- (6) بيضاء :عنى بها درعاً، والنهى : الغدير من الماء، وهو بفتح النون وكسرهما، ونيطت : علقت، ويروى "لطت" بالبناء للمجهول - ومعناه ألصقت ومساويها : عيوبها .
- (7) العرض - بضم فسكون - السعة ، ويزجيها : يسوقها .
- (8) النخيل : أراد مدينة الرسول ﷺ ، وأموها : قصدوها .
- (9) الجر - بالجيم مفتوحة - أصل الجبل .
- (10) الخدم - بفتح الخاء وكسر الذال المعجمتين - الذي يقطع اللحم سريعاً، والقواصي : جمع قاصية، وهي ما تفرق وبعد.

- ثُمَّتَ رُحْنًا كَأَنَّا عَارِضٌ بِبَرْدٍ
كَأَنَّ هَامَهُمْ عِنْدَ الْوَعْيِ فَلَقُ
أَوْ حَنْظَلٌ زَعَزَعَتْهُ الرِّيحُ فِي غُصْنٍ
قَدْ نَبَذَلُ الْمَالَ سَحًّا لَا حِسَابَ لَهُ
وَلَيْلَةً يَصْطَلِي بِالْفَرْتِ جَارُهَا
وَلَيْلَةً مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَةِ
لَا يَبْنَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ
أَوْقَدْتُ فِيهَا لَذَى الضَّرَاءِ حَامِيَةً
أُورَثَنِي ذَلِكُمْ عَمَرُو وَوَالِدُهُ
- وَقَامَ هَامُ بَنَى النَّجَارِ يَبْكِيهَا (١)
مِنْ قَيْضِ رُبْدٍ نَفْتُهُ عَنْ أَدَاحِيهَا (٢)
بَالٍ تَعَاوَرُهُ مِنْهَا سَوَافِيهَا (٣)
وَنَطْعُنُ الْخَيْلَ شَزْرًا فِي مَاقِيهَا (٤)
يَخْتَصُّ بِالنَّقَرَى الْمُثْرِينَ دَاعِيهَا (٥)
جَرَبًا جُمَادِيَّةً قَدْ بَتَّ أُسْرِيهَا (٦)
مِنْ الْقَرِيسِ وَلَا تَسْرِي أَفَاقِيهَا (٧)
كَالْبَرْقِ ذَاكِيَةِ الْأَرْكَانِ أَحْمِيهَا (٨)
مِنْ قَبْلِهِ كَانَ بِالْمُنْتَى يُغَالِيهَا (٩)

- (1) العارض : السحاب، والبرد — بفتح الباء وكسر الراء — الذي فيه برد، والهام : جمع هامة، وأصله الطائر الذي تزعم العرب أنه يخرج من رأس القتيل، وربما أطلق على رعوس القوم وجوههم .
- (2) الهام : جمع هامة، وهي الرأس، والوعى : الحرب، والفلق : جمع فلفة، وهي القطعة من الشيء، والقَيْضُ : بفتح القاف وسكون الياء وآخره ضاد معجمة — وهو قشر البيض الأعلى، والريد : جمع ريداء، وهي التي لونها بين السواد والبياض، وأراد ههنا النهام، والأداحى : جمع أدحى، وهو الموضع الذي تبيض فيه النعام .
- (3) زعزعته : حركته وأثارته، وتعاوره : تتداوله، وأصله تتعاوره فحذف إحدى التاءين، والسوافي : جمع سافية، وهي الريح التي تقلع التراب والرمل في الأرض .
- (4) السح : الصب، يريد أنه عطاء كثير، والشزر : الطعن عن يمين وشمال، والمَاقِي : مجاري الدموع في العين، أو المقدمات .
- (5) الفرت : ما يخرج من كرش الحيوان، ويصطلى : أى يتسن، والنقري — بفتحات — أن يدعو قومادون قوم فيخص بدعوته لا يعم بها الناس، ويقابله الجفلى، وهو أن يدعو دعوة عامة لا يخص بها أحداً، والمثرين جمع مثر، وهو اسم فاعل من أثرى، إذا صار ماله كثيراً كالثرى، وهو التراب وقد نسب هذا البيت لجنوب أخت ذى الكلب الهزلي في غير يوم أحد .
- (6) من جمادى يريد أنها من ليالي الشتاء، وجربا: أصله جرباء، يريد شديدة البرد مؤلمة. وأسريها: أسير فيها.
- (7) القريس: البرد مع الصقيع، والصقيع: الثلج الذي يلصق بالنبات وهو الجليد أيضاً، والأفაცი: جمع أفعى.
- (8) لذى الضراء : أراد به صاحب الحاجة والفقر ، وحامية : أراد نارا، ويروى في مكانه "جاحمة" وهي النار الملتهبة، وذاكية : أراد مضينة.
- (9) المثنى : أراد مرة بعد مرة؟، ويروى "أورثنى ذاكم" .

كَانُوا يَبَارُونَ أَنْوَاءَ النُّجُومِ فَمَا دَنَّتْ عَنِ السُّورَةِ الْعُلْيَا مَسَاعِيَهَا^(١)

لقد بدأ هبيرة بن أبي وهب — وهو من شعراء المشركين — قصيدة بمقدمة غزلية شكا فيها حب هند، وقد أثقلت همه بكثرة عتابها وهجرها له، وقد حدث منها ذلك في وقت الحرب التي شغلت رفاقه وسادته وأقاربه، فلم يجد رفيقاً يشكو إليه همه، فلا تتعجلي يا حبيبتي في هجري، فإني أحبك حباً جماً، وأنت تعلمين ذلك، ولا يخفي عليك أمري، وأنت تعلمين من خلقي أن مطيع وألبي حاجات بني كعب وما أولعوا به، وأنسى كثير الأحمال والأعباء، وأعاني من كثرة ما أكلف به.

وقد حملت سلاحه، وركبت فرسي الذي يستشرفه الناس ويتطلعون إليه لحسنه لسرعته وخفة حركته، فيمشي كأنه يسبح، واسع الخطو، ويعارض بجريه وسرعته الخيل، وكأنه إذا جرى حمار الوحش يجري في الصحراء يلحق بجماعات الحمر الوحشية ليحميها، وهذا الحمار الوحشي يعجل في جريه كأنه قد عضته آتته، وهذا الفرس من نسل آل أعوج، وهو فرس مشهور في الجاهلية بقوته، وضرب به المثل لتميزه في ذلك، وفرسي هذا يستبشر به مجلس القوم إذا رآه ويهتز لمرآه لفرط إعجابه به ودهشته، فهو كجذع نخلة طويلة كثيرة الأغصان، والثمار تعجب الناظرين، وقد تخيرت هذا الفرس ورفاقاً آخرين تخيرت منهم سيفاً رقيقاً حاداً، ورمحاً ليناً عند الاهتزاز، وقد أعددتهم لحوادث الدهر التي قد ألاقيها، وأعددت لذلك درعاً بيضاء صافية مثل غدير الماء، محكمة الصنع، وقد شددتها على جسد، وألصقتها به، وليس بها عيب.

وقد جمع بنو كنانة أنفسهم من عرض البلاد واتساعها لأمر عظيم فرحت له، وقد تسائل المجتمعون منهم إلي أين المسير، ولما دعوتهم للخروج؟ قلنا نريد أرض النخيل (يثرب) فهي مقصدنا، يريد حرب المسلمين (وقد وقعت في جبل أحد)، فنحن الأبطال يوم أحد، فقد خشوا لقاءنا، فآتيناهم في بلادهم، فقد خافوا ضرب سيوفنا وطعننا الذي يقطع اللحم، وقد وقع الخوف بهم، فجمعوا لنا الجمع، وكنا عليهم كسحاب عارض مهلك فيه برد، فوقع فيهم قتل كثير، وقام الهام الذي يخرج من الرعوس يبكي بني النجار، وقصدهم؛ لأنهم أحوال النبي ﷺ، وقد كان أهل الجاهلية يعتقدون أن هامة تخرج من رأس القاتل تبكيه وتطلب ثاره، والهامة قيل طائر تخرج من الرأس، وقيل المراد بالهام رعوس القوم ووجوههم، وقد بكت الرعوس القتلى وهو مجاز.

(1) يبارون : يعارضون ويفعلون مثل ما تفعل ، دنت — بالنون مشددة — أي قصرت، يقال : رجل أدن العنق، إذا كان قصير العنق، والسورة الرفعة والمنزلة، و المساعي: جمع مسعاة ، وهى ما يسعى فيه من المكارم.

وكانت رعوسهم في الحرب أجزاء مثل قشر البيض الأعلى الذي أبعده النعام عن
الموضع الذي تبيض فيه، يريد أنهم صاروا أشلاء ممزقين على الأرض ورعوسهم مفرقة.
أو الرعوس مثل الحنظل الذي حركته الريح في غصن ميت ضعيف، وتتداوله الرمال
الناعمة والتراب.

فنحن كرام نبذل مالاً كثيراً عطاء بلا إمساك، ونحن رجال الحرب نطعن عن يمين وعن
شمال، وتصب ضارباتنا أهدافها. وفي ليلة نذبح، ونذبح، وندعو الناس عامة دون أن
نخص أحداً، ويخص أضيافة الأثرياء بأفضلها. وفي ليلة أخرى باردة من ليالي الشتاء
شديدة البرد مؤلمة قد بت أسير فيها، ولم أعبأ ببرودتها وخطرها.

وهذه الليلة شديدة البرد ينبج الكلب فيها نبحة واحدة من شدة الصقيع ولا تستطيع
الأفاعي أن تسير فيها، فقد تجمدت وقد قمت بواجبي فيها، فأوقدت لأصحاب الحاجة والفقر
ناراً كالبرق مضيئة الأركان، وأنا أزيدها إحماء.

وقد ورثت ذلك من أبي عمرو وجدي من قبله اللذين اعتادا ذلك، فقد ورثت الكرم
والمروءة منهما.

فقد كانوا يعارضون أنواء النجوم (يريد ظروف الطقس) ، فيفعلون مثل ما تفعل، فما
قصروا في شئ وما فاتهم فضل ومنزلة، فهم يسعون إلي كل المكارم.
وقد أجابه شاعر المؤمنين فقال معارضاً ما سبق^(١):

سُقْتُمْ كَنَانَةً جَهْلًا مِنْ سَفَاهَتِكُمْ	إِلَى الرَّسُولِ فَجَنَدُ اللَّهِ مَخْزِيهَا
أُورِدْتُمُوهَا حِيَاضَ الْمَوْتِ ضَاحِيَةً	فَالنَّارَ مَوْعِدَهَا وَالْقَتْلَ لِأَقْيَمِهَا ^(٢)
جَمَعْتُمُوهُمْ أَحَابِيْشًا بِلَا حَسَبٍ	أُئِمَّةَ الْكُفْرِ غَرَّتْكُمْ طَوَاغِيْهَا ^(٣)
أَلَا عَتَبْتُمْ بِخَيْلِ اللَّهِ إِذْ قَتَلْتُمْ	أَهْلَ الْقَلِيبِ وَمَنْ أَلْقَيْنَهُ فِيهَا ^(٤)
كَمْ مِنْ أَسِيرٍ فَكَنَّاهُ بِلَا ثَمَنِ	وَجَزَّ نَاصِيَةً كُنَّا مَوَالِيَهَا ^(٥)

(1) نسبها محمد ابن إسحق إلى حسان، وأنشدها أبو زيد الأنصاري محمد بن هشام لكعب مالك. السيرة
جـ ٨٧/٩٣.

(2) الحياض : جمع حوض ، والضاحية : البارز للشمس .

(3) الحسب: الشرف، وطواغيها : جمع طاغية، وهو المتكبر المتمرد.

(4) أهل القليب : أراد بهم من قتل في بدر من المشركين فطرح في القليب وهو البئر.

(5) مواليتها : أهل النعمة وأصحاب المنة عليها، يريد أنهم فكوا كثيراً من أسرى قريش يوم بدر بغير فداء،
فكانوا لذلك أصحاب النعمة واليد البيضاء عليهم فلو كان عند هؤلاء شيء من حفظ الجميل لقبعوا في
بيوتهم فلم يخرجوا لقتالهم.

رد الشاعر على هُبيرة قوله، فقال له إنما جمعتم قريباً للموت، فيكونوا من أهل النار، وهؤلاء الذين جمعتهم، ليسوا إلا أخلاط الناس، وعامتهم لا حسب لهم، ولستم إلا أئمة الكفر، فاعتبر بيوم بدر وقتلاكم بها الذين جمعهم القلب، وقد عفونا عن كثير من الأسرى منةً وكرماً بغير فداء، فكنّا أصحاب النعمة ولفضل عليكم.

وقال كعب بن مالك يجب شاعر المشركين (جاء في القصيدة أنه عبد الله بن الزبعرى، وجاء في السيرة هُبيرة بن أبي وهب والراجح أنه ابن الزبعرى):

أَلَا هَلْ أَتَى غَسَّانَ عَنَّا دُونَهُمْ	مِنَ الْأَرْضِ خَرَقَ سَيْرُهُ مَتَنَعُ ^(١)
صَحَّارٍ وَأَعْلَامَ كَانَ قَتَامَهَا	مِنَ الْبُعْدِ نَفَعَ هَامِدٌ مُتَقَطَّعُ ^(٢)
تَظَلُّ الْبِزْلُ الْعَرَامِيسَ رُزْخًا	وَيَخْلُو بِهِ غَيْثُ السَّنِينِ فَيَمْرَعُ ^(٣)
بِهِ جَيْفُ الْحَسْرِ يَلُوحُ صَلَيبُهَا	كَمَا لَاحَ كَتَانُ التَّجَارِ الْمَوْضَعُ ^(٤)
بِهِ الْعَيْنُ وَالْآرَامُ يَمْشِينَ خَلْفَهُ	وَبَيْضُ نَعَامٍ قَيْضُهُ يَتَفَلَّعُ ^(٥)
مَجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا كُلِّ فَخْمَةٍ	مُدْرَبَةٍ فِيهَا الْقَوَانِسُ تَلْمَعُ ^(٦)
وَكُلُّ صَمُوتٍ فِي الصَّوَانِ كَأَنَّهَا	إِذَا لُبِسَتْ نَهْيٌ مِنَ الْمَاءِ مُتْرَعُ ^(٧)
وَلَكِنْ بِيَدْرِ سَائِلُوا مَنْ لَقَيْتُمْ	مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْبَاءِ بِالْغَيْبِ تَنْفَعُ

(1) الخرق : الفلاة الواسعة التي تخرق فيها الرياح ، وقوله "متنع" يروى بالنون وبالتاء، فمن رواه بالنون فمعناه المضطرب، ومن رواه بالتاء فمعناه المتردد والمعنى قريب، وتقول : تنع في الكلام، إذا تردد فيه .

(2) الأعلام : الجبال المرتفعة، واحدها علم، مثل سيب وأسباب وجبل وأجبال، وقتام — كسحاب — ما مال لونه إلى السواد منها، والنقع: الغبار، والهامد: المتلبد الساكن .

(3) البزل : الإبل القوية ، واحدها بازل ، وأصله الذي فطر نابه، وهذا زمان القوة والشدة، والعراميس: الشديدة، والرزح : جمع رازح، وهو المعى، ويمرع : يخصب .

(4) الصليب : الودك، وهو الشحم، والموضع : المبسوط المنقوش .

(5) العين جمع عيناء، وهى البقرة من بقر الوحش، والآرام : البيض البطون السمر الظهور، واحدها رئم، وأصل آرام، بزنة أحمال، فقدمت الهمة على الراء ثم قلبت الهمة ألفا لسكونها إثر همزة مفتوحة، وقوله "خلفة" أي: يمشين قطعة خلف قطعة، والقَيْض: قشر البيض الأعلى، ويتفلق : معناه يتشقق .

(6) فخمة : يريد كتيبة عظيمة، ومدربة : يروى بالبدال مهمة وبالذال معجمة؛ فمن رواه بالبدال فهو من الدربة، يريد أنهم معلمون معودون قد دربوا على القتال، ومن رواه بالذال فمعناه محددة، والذرب: لحاد، والقوانس: رعوس بيض السلاح.

(7) الصموت : هى الدرع التي أحكم نسجها وتقارب حلقها فليس يسمع لها صوت، والصوان : كل ما يصان فيه الشيء درعا كان أو ثوباً أو غيرهما، والنهى بفتح النون أو كسرهما : الغدير، ومترع : أى مملوء ما.

وَأَنَا بِأَرْضِ الْخَوْفِ لَوْ كَانَ أَهْلُهَا
إِذَا جَاءَ مِنَّا رَاكِبٌ كَانَ قَوْلُهُ
فَمَهْمًا يَهُمُّ النَّاسَ مِمَّا يَكِيدُنَا
فَلَوْ غَيْرُنَا كَانَتْ جَمِيعًا تَكِيدُهُ الْ-
نُجَالِدُ لَا تَبْقَى عَلَيْنَا قَبِيلَةٌ
وَلَمَّا ابْتَنُوا بِالْعَرَضِ قَالَ سِرَاتِنَا
وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ نَتَّبِعُ أَمْرَهُ
تَدَلَّى عَلَيْهِ الرُّوحُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ
نُشَاوِرُهُ فِيمَا نُرِيدُ وَقَصَرْنَا
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا بَدَا لَنَا
وَكُونُوا كَمَنْ يَشْرَى الْحَيَاةَ تَقَرُّبًا
وَلَكِنْ خَذُوا أَسْيَافَكُمْ وَتَوَكَّلُوا
فَسِرْنَا إِلَيْهِمْ جَهْرَةً فِي رِحَالِهِمْ
بِمَلُومَةٍ فِيهَا السُّتُورُ وَالْقَتَا

سَوَانَا لَقَدْ أَجَلُوا بَلِيلٌ فَأَقْشَعُوا^(١)
أَعِدُوا لِمَا يَزْجِي ابْنُ حَرْبٍ وَيَجْمَعُ
فَنَحْنُ لَهُ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ أَوْسَعُ
بَرِيَّةٌ قَدْ أَعْطُوا يَدًا وَتَوَرَّعُوا^(٢)
مِنَ النَّاسِ إِلَّا أَنْ يُهَابُوا وَيُقْطَعُوا^(٣)
عَلَامَ إِذَا لَمْ نَمْنَعِ الْعَرَضَ نَزْرَعُ^(٤)
إِذَا قَالَ فِينَا الْقَوْلُ لَا تَنْطَلُعُ^(٥)
يُنْزَلُ مِنْ جَوْ السَّمَاءِ وَيُرْفَعُ^(٦)
إِذَا مَا اسْتَهَى أَنَا نَطِيعٌ وَنَسْمَعُ^(٧)
ذَرُّوا عَنْكُمْ هَوْلَ الْمَنِيَّاتِ وَاطْمَعُوا
إِلَى مَلِكٍ يَحْيَا لَدَيْهِ وَيَرْجِعُ
عَلَى اللَّهِ إِنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ أَجْمَعُ
ضَحِيًّا عَلَيْنَا الْبَيْضُ لَا نَنْخَشَعُ^(٨)
إِذَا ضَرَبُوا أَقْدَامَهَا لَا تَوَرَّعُ^(٩)

(1) أقشعوا : فروا وذلوا .

(2) تورعوا : يروى بالراء المهملة وبالزاي : فمن رواه بالراء المهملة فمعناه ذلوا وهاتوا، ومن رواه بالزاي فمعناه تقسموا وانشعبوا .

(3) يقطعوا - مبنى للمجهول : يهالوا ويفزعوا، من الشئ الفطيع ، وهو الذي يهولك منظره .

(4) ابتنوا: ضربوا أبنيتهم، وهى القباب والأخبية، والعرض : موضع خارج المدينة، وسراتنا : خيارنا .

(5) لا ننتلع : يروى بالطاء المهملة وبالطاء؛ فمن رواه بالطاء المهملة فمعناه لا ننظر إليه إجلالاً له وهيبة منه، ومن رواه بالطاء المعجمة فمعناه لا نميل عنه ولا نعدل عما قاله.

(6) الروح : هو جبريل أمين الوحي عليه السلام، وهو مأخوذ من قوله تعالى : (نزل به الروح الأمين).

(7) قصرنا : غابتنا ونهاية أمرنا ، تقول : قصرك وقصارك وقصارى أمرك، ومعناه غاية أمرك .

(8) البيض - بكسر الباء - جمع أبيض ، والمراد بها السيوف، والبيض - بفتح فسكون - جمع بيضة السلاح.

(9) الملمومة : الكتبية التي اجتمع بعضها إلى بعض ، والسنور السلاح، وقوله، "لا تورع" يروى بالراء المهملة وبالزاي ، فمن رواه بالراء المهملة فمعناه لا تكف، ومن رواه بالزاي فمعناه لا يفرقها أحد .

فَجَنَّا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ
ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَنَحْنُ نَصِيَّةٌ
نُغَاوِرُهُمْ تَجْرِي الْمَنِيَّةُ بَيْنَنَا
تَهَادَى قَسَى النَّبْعِ فِينَا وَفِيهِمْ
وَمُجُوفَةٌ حَرَمِيَّةٌ صَاعِدِيَّةٌ
تَصُوبُ بِأَبْدَانِ الرِّجَالِ وَتَارَةٌ
وَحَيْلٌ تَرَاهَا بِالْفُضَاءِ كَأَنَّهَا
فَلَمَّا تَلَاقَيْنَا وَدَارَتْ بِنَا الرِّحَا
ضَرَبْنَاهُمْ حَتَّى تَرَكْنَا سِرَاتَهُمْ
لَدُنْ غُدُوَّةٍ حَتَّى اسْتَفْقْنَا عَشِيَّةً
وَرَاوُوا سِرَاعاً مُوجِعِينَ كَأَنَّهُمْ
وَسَطَهُ أَحَابِيشٌ مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمُقْتَعٌ^(١)
ثَلَاثُ مِئِينَ إِنْ كَثُرْنَا فَأَرْبَعٌ^(٢)
نُشَارِعُهُمْ حَوْضَ الْمَنَآيَا وَنُشْرَعُ^(٣)
وَمَا هُوَ إِلَّا الْيَثْرَبِيُّ الْمُقَطَّعُ^(٤)
يُذَرُّ عَلَيْهَا السَّمُّ سَاعَةً تُصَنَعُ^(٥)
تُمْرُ بِأَعْرَاضِ الْبِصَارِ تَقْعَقُعُ^(٦)
جَرَادٌ صَبَّاءٌ فِي قَرَّةٍ يَتَرَيَعُ^(٧)
وَلَيْسَ لِأَمْرِ حَمَّاهُ اللَّهُ مَدْفَعُ^(٨)
كَأَنَّهُمْ بِالْقَاعِ خُشْبٌ مُصْرَعُ^(٩)
كَأَنَّ ذُكَاثَنَا حَرٌّ نَارٍ تَلْفَعُ^(١٠)
جَهَامٌ هَرَاقَتْ مَاءَهُ الرِّيحُ مُقْلَعُ^(١١)

(1) الحاسر : الذي لا رع له ولا مغفر، والمقتع : الذي ليس المغفر على رأسه .

(2) النصية : الخيار من القوم .

(3) نغاورهم : يورى بالغين المعجمة، ويروى بالعين المهملة، فمن رواه بالغين المعجمة فمعناه نغير عليهم من الغارة، ومن رواه بالعين المهملة فمعناه نداولهم، ونشارعهم: نشاربهم، ونشرع : نشرب، يريد أنه قد كانت بينهم مغاورات ينتصرون عليهم مرة ويظفرون بهم مرة.

(4) النبع : شجر تصنع منه القسي ، و اليتربي : الأوتار المنسوبة إلي يثرب .

(5) المنجوفة : أراد بها سهاماً ، وحرمية : منسوبة إلي أهل الحرم، ويقال: هذا رجل حرمى — بكسر فسكون — إذا كان من أهل الحرم، وصاعدية : منسوبة إلي صانع اسمه صاعد .

(6) تصوب : تقع ، والبصار — بكسر الباء وتخفيف الصاد — الحجارة اللينة، يريد أنها تصيب مرة وتخطئ مرة .

(7) الفضاء : المتسع من الأرض ، والصبا : الريح الشرقية، والقرّة : البرد ، ويتربع : يجئ ويذهب .

(8) رعى الحرب : معظم موضع القتال فيها ، وحمه الله : قدره .

(9) سراتهم : خيرهم ، والقاع : المنخفض من الأرض ، وخشب أصله بضمّتين فسكن الشين اضطراراً.

(10) ذكاثنا : أراد اشتعال نار حربنا والتهابها، وتلفع : يشتمل حرها على من دنا منها .

(11) موجعين : يروى بالعين المهملة مبنياً للمجهول من الإيجاع، وهو الإيلام، ويروى موجفين — بالفاء مبنياً للمعلوم — ومعناه مسرعون، والجهام — كسحاب — السحاب الرقيق الذي ليس معه مطر .

وَرُحْنَا وَأُخْرَانَا بِطَاءٍ كَأَنَّنا
فَنَلْنَا وَنَالَ الْقَوْمُ مِنَّا وَرُبَّمَا
وَدَارَتْ رَحَانَا وَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ
وَنَحْنُ أَنَاسٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً
جَلَادٌ عَلَى رَيْبِ الْحَوَادِثِ لَا تَرَى
بَنُو الْحَرْبِ لَا نَعْيَا بِشَيْءٍ نَقُولُهُ
بَنُو الْحَرْبِ إِنْ نَظَفَرُوا فَلَسْنَا بِفَحَشٍ
وَكُنَّا شَهَابًا يَتَّقَى النَّاسُ حَرَّةَ
فَخَرْتُ عَلَى ابْنِ الزَّبْعَرَى وَقَدْ سَرَى
فَسَلَّ عَنْكَ فِي عَلِيَا مَعْدٍ وَغَيْرِهَا
وَمَنْ هُوَ لَمْ تَتْرِكْ لَهُ الْحَرْبُ مَفْخَرًا
شَدَدْنَا بِحَوْلِ اللَّهِ وَالنَّصْرِ شَدَّةً
تَكْرُّ الْقَتْلَا كَأَنَّ فُرُوعَهَا
عَمَدَنَا إِلَى أَهْلِ اللِّوَاءِ وَمَنْ يَطِيرُ
فَخَانُوا وَقَدْ أَعْطَوْا يَدًا وَتَخَاذَلُوا

أَسُودَ عَلَى لَحْمٍ بَبِيشَةَ ضُلْعٌ^(١)
فَعَلْنَا وَلَكِنْ مَا لَدَى اللَّهِ أَوْسَعُ
وَقَدْ جَعَلُوا كُلُّ مِنَ الشَّرِّ يَشْبَعُ
عَلَى كُلِّ مَنْ يَحْمِي الذَّمَّارَ وَيَمْنَعُ^(٢)
عَلَى هَالِكٍ عَيْنًا لَنَا الدَّهْرُ تَدْمَعُ^(٣)
وَلَا نَحْنُ مِمَّا جَرَّتِ الْحَرْبُ نَجَزَعُ
وَلَا نَحْنُ مِنْ إِظْفَارِهَا نَتَوَجَّعُ^(٤)
وَيَفْرُجُ عَنْهُ مِنْ يَلِيهِهِ وَيَسْفَعُ^(٥)
لَكُمْ طَلَبُ مَنْ آخَرَ اللَّيْلِ مُتَبِعُ
مِنَ النَّاسِ مَنْ أَخْزَى مَقَامًا وَأَشْنَعُ
وَمَنْ خَذَهُ يَوْمَ الْكَرْهَةِ أَضْرَعُ^(٦)
عَلَيْكُمْ وَأَطْرَافُ الْأَسْنَةِ شُرْعُ^(٧)
عَزَالِي مَزَادَ مَاؤَهَا يَتَهَزَعُ^(٨)
بِذِكْرِ اللِّوَاءِ فَهُوَ فِي الْحَمْدِ أَسْرَعُ
أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَمْرُهُ وَهُوَ أَصْنَعُ^(٩)

(1) ببيشة : اسم موضع تنسب إليه الأسود ، وضلع : جمع ضالع ، وهو من صفة الأسود .

(2) الذمار — ككتاب — ما يجب على الرجل أن يحميه .

(3) جلا د : جميع جليد ؟ وهو الصبور .

(4) فحش — بضم الفاء وتشديد الحاء المهملة — جمع فاحش ، يريد أنهم إن ظفروا ظفروهم ويفشحو أو يمثلو بقتلاهم كما فعلت قريش في أحد ، وإن ظفر عليهم لم يجزوا لذلك ؛ لعلمهم أن الدهر يومان يوم لهم ويوم عليهم ، وأن الظفر لا يدوم والهزيمة لا تدوم .

(5) الشهاب : القطعة من النار ، ويسفع : يحرق ويغير اللون ، تقول سعته النار ، إذا غيرت لونه .

(6) أضرع : ذليل ، يقال : أضرعه الحاجة ، إذا أدلته .

(7) شرع : مائلة للطعن ، يقال : أشرعت الرمح قبله ، إذا أملتته إليه لتطعنه به .

(8) الفروع : الطعن المتسع ، والعزالي : جمع عزلاء ، وهي فم المزايدة أو السقاء ، ويتهزع : يروى بالراء المهملة وبالزاء الموحدة ، فمن رواه بالراء المهملة فمعناه ويسرع سبيلاته ، ومن رواه بالزاي فمعناه يتقطع .

(9) فحانوا : يروى بالحاء المهملة من الحين وهو الهلاك ، ويروى بالخاء المعجمة من الخيانة .

وقد كان كعب بن مالك قد قال :

* مجالدنا عن جذمنا كل فحمة * (١)

فقال رسول الله ﷺ " أَيْصْلُحْ أَنْ تَقُولَ : مجالدنا عن ديننا؟ " فقال كعب : نعم، فقال رسول الله ﷺ : "فهو أحسن" ، فقال كعب : مجالدنا عن ديننا " . (٢)

بدأ كعب قصيدته بمقدمة ذكر فيها الديار، ولكنه لم يذكر حبيباً بل ذكر ديار غسان وهي بالشام، وبينهم وبين المدينة سفر طويل فيه مشقة لما به من صحارٍ وجبال، وفي هذه الصحاري والجبال تقطعها الإبل القوية الشديدة، وتعا من طولها وصعوبتها، وقد تجف فيموت من فيها، وقد تخبب، وبها البقر الوحشي والغزلان السمر يمشين قطعة خلف قطعة تباعاً، وقشر بيض النعام من شدة الحر يتشقق، فهذه الديار على طول السفر إليها ومشقته وبعدها قد سمعت بدفاعنا عن ديننا وجلادنا عنه، وقد أعدنا لذلك كتيبة عظيمة مدربة فيها رعوس السلاح تلمع من شدة حدتها وجلاتها. وأعدنا دروعاً أحكم نسجها وتقارب حلقها ولا يسمع لها صوت.

لقد أوجز الشاعر في مقدمته وربط بينها وبين موضوع القصيدة، فلم يذكر حبيبة ولا خمرأ ولم يستطرد في المقدمة، وجعل مدخل الموضوع الحديث عن بدر التي حققوا فيها انتصاراً عظيماً على مشركي مكة. وهم بأرض خوف لا يستطيع غيرهم أن يقيموا بها، وقد جاءهم أحدهم يخبرهم أن قريشاً تعد لهم العدة وتتجهز لغزوهم، فلم يزددهم ذلك إلا ثباتاً وشجاعة. ولو أن الناس جميعاً اجتمعوا على حربنا، لثبتنا لهم وقاتلناهم حتى ينصرفوا عنا أو يكشفوا أو يفروا منا، وقد أجمع سادتنا على مواجهة الأعداء، وأن ندافع عن عرضنا. ونحن على الحق، وفينا رسول الله نتبعه في كل أمره، وينزل عليه الوحي بيننا، ونشاوره في أمرنا.

وقد أمرنا بجهاد المشركين والخروج لهم، ووعدنا بالجنة، وقال لهم كونوا كمن باع حياته لله تعالى الذي بيده المحيا والممات، فتوكلوا عليه، فله الأمر جميعاً. وقد صور كعب ما حدث في المعركة تصويراً دقيقاً منصفاً يقول : فخرجنا إلي الأعداء مسرعين دون خوف في كتائب اجتمع بعضها إلي بعض، مدججين بالسلاح والأقنعة .

فوجدنا أعداءنا كثيرين مضطربين كموج البحر المتلاطم ووسط هذا الجيش أخلط الناس وأوباشهم، ومنهم حاسر لا درع له ولا مغفر، ومنهم من لبس المغفر على رأسه

(1) " عن جذمنا " الجذم — بكسر فسكون — هو الأصل .

(2) الرواية لابن هشام . السيرة ج ٣ / ٩٥ .

فهم غير مكتملى التسليح لكثرتهم وهم نحو ثلاثة آلاف، ونحن - المسلمين - بين ثلاثمائة وأربعمائة على الزيادة، وكان بينهما مناوشات قبل بدء القتال يتنازعان فيها النصر، فكانت بيننا مناورات ومساجلات ينتصرون علينا مرة، ويظفرون علينا بهم مرة، ونضربهم بالنبل، فتصيبهم نبالنا مرة وتخطئ أخرى. وترى خيلاً جرداً في الأرض المتسعة، تروح وتغدو، وهى خيل قريش التي جمعت عدتها وجلبت للحرب حلفاءها وعبيدها، وهذا الوصف يجسد لنا تفوق قريش في العدة والأفراد والقوة. فلما تلاقوا في القتال، واقتتلوا صارت الغلبة للمسلمين، وانكشف المشركون، وقتل منهم، وفر بعضهم موجعين، والمسلمون يسرعون إليهم كأهم أسد اجتمعوا على لحم بوادي بيثه الذي تكثر فيه الأسد، وقد تضرعوا من اللحم. وقد نالوا من العدو، ونال العدو منهم، وليس ما وقع بالمسلمين عاراً أو ذلاً، فالقتل في سبيل الله ليس سبة بل شهادة ترفعه يوم القيامة، ونحن أبناء الحرب لا نعيها منها ولا نجزع من عواقبها ودولتها علينا، فنحن في الحرب شهاب يتقى الناس حره، ويفرق منه القريب ويحرق به. وهجا كعب عبد الله بن الزبعرى الذي فخر عليه بيوم أحد فقال:

لا تفخر علىّ يا ابن الزبعرى، فأنت كمن طلب ثأره في آخر الليل المدلج (شديد الظلمة) لئلا يعلم به فيواجه عدوه، وسل عن أشراف الناس، تجد نفسك أقلهم مقاماً وأحطهم شأنًا، وليس لك في الحرب تاريخ ولا مفخرة. وقد شددنا عليكم بعون الله شدة عظيمة، فأوجعناكم طعناً وأسخنا فيكم السلاح، وقصدنا حملة اللواء، فهربوا وتركوا لواءكم، وقد وقع أمر الله تعالى، وسلمنا به.

لقد سيطرت على كعب رضي الله عنه روح التواضع، وكان هادئاً رزيناً، ناقش المعركة نقاشاً عادلاً، وكان محايداً، فذكر ما للمسلمين وما للمشركين، واعترف بقوة المشركين، وبمصائب المسلمين، بيد أنه لم ير الشهادة في سبيل الله عيباً. ولم يقدح كعب في القول فلم يسب ولم يلعن، ولم يسرف في الهجاء، فقد كان موضوعاً في قصيدته، وهذا يرجع لطبيعة شخصيته الهادئة التي يكتنزها الوقار والتعقل والعفة.

وقد أثرت نتيجة المعركة في كعب، فلم تحقق نصراً في درجة غزوة بدر، والخسائر فيها عالية، فعدت هزيمة وإن لم تك هزيمة حقيقية، فالمشركون أكثر عدداً وعدة، بيد أنها قياساً إلى غيرها من المعارك التي خاضها المسلمون وهم قلة هزيمة فلم تصل إلى درجتها فيما حققته من نتائج.

وشارك اليهود المشركين في معاداة الدعوة، وقد حاول يهود بني النضير أن يقتلوا النبي ﷺ، وهو قاعد إلى جنب جدار من بيوتهم، ومعه أبو بكر وعمر وعلى رضي الله عنهم، فعلا عمرو بن حجاج البيت، ومعه صخرة ليلقيها عليه ﷺ، فجاهه الوحي بذلك

فخرج راجعاً إلى المدينة، وأمر بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم، وتدخل عبد الله بن سلول المنافق، وكف عنهم الرسول ﷺ، فأجلاهم عن المدينة، فخرجوا إلى خيبر، وتآمروا مع من بها من يهود على النبي ﷺ، واستعدوا عليه المشركين.

قال كعب بن مالك يذكر إجلاء بني النضير وقتل كعب بن الأشرف:

فَتَلَكَ بَنُو النَّضِيرِ بَدَارَ سَوْءٍ أَبَارَهُمْ بِمَا اجْتَرَمُوا الْمِيبِيرُ^(١)
غَدَاةَ أَتَاهُمْ فِي الزَّخْفِ رَهَوَا رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ بِهِمْ بَصِيرُ^(٢)
وَعَسَانُ الْحَمَاةِ مُوَازَرُوهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَهُوَ لَهُمْ وَزِيرُ^(٣)
فَقَالَ : السَّلْمَ وَيَحْكُمُ، فَصَدُّوا وَحَالَفَ أَمْرَهُمْ كَذِبُ وَزُورُ^(٤)
فَذَاقُوا غِبَّ أَمْرِهِمْ وَبَالَا لِكُلِّ ثَلَاثَةٍ مِنْهُمْ بَعِيرُ^(٥)
وَأَجُلُّوا عَامِدِينَ لِقَيْنَقَاعٍ وَغُودِرَ مِنْهُمْ نَخْلٌ وَدُورُ^(٦)

لقد دخل كعب بن مالك إلى موضوع القصيدة عامداً، فذكر ما حل باليهود من عار وخزي، فقد كفروا بربهم، وبنبيه الذي وجدوه مكتوباً عندهم في التوراة، فكذبوه وكفروا به، واشربوا الغدر والكفر، فهم دائماً يعربون عن كفرهم ويغترون فلا عهد لهم ولا ذمة، فكان جزاءهم النفي والإبعاد، وغادروا رأساً منهم صريعاً جزاء عدوانه وسلطنة لسانه وهو كعب بن الأشرف فذلُّوا بعد مصرعه.

وقد دسَّ إليه النبي ﷺ من قتله وهو في مأمن من حصنه وقومه، فعلم اليهود أم محمداً ﷺ سيصل إليهم. ومدح كعب الأنصار الذين نصرُوا الرسول ﷺ وصدقوه وقاتلوا من كذبه، فهم مؤازروه على الأعداء، وهو لهم قائد. وقد أذل اليهود وأجلاهم، فذاقوا جزاء غدرهم وبالاً وتركوا ديارهم وأموالهم وأورثها الله تعالى المؤمنين .

وقصيدة كعب بها أسلوب سهل رقيق ليس فيه خشونة ولا جفوة، فقد تأثر بالقرآن الكريم في أسلوبه ولفظه، واستطاع أن يوظف التعبير القرآني ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ﴾

- (1) أبأرهم : أهلكهم ، والبوار — بفتح الباء، والواو ، الهلاك ، واجترموا: اكتسبوا ، والمبير : المهلك.
- (2) الزحف : أراد به الجيش الزاحف عليهم، ورهوا — بفتح الراء المهملة وسكون الهاء — المشى في سكون ومهمل. وانتصابه إما على أنه مفعول مطلق بتقدير إتيان رهو أو بتقدير مشى نحوكم رهوا، وإما على أنه حال بتقدير متمهلاً، وبصير: أي عليم خبير .
- (3) الحماة : جمع حام ، ووزير ههنا بمعنى الملجأ والمعين .
- (4) السلم — بفتح السين أو كسرهما — الصلح ، ويحكم : دعاء عليهم، والويح الهلاك كالويب والويس، وحالف: صاحب، يريد أن الكذب والزور كانا مصاحبين لهم فلم يعرفوا الرشد في أمرهم.
- (5) غب أمرهم — بكسر الغين المعجمة وتشديد الباء عاقبته، والوبال : النكال .
- (6) عامدين : قاصدين ، تقول : عمد إلي هذا الأمر، إذا قصدته ، وقينقاع — بفتح فسكون فضم — قبيلة من اليهود ، وغودر: ترك .

الْعَجَلُ يَكْفُرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]، في قوله ﴿فَلَمَّا أَشْرَبُوا غَدَرُوا وَكَفَرُوا﴾ ومن تعبيراته الجديدة "وجد بهم عن الحق النفور" ويروى: "وحد بهم عن الحق النفور" وذلك في حديثه عن إعراض اليهود عن النبي ﷺ.

وقد ربط كعب بين أبيات قصيدته ، فالأخبار أصابهم خزي لأنهم كفروا برب العالمين ، ثم عطف ما بعده عليه بالواو ، وقال: "وقد أوتوا معاً فهماً وعلماً" وتتابعت الأبيات كل بيت يؤدي إلى الذي يليه في تسلسل منطقي، واستعان في الربط بحروف العطف والتعليل "لأن"، والإشارة : "هذا، ذلك، تلك"، والضمير، والوصف ووظف الحوار في القصيدة: قال، قالوا.

وولد كعب دلالات جديدة في قصيدته، وهي مقتبسة من القرآن الكريم نحو: أمره أمر كبير، وأتوا فهماً وعلماً ، جاءهم من الله نذير، نذير صدق، وقولهم : ما أتيت بأمر صدق ، وأنت بمنكر منا جدير، أديت حقاً. فمن يتبعه يهتد، ومن يكفر به يجز الكفور، أشربوا غدراً وكفراً، الله يحكم بالعدل لا يجور، نعم النصير، أيده الله وسلطه، فذاقوا غب أمرهم، دار السوء، لهم وزير. ومن تعبيراته المتوارثة : علته السيوف ، غادره صريعاً ، دس إليه من يقتله، أخو ثقة ، أبارهم مبير.

وكانت غزوة الخندق هزيمة أخرى فادحة للمشركين؛ فقد جمعت قريش حلفاءها من قبائل العرب لتشن بهم حرباً تبديد الإسلام وأهله فحربت الأحزاب وجمعت أحابيشها، فخندق لهم النبي ﷺ خندقاً عجزوا عن اجتيازه فعسكروا حولهم المدينة، وكان معهم اليهود، فردهم الله تعالى لم ينالوا خيراً ، فانصرفوا خائبين، وكتب الله تعالى انتصاراً جديداً لدينه فدانت له العرب.

وقال حسان رضي الله عنه يوم الخندق يرد على شعراء المشركين :

هَلْ رَسَمَ دَارِسَةَ الْمَقَامِ يَبَابِ	مُتَكَلِّمٌ لِمُحَاوِرٍ بَجَابِ (١)
قَفَرٌ عَقَارِهِمُ السَّحَابِ رُسُومُهُ	وَهُبُوبُ كُلِّ مُطَلَّةٍ مَرِ بَابِ (٢)
تُورَثُنْ مِنْ أَرْمَانِ يَوْمِ حِلْمَةٍ	إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جُرْبِنَ كُلُّ التَّجَارِبِ

- (1) دراسة المقام: قد عفا محل الإقامة منها، واليباب: الفقر ، والمحاور : الذي يرجعك الكلام ويحدث معك.
- (2) عفا : غير؛ والرهم – بكسر الراء وفتح الهاء – جمع رهمة – بكسر فسكون – وهو المطر الدائم ، وتقول : أرهمت السماء، إذا أتت بالرهم، والرسوم: جمع رسم، وهو الأثر ، ومطلّة : اسم فاعل من أطلت السماء، إذا جاءت بالطل، وهو الضعيف من المطر، ومنه قوله تعالى : (فإن يصيبها وابل فطل) وفسره أبو ذر بقوله : 'ومطلّة: أي مشرقة، وهو ههنا بالطاء المهملة فقط ' هو عندنا بعد، ومجازه على ما قدمنا كره، ومر باب : دائمة ثابتة.

- وَلَقَدْ رَأَيْتُمْ بِهَا الْحُلُولَ يَزِينُهُمْ
فَدَعَ الدَّيَّارَ وَذَكَرَ كُلَّ خَرِيدَةٍ
وَأَشْكُ الْهُمُومَ إِلَى إِلَهِهِ وَمَا تَرَى
سَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ إِلَيْهِ وَالْبُؤَا
جَيْشٌ عَيْنُهُ وَابْنُ حَرْبٍ فِيهِمْ
حَتَّى إِذَا وَرَدُوا الْمَدِينَةَ وَارْتَجَوْا
وَعَدُوا عَلَيْنَا قَادِرِينَ بِأَيْدِهِمْ
بِهُبُوبٍ مُصَفَّةٍ تَفَرِّقُ جَمْعَهُمْ
فَكَفَى إِلَهِهُ الْمُؤْمِنِينَ قَتَالَهُمْ
مَنْ بَعْدَ مَا قَنَطُوا فَفَرَّقَ جَمْعَهُمْ
وَأَقَرَّ عَيْنَ مُحَمَّدٍ وَصَحَابِهِ
- بِيضُ الْوُجُوهِ ثَوَاقِبُ الْأَحْسَابِ^(١)
بِيضَاءُ آنَسَةِ الْحَدِيثِ كَعَابِ^(٢)
مِنْ مَعْشَرٍ ظَلَمُوا الرَّسُولَ غَضَابِ^(٣)
أَهْلَ الْقُرَى وَبَوَادِي الْأَعْرَابِ^(٤)
مُتَخَمِّطُونَ بِحُلْبَةِ الْأَحْزَابِ^(٥)
قَتَلَ الرَّسُولَ وَمَغْنَمَ الْأَسْلَابِ^(٦)
رَدُّوا بِغِيظِهِمْ عَلَى الْأَعْقَابِ^(٧)
وَجَنُودَ رَبِّكَ سَيِّدِ الْأَرْبَابِ^(٨)
وَأَثَابَهُمْ فِي الْأَجْرِ خَيْرَ ثَوَابِ^(٩)
تَنْزِيلِ نَصْرِ مَلِكِنَا الْوَهَّابِ^(١٠)
وَأَذَلَّ كُلَّ مُكْذِبٍ مُرْتَابِ

- (1) الحول : البيوت المجتمعة، والثواقب : المشرقة ، ومنه قوله تعالى : (النجم الثاقب) .
(2) الخريدة : المرأة الناعمة ، وقيل : هي البكر التي لم تمس قط ، وقيل : هي الحبيبة الطويلة السكوت الخافضة الصوت، والكعاب : التي نهد ثديها في أول ما نهد ، وكعبت الجارية فهي كاعب وكعاب .
(3) متألبيين : مجتمعين ، وتقول : ألبت القوم فتألَبوا ، أي جمعتهم فاجتمعوا .
(4) "ساروا بأجمعهم إليه وألبوا" يروى في مكان هذا الشطر "أما بغزوهم الرسول وألبسوا" وألبوا : أي جمعوا ، وأما : أي قصدوا ، وألبسوا : خلطوا وشبهوا ، تقول : لبست على القوم الأمر ، إذا خلطت شأنه عليهم وشبهته ، ومنه قوله تعالى : (وللبسنا عليهم ما يلبسون) وأهل القرى وبوادي الأعراب : أراد بهم ضعاف الناس الذين تضعف عقولهم عن إدراك الحقائق ويقعون تحت تأثير المشككين .
(5) عينه : أراد به عيينة بن حصن الفزارى ، وابن حرب : أراد به أبا سفيان ، وهما من قواد المشركين في حرب الخندق على ما علمت ، وقوله "متخمطون" أي : مختلطون ، ويقال : المتخمط : هو المتكبر الشديد الغضب ، والحلبة — بفتح الحاء وسكون اللام — جماعة الخيل التي تعد للسباق .
(6) مغنم : مصدر بمعنى الغنم ، والأسلاب : جمع سلب ، وهو ما يأخذه المحارب من قرنه إذا قتله .
(7) الأبد — بفتح الهمزة وسكون الباء — القوة .
(8) المعصفة : الريح الشديدة التي تعصف بكل شيء : أي تذهب به ، وتقول : عصفت الريح وأعصفت ، إذا اشتدت هبوبها ، فهي عاصف من الأول ومعصف من الثاني .
(9) هذا البيت والأبيات قبله مأخوذة من قول الله تعالى : (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى بالله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً) .
(10) قنطوا : ينسوا ، وقوله "نصر ملىكنا" هو هكذا في أصول الكتاب وفي تاريخ ابن كثير (ج ٤ ص ١٣٣) ووقع في الديوان (تنزيل نص ملىكنا الوهاب) ونظنه محرفاً .

عَاتِي الْفُؤَادِ مُوقِعَ ذِي رِيْبَةٍ فِي الْكُفْرِ لَيْسَ بِظَاهِرِ الْأَثْوَابِ (١)
عَلِقَ الشَّقَاءُ بِقَلْبِهِ فَفُؤَادُهُ فِي الْكُفْرِ آخِرَ هَذِهِ الْأَحْقَابِ (٢)

استهل حسان رحمه الله القصيدة بمقدمة طليئة، بكى فيها الديار الدارسة، وقد كانت قبل مشرقة مجتمعة، ثم تخلص من هذه المقدمة، واستخف بها فالمقام لا يتسع لديار أو امرأة ناعمة، فالحدث جلل قال:

فدح الديار وذكر كل خريدة بيضاء آنسة الحديث كعاب

يقول فاترك الديار والحببية الناعمة البكر التي نهد ثدياها، والبكاء عليهما، واشك هؤلاء المشركين الظالمين إلى الله تعالى، فقد ظلموا رسولهم، وقتلوه وجمعوا له العرب وألبوا عليه الناس في المدن والبادية. فجاء عيينة بن حصن بمن معه من عطفان فظاهروا قريشاً وتحزبوا معهم، يريدون قتل الرسول ﷺ وسلبه وقد ردهم الله تعالى على أعقابهم لم ينالوا خيراً، بعد أن قنطوا من دخول المدينة، وبعث الله تعالى عليهم جنده ففرقهم وأخزى من ظاهرهم من بنى قريظة. وأقر الله تعالى عين محمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم وأذل المشركين ومن ظاهرهم.

وقد تأثر حسان رحمه الله بالقرآن الكريم فقال: "وَعَدُوا عَلَيْنَا قَادِرِينَ" من قوله تعالى: ﴿وَعَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥] ، "رُدُّوْا بُغِيْظَهُمْ" من قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيْظِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٥] ، "وَكَفَى الْإِلَهِ الْمُؤْمِنِينَ قِتَالَهُمْ" من قوله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] واستخدم حسان أسلوباً سهلاً ولغةً حضرية ليست غريبة، ووظف مفردات مولدة مثل: الكفر، الإيمان، القنوط، قر عيناً، غدا قادراً، رده بغيطه، كفى الله شر القتال.

ولقد تخلص حسان من بعض مظاهر تقاليد القصيدة الجاهلية فأوجز في المقدمة فلم تتجاوز أربعة أبيات، ولكنه ذكر الديار والحببية مقتضياً لنلا يخل بالتقليد القديم، وفعل كعب بن مالك ذلك، ولم يستطرد حسان في شيء عن الحببية الشابة الناهدة، فالأحداث تتلاحق والأمر جلل، وقد عاش المسلمون في ضيق شديد عندما حاسرتهم الأحزاب، فزاغت

(1) عاتى الفؤاد: قاس شديد القسوة، وموقع - بضم الميم وفتح الواو وتشديد القاف مفتوحة - هو الذي

أصابته البلايا، وهو أيضاً البعير الذي كثرت فيه آثار الدبر، ووقع هذا البيت في الديوان هكذا:

مُسْتَشْعِرٌ لِلْكَفْرِ دُونَ ثِيَابِهِ وَالْكَفْرِ لَيْسَ بِظَاهِرِ الْأَثْوَابِ

(2) وقع صدر هذا البيت في الديوان "علق الشقاء بقلبه فأرانه" وأرانه: غطى عليه، أو غلب على عقله

فأماله عن الحق وعدل به عن الطريق السوي.

الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، فأتى نصر الله تعالى وانكشف الضيق، وأصبح النصر حليف المسلمين بعد أن تحدث بعض المنافقين، وقالوا: «مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا» [الأحزاب: ١٢]، وترك بعض الرسول ﷺ، وقد ثبت معه رجال أشداء مخلصون مؤمنون «وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا» [الأحزاب: ٢٢].

وكشفت هذه المعركة أعداء مجاورين معه في المدينة غدروا به وخاتوا وتحالفوا مع الأحزاب سرّاً ووعدوهم النصر، وهم يهود بنى قريظة فغزاهم النبي ﷺ من منصرفة من الخندق.

وقد صالحت قريش النبي ﷺ، ووقعت بينهما معاهدة الحديبية، واتفقوا على أن يضعوا السلاح، وأن لا يعتدوا في فترة الهدنة، ودخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ ودخل بنو بكر في حلف قريش، وأذنت قريش للنبي ﷺ بالعمرة، فاعتمر، وكان معه جماعة من أصحابه وهي عمرة القضاء في العام الذي صالح فيه مشركي قريش قبل فتح مكة، وقد خرج المشركون ينظرون إليه، وعبد الله بن رواحه يقول:

خَلَّوْا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْباً يَزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيَذْهَلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرمة تقول الشعر؟ فقال له رسول الله ﷺ: "خل عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل"^(١)، فشعر الحماسة الذي أنشده شعراء المسلمين كان أشد عليهم من وقع النبل جملة واحدة، وأشد عليهم من السياط ووقع السيف.

وغزا النبي ﷺ خيبراً بعد أن صالح مكة يوم الحديبية، وكانت مركزاً لليهود الذين أجلاهم من المدينة فنزلوا بها على من كان بها من يهود. وكان اليهود يخرجون منها يحرضون قبائل العرب على النبي ﷺ ويستعدونهم عليه، وقد ظاهروا قريشاً بعد بدر، وأغروهم بغزو المدينة، فكان يوم أحد ثم غزوة الخندق، فلما انتهى النبي ﷺ من قريش وعقد معهم الهدنة قفل عائداً إلى المدينة وجهز جيشاً لغزو خيبر، وقد قال ابن لقيم العبسي، مفتخراً بجيش المسلمين من المهاجرين والأنصار ورجال من أسلم وغفار، وما فعلوه بيهود خيبر وما حققوا من انتصار سمع في العرب المشركين وأدخل الرعب في قلوبهم، وقال في آخرها:

(1) السيرة جـ ٤/٢٥ وأحكام القرآن، لابن العربي، دار الفكر، بيروت جـ ٣/١٤٤١.

ولقد علمت ليغلبن محمد
فرت يهود يوم ذلك في الوعى
وليثوين بها إلى أصفار^(١)
تحت العجاج غمائم الأبصار^(٢)

لقد كان الشاعر مطمئناً إلى انتصار المسلمين على اليهود وأن الغلبة ستكون لمحمد ﷺ
وأن خير سكون له وقد انكشفت اليهود للموت.

وصارت خير من مفاخر المسلمين في الحروب، قال كعب بن مالك في يوم خير :
نحن وردنا خيبراً وفروضة بكل فتى عارى الأشجاع مئود^(٣)
جواد لدى الغايات لأواهن القوى جرى على الأعداء في كل مشهد^(٤)
عظيم رماد القدر في كل شتوة ضروب بنصل المشرفي المهتد^(٥)
يرى القتل مدحاً إن أصاب شهادة من الله يرجوها وفوزاً بأحمد
يذود ويحمى عن دمار محمد ويدفع عنه باللسان وباليـد^(٦)
وينصره من كل أمر يريبه يجود بنفس دون نفس محمد
يصدق بالأنباء بالغيب مخلصاً يريد بذاك الفوز والعز في غد^(٧)

وكان للرجز دوره في غزوة خيبر، فقد ارتجز بعض الصحابة في المعركة ليدفعوا
همهم، ويغروا أنفسهم بقتال الأعداء.

وقد ولى النبي ﷺ علياً رضي الله عنه كتيبة في غزوة خيبر، فبرز إليه مرحب اليهود،

(1) ليثوين : ليقمين ، ثوى : أقام ، الأصفار : جمع صفر ، وهو الشهر الحرم، يريد أنه يقيم بها سنين ،
وستكون له.

(2) فر : كشفت ، يريد انكشفو للموت ، اللجاج : الغبار .

(3) الفروض : المواضع التي يشرب منها من الأنهار، والأشجاع : عروق ظاهر الكتف، ومئود : أى يدفع عن
حوزته ويمنع الأعداء أن تناله .

(4) الواهن : الضعيف ، ومشهد : مكان الحضور ، وشهد : أى حضر .

(5) عظيم رماد القدر : كناية عن أنه كريم، وإنما خص الشتاء ، لأنه الوقت الذي تشتد فيه الحاجة وتعظم فيه
قيمة العطية، والمشرفي : السيف.

(6) يذود : يدفع، والدمار — بزنة كتاب — ما تجب على الرجل حمايته والدفاع عنه.

(7) الأنباء : هو بفتح الهمزة جمع نبأ، والنبأ : الخبر ، والأنباء بكسر الهمزة — مصدر أنبأ بكذا : أى أخبر
به، والفوز" يروى في مكانه "الغنم" ، وهو بضم الغين المعجمة من الغنيمة. السيرة جـ ٣/٤٠٤، وراوها
ابن هشام عن أبي زيد .

وهو يقول^(١) :

قد علمت خير أنى مَرَحَبْ شاكي السلاح بطلٌ مُجَرَّبْ

إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز إليه على ﷺ ، وهو يقول^(٢) :

أنا الذي سمتني أمي حيدرة كليث غاب في العرين قسورة

أكلبكم بالصاع كيلَ السندرة

ويعد ناجية بن جُنْدُب الأسلمي أشهر الرُجَاز والحدادة من أصحاب النبي ﷺ ، وقد

ارتجز في خير قائلًا:

يا عبادِ الله فيمَ يَرْعَبُ ما هوَ إلا مأكَلٌ ومَشْرَبُ

وجنةٌ فيها نعيمٌ مُعْجَبُ

وقال ناجية بن جُنْدُب الأسلمي أيضًا:

أنا لمن أنكرني ابن جُنْدُب ياربُ قرنٍ في مكرِّي أنكَبِ^(٣)

طاحَ بمغْدَى أنسرٍ وثَعْلَبِ^(٤)

وعلم النبي ﷺ بتحركات الروم نحو الحجاز ومعهم بعض عرب الشام، فبعث النبي ﷺ بعثة تستطلع الأمر، وتخضع القبائل التي تقع على طريقهم إلى مؤته قرب الشام ، وقد كان عبد الله بن رواحة ثالثًا بعد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب في قيادة الجيش، وقد ولاهم النبي ﷺ إمرة الجيش تبعاً قبل أن ينصرفوا إن قتل الأول فالثاني، فالثالث، وكان هذا مؤشراً على أنهم سينالوا الشهادة، فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ، فودعه ثم قال^(٥):

أنت الرسولُ فمن يُحرَمْ نوافِلُهُ والوجهُ منه فقد أزرى بهِ القدرُ

(1) مقاتل الطالبين ، لأبي الفرج الأصفهاني ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ج ٢٤ / ١ ، ٢٥ — شاكي السلاح : لبس عدة الحرب.

(2) قيل إن علياً ؑ أسمته أمه أسداً باسم أبيها أسد بن هاشم بن عبد مناف ، وكان أبو غائباً فلما قدم سماه علياً، وحيدة اسم من أسماء الأسد ، السندرة : مكيال كبير.

(3) القرن — بكسر القاف — الذي يقاوم في قتال أوشدة ، والمكر : الموضع الذي تكرر فيه الخيل ، والأنكب: المائل إلى الجهة .

(4) طاح: ذهب وأهلك، وقوله " بمغْدَى أنسر " يروى مغْدَى بالبدال المهملة — ويروى بمغْدَى — بالذال المعجمة — فأما من رواه بالذال المهملة ، فهو من الغداء ، وهو على الروایتين اسم مكان، والأنسر : جمع نسر . السيرة جـ ٤٠٣ / ٣ .

(5) السيرة جـ ٤٢٩ / ٣ ، تفرست : تبينت : نافلة: هبة من الله وعطية ، أزرى : قصر به . عرفت هذه الغزوة بغزوة مؤته، وهي موضع بالشام.

فَتَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ فِي الْمُرْسَلِينَ وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصَرُوا
إِنِّي تَفَرَسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً فِرَاسَةً خَالَفَتْ فِيكَ الَّذِي نَظَرُوا

يريد أنه رأى فيه ما لم يره المشركون فيه. وقيل إن النبي ﷺ دعا له، وقال: وإياك ثبت. وودع المسلمون رجال الجيش وقادته، فقال له أحد المسلمين: ردكم الله، فلم يسعد بالرجعة بلا نضال، وقد بكى عبد الله بن رواحة، والناس تودعه، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بى حب الدنيا ولا صباية بكم، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] فلست أدري كيف بعد الورود، فقال: المسلمون صحبكم الله، ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين. فقال عبد الله:

لكنى سأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا^(١)
أو طعنة بيدي حرّان مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدتي أرشدك الله من غاز وقد رشدًا

فكل ماتمناه مغفرة الله تعالى أو أن يضرب بالسيف ضربة تفجر الدم أو يطعن بالرمح طعنة تنفذ في الأحشاء والكبد حتى يقولوا الناس وهم يمرون بقبره: لله أنت من غاز، لقد كنت رشيداً في أمرك عندما جاهدت حتى نلت الشهادة. وقد انصرف بن رواحة عن ودعه وهو يقول^(٢): خَلَفَ السَّلَامُ عَلَى امْرِئٍ وَدَعْتُهُ فِي النَّخْلِ خَيْرٌ مُشَيِّعٌ وَخَلِيلٌ

وروى زيد بن أرقم أنه كان رديف عبد الله بن رواحة، فسمعه، وهو يقول في الطريق إلى مؤتة: إِذَا أُدِّيْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الْحِسَاءِ^(٣)
فَشَأْنُكَ أَنْعُمٌ وَخَلَاكُ ذَمٌّ وَلَا أَرْجِعْ إِلَيَّ أَهْلِي وَرَائِي^(٤)
وجاء المسلمون وغادروني بأرض الشام منتهى الثَّوَاءِ^(٥)
وردك كل ذى نسب قريب إلي الرحمن منقطع الإخاء
هُنَالِكَ لَا أَبَالِي طُلُعَ بَعْلٍ وَلَا نَخْلٍ أَسَافِلُهَا رَوَاءِ^(٦)

(1) الزمخشري ج ١/ ٣٧٠، والسيرة ج ٣/ ٢٧٤

(2) السيرة ج ٣/ ٢٩٤، وهو يرد بمن ودعه النبي ﷺ والنخل يريد يثرب، وهي ذات نخيل.

(3) الحساء: مثل: دلاء مفرد دلو، وهو ما يغور في الأرض من الماء، فإذا بعثت عنه وحدته.

(4) لا أرجع: فعل دعاء مجزوم، يدعو على نفسه بالشهادة في المعركة، فلا يرجع إلى أهله.

(5) الثَّوَاء: الإقامة.

(6) البعل: النبات الذي يشرب بعروقه من الأرض، ولعذى: النبات الذي يشرب من ماء السماء، ورواء بالشَّم فيه إقواء، لأنه خالف الروى.

فلما سمع زيد بن أرقم منه ذلك بكى، فخفقه عبد الله بالدرة، وقال: ما عليك يا لكع أن يرزقني الله شهادة ، وترجع بين شعبتي الرجل؟ وقد واجه جيش المسلمين جموعاً كثيرة من الروم ومن ظاهرهم من قبائل العرب، وصبر لهم المسلمون على قتلهم.

ونزل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه عن فرسه ، وراتجز وهو يقاتل قائلاً:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها
والروم رومٌ قد دنا عذبها كافرة بعيدة أنسابها

على إذ لاقيتها ضرابها

وجعل رضي الله عنه يرفع من جأش نفسه ، ويغرى نفسه بالشهادة ، بعد أن قتل زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وأصبح أمير الجيش، فارتجز قائلاً:

أقسمت يا نفس لتنزلنني لتنزلن أو لتكرهنني
إن أجلب الناس وشدوا الرنة مالي أراك تكرهين الجنة
قد طالما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنه^(١)

وقال أيضاً :

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت قد أعطيت إن تفعلني فعلهما هديت^(٢)

وظل يقاتل وينازل الروم وأنصارهم العرب حتى نال الشهادة رضي الله عنه، فاختر الناس خالد بن الوليد، فقاتل بهم، فقدر النصر في المعركة، ورأى الاتسحاب لقتلة المسلمين التي لا تقارن بكثرة جيش الروم وعدته، فوضع خطة للاتسحاب، ونجا بجيشه^(٣).

وتتميز أراجيز بن رواحة وشعره بالإيقاع العالي، وهذا شأن الأراجيز والأشعار الحماسية، وأسلوبها سهل قريب الفهم، ولغتها واقعية من البيئة من البيئة، وليست وحشية بدوية. ولم تتوقف مسيرة الجهاد بمؤتة التي تعد انتصاراً لجيش المسلمين الذي ثبت أياماً، أمام جيش الروم وليس بينهما تكافؤ في لعدد والعدة، وقد عزم النبي ﷺ على التخلص من خطر قريش أولاً ثم يعد جيشاً قوياً يؤدب به الروم، وقد نقض أهل مكة العهد ، فقد

(1) النطفة : الماء القليل الصافي . الشنة : القرية القديمة .

(2) ويريد بالاثنتين في هما : صاحبيه زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وقد استشهدا قبله .

(3) ارجع إلى السيرة جـ ٣/٣٥٤ لقد واجه المسلمون عدداً ضخماً لم يتوقعوه، وقد أعد النبي ﷺ جيشاً آخر جراراً ضخماً وتولى قيادته، فتراجع الروم وخشوا مواجهته لما وجدوه من جيش مؤتة، وقد كان عدده قليلاً جداً قياساً إلى عدد جيش المسلمين في تبوك .

صالحوا النبي ﷺ على هدنة سنة سبع، وقد كرهها بعض المسلمين الذين كانوا يرون التعجيل بفتح مكة، وانصرف النبي ﷺ عنهم هذا العام اتقاء الحرب بمصالحة بينه وبين مشركي مكة، وكان فيها ألا تعتدي قريش على المسلمين أو حلفائهم، وقد دخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ في الصلح، وذكره بحلف لهم مع أبي طالب جده، فحالفهم عليه في الإسلام وزاده قوة. ودخل بنو بكر في حلف قريش، وكان بينهم وبين خزاعة دماء في الجاهلية وحجز الإسلام بينهم بالمصالحة مع قريش، فاعتمت بنو بكر الهدنة بين مكة والمدينة ونالوا من رجال من خزاعة كانوا بالحرم وظاهرهم رجال من قريش وأمدوهم بالسلاح، فاستجار من بقي منهم برجال من قريش. وتظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة، وأصابوا منهم ما أصابوا وكانت خزاعة ضمن المسلمين، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة، وكانوا في عقده وعهده، وخرج عمرو بن سالم الخزاعي، حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، وكان ذلك مما هاج فتح مكة، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراي الناس، فقال :

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا	حَلَفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَدُ ^(١)
قَدْ كُنْتُمْ وَلَدًا وَكُنَّا وَالِدًا	ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدًا ^(٢)
فَانصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَعْتَدَا	وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدًا ^(٣)
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا	إِنْ سِيمَ خَسَفًا وَجْهَهُ تَرَبَّدَا ^(٤)
فِي فَيْلِقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرَى مُزِيدًا	إِنْ قَرِيشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا ^(٥)
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا	وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَاءٍ رُصْدَا ^(٦)
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا	وَهُمْ أَذِلُّ وَأَقْلُّ عَدَدَا

- (1) ناشد : طالب ومذكر ، والأتلد : القديم ، قال ابن هشام : ويروى أيضاً : " فانصرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَيَّدَا " وأيداً : قوياً ، وهو من التأييد ، المعونة . قال ابن هشام : ويروى أيضاً : تَحَنُّ وَلَدْنَاكَ فَكُنْتُ وَلَدَا .
- (2) نصرًا أَعْتَدَا : أى حاضراً ، والممد : العون .
- (3) قد تجردا تروى هذه الكلمة بالجيم وبالحاء المهملة ؛ فأما من رواه بالجيم فمعناه شمر وتهيباً لحربهم، وأما من رواه بالحاء المهملة فمعناه غضب وثأر، وسيم خسفاً: معناه طلب منه وكلفه، والخسف — بفتح فسكون — الذل ، وتربَّد: تغير .
- (4) الفيلق : العسكر الكثير .
- (5) كدَاء : موضع بمكة ، "ورصدا" يروى بضم الراء وتشديد الصاد مفتوحة فهو جمع راصد ، مثل راكم وركع ، والراصد : الذي يترصد الأمر ويطلبه ، ويروى "رصدًا" بفتح الراء والصاد جميعاً.
- (6) الوتير : اسم ماء ، وهجد : جمع هاجد ، ويطلق على النائم أو المستيقظ ، وهو من الأضداد . السيرة جـ ١١/٤ .

قَتَلُونَا رُكْعًا وَسَجْدًا

هُمْ يَبْتَئُونَ بِالْوَتِيرِ هُجْدًا

لقد كان هذا الشعر مما هاج فتح مكة، فقد روى ابن إسحق أن رسول الله ﷺ قال: "تُصِرْت يا عمرو بن سالم" ثم عرض لرسول الله ﷺ عَنَانٌ مِنَ السَّمَاءِ فَقَالَ: "إِنْ هَذِهِ السَّحَابَةُ لَتَسْتَهْلَ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ". (١)

وأمر النبي ﷺ أصحابه بأن يعدوا أنفسهم للغزو، فجهزوا أنفسهم، وكنم الجهة التي يقصدها، وقال: "اللهم خذُ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها"، وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه يحرضُ المسلمين، ويذكر ما فعلته قريش ومن ظاهرها من بني بكر بخزاعة ومصاب رجال منها:

عَنَانِي وَلَمْ أَشْهَدْ بِبَطْحَاءِ مَكَّةَ	رِجَالُ بَنِي كَعْبٍ تَحَزُّ رِقَابُهَا ^(٢)
بَأَيْدِي رِجَالٍ لَمْ يَسْأَلُوا سُبُوفَهُمْ	وَقَتْلَى كَثِيرٍ لَمْ تَجِنَّ ثِيَابُهَا ^(٣)
أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ تَنَالَنَ نَصْرَتِي	سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَحَرْهَا وَعَقَابُهَا ^(٤)
وَصَفْوَانُ عَوْذٌ حَزَّ مِنْ شَعْرِ اسْتِهِ	فَهَذَا أَوَّانُ الْحَرْبِ شُدَّ عَصَابُهَا ^(٥)
فَلَا تَأْمَنَنَّ يَا ابْنَ أُمِّ مُجَالِدٍ	إِذَا احْتُلِبْتُ صَرْفًا وَأَعْصَلَ نَابُهَا ^(٦)
وَلَا تَجْزَعُوا مِنْهَا فَإِنْ سُيُوفُنَا	لَهَا وَقَعَةٌ بِالْمَوْتِ يَفْتَحُ بَابُهَا ^(٧)

وقد سعد المسلمون بهذا الغزو فلم يسعدهم صلح الحديبية؛ لأنهم كانوا يريدون مكة ويستعجلون دخولها فاتحين حنيناً إلى بيت الله الحرام ليخلصوه من المشركين والوثنية .
وقد علم رجال من مكة بخروجه إليهم، فخرج رجال منهم إليه معتذرين، فقد قدم عليه أبو سفيان بن الحارث ابن عمه ومعه ابن له وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة على رسول الله ﷺ، فلقياه وهو في طريقه إلى مكة للفتح بـ "تيق العقاب"، فطلباً من أم سلمة زوج النبي ﷺ أن تستأذن لهما على رسول الله ﷺ، وتشفع لهما، فقالت: يا رسول الله، ابن

(1) السيرة جـ ١٢/٣، وعنان من السماء : سحابة .

(2) يروى : وغبنا فلم نشهد . وتحز : نقطع .

(3) سئل السيف : شهره . تجنَّ ثيابها : تستر ، يريد أنهم قتلوا ولم يدفنوا .

(4) ويروى : "وخزها وعقابها"، ويروى : " حربها وعقابها"، الوخز: الطعن النافذ في جنب المطعون، ويقال: الطعن غير النافذ .

(5) صفوان : صفوان بن أمية بن خلف الجمحي ، وكان مع من أغاروا على خزاعة ، والعود: المسن من الإبل مع أن فيه بقية ، والاسـت : الدبر .

(6) ابن أم مجالد : عكرمة بن أبي جهل ، والصرف : اللين الخالص، أعصل: أعوج ، وناب أعصل: أعوج.

(7) لا تجزعوا : لا تفزعوا . السيرة جـ ١٥/٤ ، ١٦ .

عمك وابن عمك وصهرك. قال : "لا حاجة لي بهما أمّا ابن عمّي فهتك عرضي، وأما ابن عمّي وصهرّي فهو الذي قال لي بمكة ما قال. فقال أبو سفيان : والله ليأذنن لي أو لآخذن بيدي بئى هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فرق لهما، ثم قال شعراً بعد أن أسلم، واعتذر إليه مما كان مضى منه، فأقسم أنه يوم قاتل في صفوف المشركين النبي ﷺ كالذي يسير حيراناً في ليلة مظلمة، وقد حان وقت الاهتداء إلى المقصد الصحيح، وأصاب الحق، وقد هداني إليه من ضيقت عليه وسعيت في نفيه، وهو ادعاء كاذب، فقد زعم أنه أخرج النبي ﷺ ونفاه من مكة، قال (١):

لَعَمْرُكَ إِنِّي يَوْمَ أَحْمَلُ رَايَةً لَتَغْلَبَ خَيْلَ اللَّاتِ خَيْلَ مُحَمَّدٍ (٢)
لَكَأُمدِلَجَ الحِيرَانِ أَظْلَمَ لَيْلُهُ فهذا أواني حينَ أَهْدَى وَأَهْتَدِي (٣)
هداني هادٍ غيرُ نفسي ونالني مع الله من طردتُ كلَ مُطَرِّدٍ (٤)

ويروى : "ودلني على الحق من طردت كل مطرد".
وقيل : إن النبي ﷺ حين أنشده "ونالني مع الله من طردت كل مطرد". ضرب رسول الله ﷺ في صدره؛ وقال : "أنت طردتني كل مطرد؟!". ثم ذكر صدوده ورده الناس عن الإسلام، وعداوته النبي ﷺ، فقال :

أَصَدُّ وَأُنْأَى جَاهِدًا عَنْ مُحَمَّدٍ وَأُدْعَى وَإِنْ لَمْ أَنْتَسِبْ مِنْ مُحَمَّدٍ (٥)
هُمُ مَا هُمْ مِنْ لَمْ يَقْلُ بِهِوَاهُمْ وَإِنْ كَانَ ذَا رَأَى يُلْكُمُ وَيُقْنَدُ (٦)
أُرِيدُ لأَرْضِيهِمْ وَلَسْتُ بِلَاطٍ مع القوم ما لم أَهْدُ في كل مَقْعَدٍ (٧)
فَقُلْ لِنَقِيفٍ لَا أُرِيدُ قِتَالَهَا وَقُلْ لِنَقِيفٍ تِلْكَ: غَيْرِي أَوْعِدِي (٨)
فَمَا كُنْتُ فِي الْجَيْشِ الَّذِي نَالَ عَامِرًا وما كان عن جَرَى لِسَانِي وَلَا يَدِي
قِبَائِلَ جَاعَتْ مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ نَزَائِعُ جَاعَتْ مِنْ سِهَامٍ وَسَرْدَدِ

(1) السيرة جـ ٤/ ١٨، ١٩، ٢٠.

(2) اللات: اسم صنم من أصنام العرب. وأراد بخيل اللات: جيش الكفر والشرك، وخيل محمد: جيش المسلمين.

(3) المدلج : الذي يسير ليلاً.

(4) مُطَرِّد : مصدر ميمي، بمعنى : طرد.

(5) أصد : أمنع الناس عن الدخول في الإيمان. أنأى : أبعد عنه جاهداً : مجتهداً.

(6) قَنَدَ : من الفند، وهو الكذب. السيرة جـ ٤ / ١٩ ، ٢٠

(7) لاطط : ملصق، يقال لاط حبه بقلبي : إذا لصق به.

(8) أوعدي : هدي.

وخرج بعضهم يسترحمه ويطلب عفواً عاماً لأهل مكة ويذكره بالرحم، ومنهم أبو سفيان بن حرب الذي لقيه بالجعرانة قبيل مكة، وأسلم هنالك.

وقد أمر النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب أن يأخذ أبا سفيان بن حرب إلى مكان بالجبل، فيرى كتائب الإسلام وهي تمر قبل دخولهم مكة، فمر سعد بن عبادة به، فقال له يا أبا سفيان: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة" ^(١) فوقع في قلبه الخوف على قومه، وعلم رسول الله ﷺ بقول سعد، فأخذ الراية منه، وروى عن جابر رضى الله عنه : أن امرأة من قريش عارضت رسول الله ﷺ لما قال سعد بن عبادة ذلك فقالت :

يا نبي الهدى إليك لجأ
حين ضاقت عليهم سعة الأرز
جى قريش ولات حين لجاء
ض وعاداهم إله السماء
إن سعداً يزيد قاصمة الظهر
ر بأهل الحجون والبطحاء

فلما سمع هذا الشعر دخلته رافة لهم ورحمة، فأخذ الراية من سعد ودفعها إلى ابنه قيس بن سعد. ^(٢)

ولحسان قصيدة قالها وجيش المسلمين في طريقه إلى مكة، وقد تحقق ما قاله من فزع أهل مكة وخروج النساء.

روى البيهقي عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما دخل رسول الله ﷺ عام الفتح رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخمير، فتبسم إلى أبي بكر، فقال : يا أبا بكر كيف قال حسان ؟ فأنشد قوله: ^(٣)

عدمت بنيتي إن لم تروها
ينازعن الأسنة مسرجات
تثير النقع موعدها كداء
يلطمهن بالخمير النساء

وكان فضالة بن عمير بن الملوح الليثي يريد قتل النبي ﷺ، وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله، قال :

(1) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح.

(2) فتح الباري جـ ٦٠٥/٧، وكان ذلك في العام الثامن.

(3) فتح الباري جـ ٦٠٧/٧، وهما من قصيدته التي أولها :

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء

الديوان ص ١٧، والسيرة جـ ٤٤/٤. وقد سبق شرحها.

ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال لا شيء كنت أذكر الله عز وجل، فضحك رسول الله ﷺ، ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره فسكن، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما كان من خلق الله شيء أحب إلى منه، فمر، وهو راجع إلى أهله بامرأة كان يتحدث إليها، فقالت هلم إلى الحديث، فقال: لا، وقال:

قالت : هلم إلى الحديث، فقلت : لا يَأْبَى عَلَيْكَ وَاللَّهُ وَالْإِسْلَامُ
لو ما رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسرُ والأصنامُ
لرأيت دينَ الله أضحى بيِّنا والشركُ يغشى وجهه الإظلامُ

وحسن إسلامه وسيرته. (١)

وكان النبي ﷺ يطوف على راحلته يوم الفتح وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص، فجعل يشير بقضيب في يده إلى الأصنام، ويقول قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] .

فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار لقفاه إلا وقع لوجهه حتى ما بقي منها صنم إلا وقع، فقال تميم بن أسد الخزاعي في ذلك: (٢)

وفي الأصنام معتبرٌ وعلمٌ لمن يرجو الثواب أو العقاباً
 واجتمعت جماعة من المشركين، فيهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، في مكان يسمى الخندمة، ليردوا رسول الله ﷺ عن دخول مكة، وكان معهم حماس بن قيس من بني بكر، فقال مرتجزاً: (٣)

إن يُقْبِلُوا اليومَ فمالي علّه هذا سلاحٌ كاملٌ آلّه وذو غرارين سريّع السلّة
فلقيتهم خيل المسلمين، فانهزموا، فولى حماس منهزماً، وعاد إلى بيته وطلب من زوجته أن تغلق الباب، وكان قد وعدها أن يخدمها بعض المسلمين، فسألته أين كنت :
فقال:

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فرَّ صفوانُ وفرَّ عكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمّة واستقبلتهم بالسيف المسلمة

(1) السيرة جـ ٣٧/٤ .

(2) السيرة جـ ٣٧/٤ .

(3) وتروي هذه الأبيات للرّعاش الهذلي. ارجع إلى السيرة جـ ٢٨/٤ .

الأنثى : الحربة لها سنان طويل. ذو غرارين : يريد السيف، والغرار : الحد.

يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمُجْمَةٍ ضَرْبًا فَلَا يُسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَةٌ
لَهُمْ نَهْيَتْ خَلْفَنَا وَهُمْهُمْهُمْ لَمْ تَنْطَقِي فِي اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَةٍ^(١)

وقد كان فتح مكة فتحاً مبيناً، فقد فتح الله به للإسلام قلوب العرب فأتوا طوعاً مسلمين، وبايعوه على السمع والطاعة.

وسقطت بفتح مكة المعارضة التي عنت عن أمر ربها، وأطالت في عنادها، فدانت لله ولرسوله طوعاً وهي طائعة، وتحول شعراء المشركين الذين هجوه ونالوا منه ومن المسلمين إلى معترزين ومادحين، يطلبون العفوا، وهرب رجال من المشركين خشية أن يلقوا جزاء صنعهم من النبي ﷺ، فقد هرب عبد الله بن الزبيري إلى نجران أيضاً، فرماه حسان ببیت شعر واحد ما زاد عليه، وهو :

لَا تَعْدَمَنْ رَجُلًا أَحَلَّكَ بُغْضُهُ نَجْرَانُ فِي عَيْشٍ أَحَدٌ لَنِيْمٍ

أي لا تترك رجلاً حملك كرهك له على العيش في نجران قليل المؤنة منقطع لا أنيس لك. فلما بلغ ذلك ابن الزبيري عاد مسرعاً إلى النبي ﷺ، واعتذر إليه ومدحه:^(٢)

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِن لِّسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ
إِذْ أَبَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْـ غَيٍّ وَمِنْ مَالٍ مِثْلَهُ مَثْبُورُ
أَمِنَ اللَّحْمَ وَالْعِظَامَ لِرَبِّي ثُمَّ قَلْبِي الشَّهِيدُ أَنْتَ النَّذِيرُ
إِنِّي عَنْكَ زَاجِرٌ ثُمَّ حَيًّا مِنْ لَوَى وَكُلْهُمْ مَغْرُورُ

وهرب هبيرة بن أبي وهب إلى نجران أيضاً، وأقام بها هبيرة حتى مات كافراً، وكانت عنده أم هانئ ابنة أبي طالب، واسمها هند، وقد قال حين بلغه إسلام أم هانئ:^(٣)

(1) أبو يزيد: كنية عروة بن مسعود، وخففت الهزمة للضرورة، والمؤتمه التي قُتل زوجها، ولها أولاد أيتام، وأيتمت فهي مؤتم. والجمجمة: الرأس، الغمغمة: أصوات الأبطال في الحرب. النهيت: نوع من صياح الأسد، والمهممة: صوت في الصدر. السيرة جـ ٤/٢٨، ٢٧.

(2) السيرة جـ ٤/٣٩. يريد أن لسانه سوف يصلح ما قاله وهو مشرك، عندما بارى الشيطان في الضلالة، واتبعه وأهلك نفسه، أو قد صدق لحي وعظامي وقلبي أنك أنت النذير البشير، وسوف أزرع عنك كل من هجأك أو نال منك. وقد سبق ذكرها في الاعتذار.

(3) السيرة جـ ٤/٤٣.

- أَشَافَتَكَ هَندٌ أَمْ أَتَاكَ سُؤَالُهَا
وَقَدْ أَرَقْتَ فِي رَأْسِ حِصْنٍ مُنْعٍ
وَعَاذَلَهُ هَبَّتْ بَلِيلُ تَلُومِنِي
وَتَزَعُمُ أَنِّي إِنْ أَطَعْتُ عَشِيرَتِي
فَأَنِّي لَمِنْ قَوْمٍ إِذَا جَدَّ جَدُّهُمْ
وَإِنِّي لِحَامٍ مِنْ وَرَاءِ عَشِيرَتِي
وَصَارَتْ بِأَيْدِيهَا السُّيُوفُ كَأَنَّهَُا
وَإِنِّي لَأَقْلَى الْحَاسِدِينَ وَفَعَلَهُمْ
وَإِنْ كَلَامَ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ
فَإِنْ كُنْتُ قَدْ تَابَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ
فَكُونِي عَلَى أَعْلَى سَحِيقٍ بِهِضَبَةٍ
- كَذَاكَ النَّوَى أَسْبَابُهَا وَانْفَتَالُهَا^(١)
بَنْجَرَانٍ يَسْرِي بَعْدَ لَيْلٍ خِيَالُهَا^(٢)
وَتَعَذَّلَنِي بِاللَّيْلِ ضَلَّ ضَلَالُهَا^(٣)
سَأَرْدَى وَهَلْ يُرْدِينَ إِلَّا زِيَالُهَا^(٤)
عَلَى أَيِّ حَالٍ أَصْبَحَ الْيَوْمَ حَالُهَا
إِذَا كَانَ مِنْ تَحْتِ الْعَوَالِي مَجَالُهَا^(٥)
مَخَارِيقُ وَلَدَانٍ وَمِنْهَا ظَلَالُهَا^(٦)
عَلَى اللَّهِ رِزْقِي نَفْسُهَا وَعِيَالُهَا^(٧)
لَكَالْنَبْلِ تَهْوِي لَيْسَ فِيهَا نِصَالُهَا^(٨)
وَعَطَفْتُ الْأَرْحَامَ مِنْكَ حِبَالُهَا
مُلْمَلَمَةٌ غِبْرَاءُ يَبْسُ بِلَالُهَا^(٩)

وقال أنس بن زَنِيمِ الدَّيْلِيّ يعتذر إلى رسول الله ﷺ مما كان قال فيهم عمرو بن سالم الخزاعي، الذي ذهب يستغيث النبي ﷺ عندما قام رجال من بني بكر بقتل رجال من خزاعة ونقضوا العهد:

- (1) "أتاك" ويروى "تأك" ومعناه بعدُ عنك، والنأى : البعد، وانفتالها : يروى بالفاء الموحدة، ومعناه تغلبها من حالة إلى حالة، ويروى في مكانه "وانتقالها" بالقاف.
- (2) أرقّت : أزلت النوم، ونجران : بلد قرب اليمن شمالها، ويسري : يسير ليلاً.
- (3) هبت : استيقظت من نومها، وضل ضلالها : دعاء عليها بالضلال.
- (4) أردى - بفتح الدال، من باب رضى يرضى - أي : أهلك، وزيالها : ذهابها.
- (5) العوالي : جمع عالية، وهي أعلى الرمح.
- (6) مخاريق : جمع مخراق، وهو منديل بمسكه الصبي بيده ويضرب به، شبه السيوف به.
- (7) ألقى : أبغض، والقلى - بكسر القاف - البغض، وقد قلاه بقلية وقلاه بقلوه وفي التنزيل: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣].
- (8) "في غير كنهه" أي في غير حقيقته، وكنه الشيء : حقيقته وما هو عليه، والنصال : حديد السهام.
- (9) السحيق : البعيد، والهضبة : الكدية العالية، والململة : المستديرة، والغبراء : التي علاها الغبار، واليبس : اليابس. ويروى : وقطعت الأرحام منك حبالها .

أَنْتَ الَّذِي تُهْدِي مَعَدَّ بِأَمْرِهِ
وَمَا حَمَلْتَ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا
أَحَثَّ عَلَى خَيْرٍ وَأَسْبَغَ نَائِلًا
وَأَكْسَى لِبُرْدِ الْخَالِ قَبْلَ ابْتِذَالِهِ
تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي
تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ قَادِرٌ
تَعَلَّمَ بِأَنَّ الرِّكْبَ رَكِبَ عُوَيْمِرَ
وَنَبَّوْا رَسُولَ اللَّهِ أَنِّي هَجَوْتُهُ
سِوَى أَنَّنِي قَدْ قُلْتُ وَيْلٌ أَمْ فِتْيَةٌ
أَصَابَهُمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ لِدِمَائِهِمْ

بَلِ اللَّهُ يَهْدِيهِمْ وَقَالَ لَكَ أَشْهَدُ
أَبْرًا وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ (١)
إِذَا رَاحَ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ الْمُهْنَدِ (٢)
وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِقِ الْمُتَجَرِّدِ (٣)
وَأَنَّ وَعِيدًا مِنْكَ كَالْأَخَذِ بِالْيَدِ (٤)
عَلَى كُلِّ صِرْمٍ مُتَّهِمِينَ وَمُنْجِدِ (٥)
هُمُ الْكَاذِبُونَ الْمُخْلِفُونَ كُلُّ مَوْعِدِ
فَلَا حَمَلَتْ سَوَاطِي إِلَى يَدِي
أُصِيبُوا بِنَحْسٍ لَا يَطْلُقُ وَأَسْعَدُ (٦)
كَفَاءً فَعَزَّتْ عِبْرَتِي وَتَبْلُدِي (٧)

فَاتَّكَ قَدْ أَخْفَرْتَ إِنْ كُنْتَ سَاعِيًا
ذُوَيْبٍ وَكُلْثُومٍ وَسَلْمَى تَتَابَعُوا
وَسَلْمَى لَيْسَ حَيٌّ كَمَثَلِهِ
فَاتَنَّى لَا دِينَا فَتَقْتُ وَلَا دِمَا

بَعْدَ بَنِ عَبْدِ اللَّهِ وَابْنَةِ مَهْودِ (٨)
جَمِيعًا فَلَا تَدْمَعُ الْعَيْنُ أَكْدِ (٩)
وَإِخْوَتُهُ وَهَلْ مُلُوكٌ كَأَعْبَدِ
هَرَفْتُ تَبَيَّنَ عَالِمِ الْحَقِّ وَأَقْصَدِ

(1) الذمة : بكسر الذال، وتشديد الميم : العهد.

(2) أحث : أسرع، وأشد حثًا للناس واستنهاضًا لهمتهم، وأسبغ : أكمل وأضفى، والنائل : العطاء، والمهند : الصارم.

(3) الخال : ضرب من برود اليمن، وابتذاله : استعماله حتى يبتذل، والسابق ههنا : الفرس، والمتجرد : أراد به الذي يسبق الخيل.

(4) تعلم : معناه اعلم، والوعيد : التهديد.

(5) صرم - بكسر فسكون - البيوت المجتمعة، ومتهمين : أي يسكنون تهامة، والمنجد : الذي يسكن نجدًا، وأراد بتهامة المنخفض من الأرض وبنجد المرتفع منها.

(6) "طلق" يقال : يوم طلق؛ إذا لم يكن فيه حر ولا برد ولا شيء يؤذي، وكذلك قولهم : ليلة طلاقة.

(7) كفاء : أراد نظيرًا أو مكافئًا، وعزت : اشتدت حتى غلبتني، ومنه قوله تعالى : «وعزتي في الخطاب»، والعبرة : الدمعة، وتبلدي : تحيري، ويروى "تجلدي"، وهو الصبر.

(8) أخفرت : نقضت العهد.

(9) أكمد : هو من الكمد، وهو الحزن.

وكان عباس بن مرداس السُّلَمي مشركاً وأسلم يوم الفتح، وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في جُند حول مكة، يدعو الناس إلى الإسلام، فقال عباس بن مرداس مخاطباً رسول الله ومادحاً خالداً: (١)

فإن تك قد أمّرت في القوم خالداً وقدّمته فإنه قد تقدّمَا
بجندٍ هداهُ الله أنت أميرُهُ نصيب به في الحق من كان أظلمَا

وظهر خطر آخر بعد فتح مكة، فقد جمع مالك بن عوف النصري هوازن بني نصر، وجُشَم، وسعد، ورجال من بني هلال، وأجمع السير إلى رسول الله ﷺ وجعل مع الرجال أموالهم ونساءهم وأبناءهم ليقاتلوا عنهم ولا يفروا، وكان فيهم الشاعر والفارس دُرَيْد بن الصمة، وقد أسن فحملوه في شجار (محمل يشبه الهودج مكشوف الظهر)، يتبركون به ويستشرونه، وقد أنكر على مالك بن عوف أنه حمل مع الجيش النساء والأولاد والأموال، فقال دريد أسفاً: (٢)

يا ليتني فيها جَذَع أخبُ فيها وأضَع
أَقوْدُ وطفاء الزَمْع كأنّها شاةٌ صَدَعُ

وقال دريد لمالك هذا يوم لم أشهده، ولم يفتني، وقال: (٣)

وهل أنا إلا من غزِيّةٍ إن غوت غويت وإن ترشد غزِيّةٍ أرشد
وانتصر المسلمون في حنين، وفر مالك بن عوف ورجال معه، وتركوا وراءهم أولادهم، ونساءهم وأموالهم، وقُتِلَ دُرَيْدُ بن الصمة.
وقال بجير بن زهير بن أبي سُلمى في يوم حنين يعيرهم بالفرار ويفخر بانتصار المسلمين:

(1) السيرة جـ ٤/ ٥٣ وقال بن هشام قالها يوم حنين.

(2) السيرة جـ ٤/ ٦٧.

(3) الأصمعيات، دار المعارف ص ١١٢، وتاريخ الحكم في الإسلام، الدكتور محمود عكاشة، مؤسسة المختار ص ٦١.

لَوْلَا إِلَٰهٌ وَعَبْدُهُ وَلَيْتُمْ
بِالْجَزَعِ يَوْمَ حَبَانَا أَقْرَأْنَا
مَنْ بَيْنَ سَاعِ ثَوْبِهِ فِي كَفِّهِ
فَاللَّهُ أَكْرَمَنَا وَأَظْهَرَ دِينَنَا
وَاللَّهُ أَهْلَكَهُمْ وَفَرَّقَ جَمْعَهُمْ

حِينَ اسْتَخَفَّ الرَّعْبُ كُلَّ جَبَانٍ^(١)
وَسَوَاحِجَ يَكْبُونٍ لِلْأَذْقَانِ^(٢)
وَمُقَطَّرٍ بِسَنَابِكٍ وَلَبَانَ^(٣)
وَأَعَزَّنَا بِعِبَادَةِ الرَّحْمَنِ
وَأَذَلَّهُمْ بِعِبَادَةِ الشَّيْطَانِ

وتوجه النبي ﷺ نحو الطائف، وكانت آخر معادل المشركين، وقد تحصنوا في حصونهم،
فحاصرهم النبي ﷺ في حنين - فقال كعب بن مالك حين أجمع رسول الله ﷺ إلى الطائف :
قَضَيْنَا مِنْ تَهَامَةٍ كُلِّ رَيْبٍ وَخَيَّرَ ثُمَّ أَجْمَعْنَا السُّيُوفَ^(٤)
نُخْبِرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ
فَلَسْتُ لِحَاضِنٍ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا
وَنَتَنَزَعُ الْعُرُوشَ بِبَطْنِ وَجٍّ^(٥)
وَيَأْتِيكُمْ لَنَا سَرْعَانُ خَيْلٍ
إِذَا نَزَلُوا بِسَاحَتِكُمْ سَمِعْتُمْ^(٦)
لَهَا مِمَّا أَنَاخَ بِهَا رَجِيفًا^(٧)
لَهَا مِمَّا أَنَاخَ بِهَا رَجِيفًا^(٨)

- (1) استخف : دعاهم إلى الخفة وطاشت به حلومهم، والرعب : الفزع والخوف، وكل جبان " هكذا وقع في بعض النسخ، ووقع في نسختين أخريين "كل جنان" والجنان : القلب.
- (2) الجزع : ما انعطف من الوادي، وحبا : اعترض، يقال : حبا الشيء، إذا اعترض، والسوايح : هي الخيل كأنها تسبح في الماء لسهولة سيرها، ويكبون : يخرون ويسقطون، والأذقان : جمع ذقن، كسبب وأسباب.
- (3) مقطر : مرمي على قطره، يريد واقعاً على جنبه، والسنايك : جمع سنبك، وهو طرف مقدم الحافر، واللبان - يفتح اللام - الصدر.
- (4) الحاضن : المرأة التي تحضن ولدها، وساحة الدار : وسطها، ويقال : الساحة القناء.
- (5) العروش ههنا : سقف البيوت، وج : موضع، والخلوف : الغائبون هنا.
- (6) السرعة : المتقدمون السابقون، وكثيفاً : أراد كثيراً، وأصله الملتف بعضه ببعض، ويروى في مكانه "كثيفاً" بالشين المعجمة في مكان الثاء - وهو الظاهر.
- (7) الرجيف : هو الصوت الشديد مع زلزال، وهو من الرجة، ويروى "وجيفا" بالواو في مكان الراء - وهو السريع، يريد تسمعون صوته بسرعة.
- (8) القواضب : السيوف، والمرهقات أو المحددة أو القاطعة، والمصطلون بها : المباشرون لها، يريد أعداءهم الذين يضرّبون بها.

يُزِرْنَ الْمُصْطَلِينَ بِهَا الْحُتُوفَا^(١)
 قِيُونَ الْهَنْدَ لَمْ تُضْرَبَ كَتِيفَا^(٢)
 غَدَاةَ الزَّحْفِ جَادِيَا مَدُوفَا^(٣)

مِنَ الْأَقْوَامِ كَانَ بِنَا عَرِيفَا^(٤)
 عِتَاقُ الْخَيْلِ وَالنُّجُبِ الطُّرُوفَا^(٥)
 يُحِيطُ بِسُورِ حِصْنِهِمْ صُفُوفَا^(٦)
 نَقِيَّ الْقَلْبِ مُصْطَبِرَا عَزُوفَا^(٧)
 وَحَلِمَ لَمْ يَكُنْ نَزَقًا خَفِيفَا^(٨)
 هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بِنَا رُؤُوفَا^(٩)
 وَتَجَعَلَكُمْ لَنَا عَضْدًا وَرِيفَا^(١٠)
 وَلَا يَكُ أَمْرُنَا رَعِشًا ضَعِيفَا^(١١)
 إِلَى الْإِسْلَامِ إِذْعَانَا مُضِيفَا^(١٢)
 أَهْلَكْنَا التَّلَادَ أَمَ الطَّرِيفَا^(١٣)
 صَمِيمَ الْجَذَمِ مِنْهُمْ وَالْحَلِيفَا^(١٤)

بِأَيْدِيهِمْ قَوَاضِبُ مُرْهَقَاتُ
 كَأَمْثَالِ الْعَقَائِقِ أَخْلَصَتْهَا
 تَخَالُ جَدِيَّةُ الْأَبْطَالِ فِيهَا

أَجَدَهُمْ أَلَيْسَ لَهُمْ نَصِيحُ
 يُخْبِرُهُمْ بِأَنَا قَدْ جَمَعْنَا
 وَأَنَا قَدْ أَتَيْنَاهُمْ بِزَحْفِ
 رَيْسِهِمُ النَّبِيِّ وَكَانَ صُلْبَا
 رَشِيدَ الْأَمْرِ ذَا حُكْمٍ وَعَلِمِ
 نَطِيعُ نَبِينَا وَنُطِيعُ رَبِّا
 فَإِنْ تَلَقَّوْا إِلَيْنَا السَّلَامَ نَقْبَلُ
 وَإِنْ تَأْبَوْا نَجَاهِدْكُمْ وَنَصْبِرُ
 مُجَالِدُ مَا بَقِينَا أَوْ تَنْيَبُوا
 نَجَاهِدُ لَا نُبَالِي مَنْ لَقِينَا
 وَكَمْ مِنْ مَعْشَرٍ أَلْبُوا عَلَيْنَا

-
- (1) العقائِق : جمع عقيقة، وهي هنا شعاع البرق، والكتيف - بالتاء المثناة - جمع كتيفة، وهي صفائح الحديد التي تضرب للأبواب وغيرها.
- (2) الجدِيَّة : الطريقة من الدم، و"غداة الزحف" أي دنو بعض.
- (3) تهامة : ما انخفض من أرض الحجاز، والريب : الشك، وأجمنا : أرحنا.
- (4) العريف ههنا : العارف.
- (5) النجب : جمع نجيب، وهو العتيق الكريم، والظروف : جمع طرف - بكسر فسكون - وهو الكريم من الخيل أيضاً.
- (6) العزوف عن الشيء : الصابر عليه المنصرف عنه، وأراد أنه عزوف عن كل ما يشين الرجال.
- (7) النزق - مثل الفرح - الكثير الطيش.
- (8) الريف : الموضع المخصب على الماء.
- (9) الرعش : المتقلب غير الثابت.
- (10) الإذعان : الانقياد في ذل، والمضيف : الذي يشفق منه ويخاف.
- (11) التلديد : المال القديم، والطريف : المال المحدث.
- (12) ألبوا علينا : جمعوا علينا الناس، والجذم - بكسر فسكون - الأصل.

أَتَوْتَنَا لَا يَرَوْنَ لَهُمْ لِقَاءَ
فَجَدَعْنَا الْمَسَامِعَ وَالْأُتُوفَا^(١)

بِكُلِّ مَهْنَدٍ لَيْنٍ صَقِيلٍ
نَسُوقُهُمْ بِهَا سَوْقًا عَنيفًا^(٢)

لَأَمْرِ اللَّهِ وَالْإِسْلَامِ حَتَّى
يَقُومَ الدِّينَ مُعْتَدِلًا حَنِيفًا

وَتَنْتَسِيَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى وَوَدَّ
وَنَسَلُهَا الْقَلَادَ وَالشَّنُوفَا^(٣)

فَأَمْسَوْا قَدْ أَقْرُوا وَاطْمَأَنَّنُوا
وَمَنْ لَا يَمْتَنِعَ يَقْبَلْ خُسُوفًا^(٤)

لم يستهل الشاعر قصيدته بمقدمة طللية أو غزلية أو خمرية، بل دخل إلى الموضوع الرئيس، فذكر انتصارات المسلمين على قبائل العرب في تهامة ومكة وخيبر وحنين، وحدد الهدف القادم، وهو قبيلة دُوس أو ثقيف، وثقيف بطن من هوازن، وقدم أبناء عمومته في حنين، ودارت الدائرة عليهم، فقد أقبل عليهم جيش عظيم مدجج بالسلح مشتاق إلى لقائهم ورئيسهم النبي ﷺ، وهو رسول الله ذو رأي حكيم وعلم، ونحن في طاعة الله تعالى ونبيه ﷺ، وليس أمامكم إلا أن تسلموا فتكونوا لنا عوناً وساعداً على أعداء الإسلام، فإن أبيتم جاهدناكم وصبرنا على حربكم حتى تدعونا بالطاعة.

وليس أول من لاقينا، وقد هزمنا من هم أشد منكم قوة ومنعة، وسوف نسوقكم إلى أمر الله والإسلام حتى يكون الدين لله، وسوف تزهق عبادة الباطل اللات والعزى وودّ، فإن امتنعتم عن الدخول في ديننا سقيناكم ذلاً ومهانة، وصبرت الطائف للنبي ﷺ أياماً في حصونها، فاتصرف عنهم، فأتوه طائعين ودخلوا في الدين.

*** **

(1) جدعنا : قطعنا، وأكثر استعمال هذا اللفظ في قطع الأنف خاصة.

(2) لين - بفتح فسكون - مخفف لين - بتشديد الياء مكسورة - وعنيف : ليس فيه رفق.

(3) الشنوف : جمع شنف، وهو القرط الذي يلبس في الأذن.

(4) الخسوف ههنا : الذل والمهانة.

الغزل

الغزل : ما يوصف به النساء من حسن وجمال وگرام بهن، والتودد إليهن، والإعجاب والشغف بهن، وعرف بأنه اللهو مع النساء في الشعر، أو رقيق الشعر في النساء، ويسمى غزلاً ونسيباً وتشبيهاً، والنسيب: الرقيق منه المُتَغَزَّلُ به في النساء، والتشبيب: التغزل بالمرأة ووصف حسنها.

وقد ظهر هذا الفن في الجاهلية، وكان موضوع مقدمة القصيدة، فالشاعر يبدأ القصيدة بالوقوف على الأطلال والبكاء على بقايا الديار، ويتذكر ذكرياته مع الحبيبة وأيام الصبا، ويصف جمالها ومشيتها، وقد يصف بعض مفاتن جسدها وما يعجبه منها، ويصرح بذلك وقد تجاوز في وصفه الحسي فيصف المفاتن من جسمها وصفاً صريحاً، وقد كان الوصف في الجاهلية حسيّاً يصف الشاعر معالم الجسد وحركتهما.

وعد هذا تقليداً في المقدمة الغزلية التي يستهل فيها الشاعر قصيدته بالحديث عن امرأة يحبها فيصفها، ويتحسر على ذكرياته معها وفراقها، ويتوجع ويشكو بعدها وهجرها وجفائها وتمنعها، ويطلب من رفيقه أن يشاركه معاناته، ويستعطف سامعه، ويدعوه أن يسعفه بالبكاء معه على ديار الحبيب.

وظلت هذه المقدمات الغزلية تقليداً في عصر النبوة وما بعده حتى العصر الحديث، فظهرت اتجاهات حديثة تدعو إلى التخلص منها، وقد ثار عليها بعض شعراء الدولة العباسية فسخروا ممن يبكون على الربع الدارس وهو ووقوف الشاعر على بقايا الديار فيستذكر ذكرياته بها، فما ضرهم لو أنهم جلسوا، وتركوا الربع ولبسوا جانباً؟! ولكنهم استبدلوا المقدمة الطللية التي بكى الشاعر فيها ديار الحبيب بالمقدمة الخمرية، وظلت المقدمة افتتاحية في القصيدة العربية، ووقع الاختلاف في مضمونها فقط فهي بكاء على أطلال الديار الدارسة وذكريات الحبيب، أو مقدمة خمرية خالصة موضوعها الخمر فقط، أو رثائية تنعى فقيد.

ولم يتجاوز الغزل في شعر شعراء الإسلام في عصر النبوة مقدمة القصيدة، فالظروف التي واكبت إنتاج هذه القصائد لا تناسبها القصائد الغزلية، فالدعوة الإسلامية كانت في مواجهة أعدائها، وقد جند شعراء الإسلام أنفسهم في جيوشها للدفاع عنها، فتركوا الغزل وناقحوا بشعرهم عن الله ورسوله ودينهم والمسلمين، وليست هنالك قصائد غزلية بل أبيات عرضت في مقدمات بعض القصائد الطويلة، وليس عن قصد بل تقليد لما عليه مقدمات القصائد التي ابتدأها الجاهليون.

والمرأة التي ذكرت في قصيدة كعب بن زهير كانت سعيدة ليست إلا رمزاً لحيرة الشاعر واضطراب

وجدانه وحاجته إلي الدفاء العاطفي، فقد حرّمته وعذّبته وأخلفت وعدها وصدّته، ثم تجاوز سعاد إلي الحديث عن الرحلة الشاقّة إلي الأرض التي نزلت بها بعد أن هجرته⁽¹⁾.

وأطال كعب في الحديث عن رحلة السفر والناقة التي قطعت الرحلة، ووصف الناقة وصفاً حسياً دقيقاً، وتناول المعاناة والظروف القاسية التي خاضت غمارها للوصول إلي المكان، بيد أن الناقة بعد أن قطع الرحلة الشاقّة لم تصل به إلي الأرض التي تسكن بها سعاد التي ابتدأ بها القصيدة بل حملته إلي المكان الذي يسكن فيه رسول الله ﷺ، ولم يعد يذكر سعاد بعد المقدمة بل ختم القصيدة بنهاية الرحلة إلي رسول الله ﷺ، فسعاد رمز للمعاناة النفسية والحيرة، والظروف التي واجهها في السفر رمز لما وقع في نفسه وهو في طريقه إلي رسول الله ﷺ، وعاقبة اللقاء به ورد فعله، والناقة كانت معبراً أو مركبة عبر بها من الشرك إلي الإيمان، وكانت هذه الرحلة التي قطعها إلي الإيمان ثقيلة على نفسه وشاقّة.

ولا تشك المرأة في مقدمات حسان قيمة كبيرة، فكان يذكرها عرضاً وتقليداً، ويتركها دون أن يشتكي حبها أو هجرها ولا يألّم لفراقها، فيدعها غير آسف عليها ويدخل في موضوع قصيدة ولا يقف معها طويلاً في المقدمة ويتخلص منها في عجلة، قال في مقدمة القصيدة التي قالها في فتح مكة:

عفت ذات الأصابع فالجواء إلي عذراء منزلها خلاء
ثم يقول بعد أن بكى ديار الشام : ذات الأصابع ، والجواء وعذراء:

فدع هذا ولكن من لطيف يؤرقني إذا ذهب العشاء
شعناء التي قد تيمّته فليس لقلبه منها شفاء

فطيف الحبيب يؤرق الشاعر فيذهب نومه، ويتذكر شعناء التي استولت على قلبه، وذلتته وذهبت به كل مذهب، وشعناء امرأة مجهولة، قيل هي بنت سلام بن مشكم، قيل هي امرأة من خزاعة، وقيل لا يريد امرأة بعينها، وليست هي المرأة الوحيدة التي ذكرها بل هنالك "مى" قال حسان في مقدمة يرثي بها من قتل يوم أحد:

يا مى قومي فاندبن بسحرّة شجّو النوائح
وجاء كر "أم مالك" و "أم الوليد" وغيرهن ..

وقال حسان في رده على ابن الزبيري ، غير معتبط بباء الديار والحبيب:

فدع الديار وأذكر كل فريدة بيضاء أنسة الحديث كعاب

أي: اترك بكاء الديار وذكر المرأة الناعمة البيضاء الحبيبة الناهدة، وتكلم عما فعله

(1) ارجع إلي شرح القصيدة في موضوع الاعتذار ونص المقدمة .

المشركون برسول الله ﷺ.

ويكاد الشعراء يتفقون في وصف المرأة الحسي، فيصفون منها الطول والعنق، والوجه والأسنان والخسر والردف أو العجز، ويصفون حديثها ومشيتها وتمنعها .

وقد أثر الإسلام في الشعراء، فتركوا مفاتن الجسد وما فيه خروج عن الدين، فوصفوا الخلق والحياء والدين والعفة، وتحفظوا في الحديث عن المؤنات الحرائر العفيفات، وقد تحول الغزل في عصر النبوة من الوصف الحسي الصريح لجسد المرأة وسلوكها شبقاً إليها إلى مدح دينها وخلقها وحياتها وشرف أرومتها ونسبها وحسبها، وظهر تيار الغزل العفيف النفس من الحبيب وطيف الحبيب الذي يستبد بخيال المحب، فالحبيب يعيش مع روح حبيبه، ويتجاوز في حبه وثورة عاطفته جسد المرأة ويتجافى عن اللذة الحسية والشهوة، ويهيم في عالم الروح.

وقد مدح شعراء الإسلام ما توصف به المرأة من خلق حسن وحسن صنيع في قصائد كاملة ومن ذلك القصيدة التي مدح بها حسان رضى الله عنه السيدة عائشة يعتذر فيها عما قيل عنه أنه خاض في الحديث عنها، فوصفها بالعفة وكمال العقل. روى مسلم عن مسروق قال : دخلت على عائشة وعندها حسان بن ثابت ينشدها شعراً يشب بأبيات له فقال :^(١)

حَصَانُ رَزَانَ مَا تُرْزَنُ بِرَبِيَّةٍ وَتَصْبِحُ غَرْنَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ
وزاد البخاري أنها قالت : لكنك لست كذلك.

قال مسروق : فقلت لها : لم تأذنين له أن يدخل عليك وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١] فقالت : وأي عذاب أشد من العمى. قالت له : إنه كان ينافح - أو يهاجي - عن رسول الله ﷺ.^(٢)

وذلك أن حسان قد خاض في حديث الإفك. وقال عروة بن الزبير : كانت عائشة تكره أن يُسَبَّ عندها حسان، وتقول إنه الذي قال:^(٣)

فإن أباي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

(1) الحديث بلفظ مسلم، كتاب الفضائل، فضائل حسان بن ثابت رضى الله عنه، ورواه البخاري.

حسان : محصنة عفيفة، رزان : كاملة العقل ومذكرهما : محصن، ورزين، ما تُرْزَنُ : ماتتهم، اتهمت به خيراً أو شراً، غرنى : جائعة، ورجل غرثان، ومعناه : لا تغتاب الناس، شرح النووي جـ ١٦/٤٦، ٤٧ وزاد البخاري أنها قالت له : لكنك لست كذلك، قال مسروق فقلت لها لما تأذنين له أن يدخل عليك.

(2) صحيح البخاري، باب حديث الإفك.

(3) فتح الباري ٧/٤٩٦.

ولا يحمل ما امتدحه حسان من خلق وما استحسنة فيها على معنى الغزل ومفهومه عند الشعراء، فقصيدته حسان في السيدة عائشة من باب المدح، بيد أنها سميت تشبيهاً (غزلاً)؛ لأنها قيلت في مدح الشاعر حُسن خُلق السيدة عائشة، وهو في عرف القدماء تشبيب وفي اصطلاح بعض المحدثين مدح. وأجاز العلماء الغزل العفيف الذي يخلو من الفحش، ووصف الجسد وصفاً صريحاً. قال العجاج : دخلت المدينة فقصدت إلى المسجد النبي ﷺ، فإذا بأبي هريرة قد أكب الناس عليه يسألونه، فقلت : أفرجوا لي عن وجهه، فأفرج عنه. فقلت له : إني إنما أقول [يسأله عن حكمه] :

طاف الخيالانِ فهاجاً سَقَمًا خيالٌ أروى وخيالٌ تَكْتُمًا
تُريك وجهاً ضاحكاً ومِعْصَمًا وساعداً عبلاً وكعباً أدرماً

فما تقول فيه ؟ قال : قد كان رسول الله ﷺ يُشَدُّ مثلاً هذا في المسجد فلا ينكره.^(١) فقد كانت الشعراء يفتتحون القصائد بمقدمات غزلية أو طليئة، وقد كان عرفاً في الشعر، فيدخلون منها إلى غرض القصيدة، وقد كان النبي ﷺ يسكت عن هذه المقدمات تجوزاً حتى استطاعوا أن يتحرروا مما فيها من تصريح، فكنوا ثم سخرُوا منها، فتركها بعضهم، وكان بعضهم يتعفف منها، فتركوا المقدمة الخمرية بعدما حرمت الخمر، وقد كان الشعراء حديثي عهد بالجاهلية، وكانت تقليداً فاشياً في الشعر العربي، ومعطماً فيه^(٢). ولم يتوسع شعراء الإسلام في عصر النبوة في فن الغزل، ولم يقع كثيراً في شعرهم تورعاً وحياء، ولأن العصر النبوي كانت تستحوذ عليه هموم الدعوة والجهاد من أجلها، والصراع بين الإيمان والكفر وفن الغزل ينمو في سلام وسكينة وترف وملذات ومجالس طرب، وعصر النبوة يعلو على ذلك.

وما جاء منه في هذا العصر وقع في صدور القصائد أو مقدمتها، ولم يك موضوع القصيدة، وقد ترك الشعراء ما كان عليه الجاهلون وعفوا، وقد ظهر لون آخر من الغزل فيه تعفف وتحفظ ويعبر عن تجربة صادقة وحب طاهر لا تشويه شهوة وليس فيه ذل، وليس الحب بمحرم فهو مما لا قَسَمُ للإنسان فيه.

ونحمد الله تعالى أن قسمنا فيه حب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وصالحى المؤمنين.

(1) العقد الفريد جـ ٢٨٨/٥.

(2) جاءت المقدمة غزلية وطللية في بعض قصائد حسان رضى الله عنه التي قالها في الإسلام، وابتدأ بها كعب بن زهير في القصيدة التي اعتذر فيها وأسلم.